ويلفرد ثيسجير

رحلة إلى عرب أهوار العراق



الدار العربية للموسوعات



رحلة
إلى عرب أهوار العراق



رحلة
إلى عرب أهوار العراق
١٩٥١ ـ ١٩٥٨م

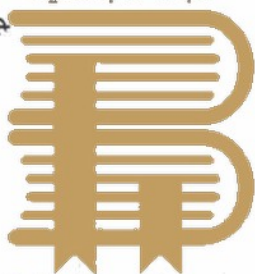


ميلغرد فيسجر

ترجمة

د. خالد حسن الياس

الدار العربية للموسوعات



الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م ـ ١٤٢٦ هـ





الدار العربية للموسوعات

الحازمية ـ ص.ب: ٥١١ ـ هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ ـ فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢
هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٣٨٨٣٦٣ ـ ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

كلمة الناشر

حبا الله بلاد الشرق مناظر خلاّبة، ومناخاً لطيفاً، حيث تسلّط الشمس عليها أشعتها الذهبية صيفاً وشتاءً. وأنعم على بلاد الرافدين بسحر الطبيعة ففيها جبال شاهقة، تكسوها أشجار بأشعة خضراء، تسرّ الناظرين، وتعطي ثماراً يانعة من كل نوع وجنس. وتكسو جبالها شتاءً حلّة بيضاء من الثلوج وسهولها خضراء، صالحة للزراعة، ووديانها سحيقة تجري فيها الأنهار، وصحاريها فسيحة، يخترقها نهران كبيران متوازيان من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. ولها روافد كثيرة متعاقبة تسبب أهواراً واسعة، غنيّة في محاصيلها، خلاّبة في مناظرها.

تنتشر فيها آثار تاريخية، تحكي قصتها للأجيال القادمة بأنها كانت في يوم من الأيام ذات شأن، متقدمة في الحضارة والمدنية، في عهد كان العالم فيه يتخبط في دياجير الجهل والظلام. وكيف لا، فهي مهد الحضارة الأولى ومنبع العلم والمعرفة.

لكنها أقوام تشتهر بالجود والكرم فضلاً عن الشجاعة والإقدام. وفي ثناياها قباب مطلية بالذهب لمراقد الأئمة الأطهار، وريازات عربية نادرة الوجود، تسلب العقول وتبهر العيون، وتجلب إليها الزوار. وفي باطنها النفط شريان المدينة الحديثة ومعادن أخرى لا تعدّ ولا تحصى. هذه الخصائص هي التي تستهوي قلوب الفرنجة لرؤيتها والتمتع بمناظرها الخلاّبة، فيشدون الرحال إليها من أقاصي المعمورة ليتحققوا بأنفسهم عما

سمعوه من أخبارها وعما قرأوه عنها، فمنهم من يقضي فيها أياماً قلائل، ومنهم من يقضي السنين، يسلك طريقه في الحياة كالسكان المحليين، يجوب أراضيها باحثاً ومستعصياً ودارساً ما يحلو له دراسته، فيكتب ما يعنّ له كتابته ليطّلع عليها أبناء جلدته، ولتكون دليلاً لمن يشدّ الرحال لمشاهدة هذه البلاد. وربما كان لهم من زياراتهم مآرب أخرى، يجعلون ظاهر أعمالهم ستاراً يخفون وراءها مآربهم التي جاءوا من أجلها. علينا أن نقرأ ما يكتبونه عنّا، إن خيراً وإن شراً. وعلينا أن لا ننفعل إذا ما أساءوا في كتاباتهم، إما جهلاً أو نقصاً في المعرفة أو عمداً بل يجب أن نردّ عليهم ردّاً علمياً ومنطقياً، نقارع الحجة بالحجة فيكون تأثيرها أكثر في نفوس القارىء الكريم، وقيمتها أبلغ شأناً.

وهذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارىء الكريم يبحث في «عرب أهوار العراق»، وهم قوم يسكنون منطقة تقع في القسم الجنوبي من العراق، ألّفه ويلفرد ثيسيجر Welfred Thesiger، البريطاني الجنسية، بعد أن عاش فيها سنواتٍ عديدة فرداً من أفرادها بحيث لم يسبقه في معالجته أحد من الروّاد.

ولد ويلفرد ثيسيجر في أديس أبابا في سنة ١٩١٠ وتلقى علومه في كليتي إيتون واكسفورد. أصيب هناك بكدمة في عينه من الملاكمة. في سنة ١٩٣٥ التحق بالخدمة السياسية في السودان. وعند اندلاع الحرب التحق بقوة الدفاع السودانية، ثم خدم فيما بعد في الحبشة وسوريا. إشتغل مع القوة الجوية الخاصة في الصحراء الغربية وحصل على قلادة الخدمة الممتازة. وكان يتنقل منذ زمن الحرب بين جنوب الجزيرة العربية وكردستان وأهوار العراق وهندوكوش وقرة قروم ومراكش والحبشة وكينيا وتنجانيقا، دائماً سيراً على الأقدام أو بواسطة الحيوانات. حصل على الميدالية الذهبية من المؤسستين للجمعية الجغرافية وميدالية لورنس العربية من الجمعية الملكية الأسيوية المركزية وميدالية ليفنكستون الذهبية من الجمعية الجغرافية

الملكية الاسكوتلاندية. ألف كتابه الأول وعنوانه رمال الجزيرة العربية ونُشر في سنة ١٩٥٩.

تحمّل المشاق الصعبة، عاش عيشة بدائية بسيطة للغاية، حرم نفسه من ملذات الحياة العصرية ومباهجها الفاتنة والمغرية وحياتها الاجتماعية الراقية، قاسى من شظف العيش ما لم يقاسه أحد من قبله، تجرّع مرارة الغربة ولوعة الفراق حتى أخذ يشعر بما يشعر به أبناء الأهوار ويحسّ كما يحسّون، فتكون كتاباته عنهم نابعة، من صميم الواقع والوجدان.

كما يجد القارىء في ثنايا هذا الكتاب أسلوب الحياة الاجتماعية بين سكان الأهوار وعاداتهم وتقاليدهم التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل، وطريقة تعاملهم مع بعضهم البعض ومع غيرهم.

كل ذلك أمور يجهلها كثير من الناس، لأن عالم الأهوار عالم قائم بذاته، منقطع عن العالم المحيط به.

كما يطلع القارىء أيضاً على طبوغرافية المنطقة وعلى أمور كثيرة أخرى، لا يحصل عليها المرء إلاّ بعد جهد جهيد، واستقصاء دقيق، وصبر طويل، وقدرة على تمييز ما يهم معرفته.

هكذا، نجد أن المؤلف قد كفانا شرّ كل هذه المتاعب والبحث بطرحه كل هذه الأشياء من كتابه هذا، فجاءت لقمة سائغة، سهلة الهضم.

آمل أن تروق قراءة هذا الكتاب للقراء الكرام وأن يكوّنوا فكرة عن جزء هام عن الأهوار في العراق الذي يخفى على الكثيرين منهم أسلوب حياتهم ومعيشتهم في عهد مضى عليه أكثر من نصف قرن تقريباً منذ صدور الكتاب بطبعته الأصلية الأولى.

أما إذا وجد القارىء بعض العبارات التي قد يتصور أنها تمسّ العرب بسوء فإنه مخطىء. لأن تبيان الحقائق أمر لا علاقة له بإلصاق التهم.

وفي هذه الحالة، يجب أن نحكّم العقل والمنطق وأن نتجرد عن التميّز ولا ندع العاطفة تتغلب علينا.

نسأله تعالى أن يهدينا سبل الرشاد، ويرفع من شأن أمتنا العربية والإسلامية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم المتمدنة ومن الله العون والتوفيق.

الدار العربية للموسوعات



كلمة المؤلف

عشت في أهوار العراق الجنوبية من نهاية سنة ١٩٥١ حتى حزيران سنة ١٩٥٨، وكنت أبقى فيها أحياناً مدة سبعة أشهر بشكل مستمر. والسنة الوحيدة التي لم أذهب فيها إلى الأهوار هي سنة ١٩٥٧.

مع أنني كنت على الدوام في حالة تنقل تقريباً إلاّ أنني أعتبر هذا الكتاب من كتب الرحلات لأن المنطقة التي تنقلتُ فيها محددة، كما أعتبره كتاباً يقوم بدراسة مفصّلة لسكان الأهوار الذين أعيش بين ظهرانيهم.

أمضيت هذه السنوات في الأهوار لأنني كنت أستمتع بالعيش هناك، وعشت خلال هذه الفترة من الزمن بين سكانها كفرد منهم، وأصبحت حتماً عبر هذه السنين، عارفاً بأساليبهم تقريباً، وحاولت أن أعطي صورة عنهم مما تحتويه ذاكرتي، ومما دونته في مذكراتي.

أدّت الاضطرابات السياسية الحديثة في العراق إلى إغلاق هذه المنطقة أمام الزوار، ومن المحتمل أن ينقرض قريباً، فتختفي، عند ذلك، طريقة الحياة التي دامت آلاف السنين فيها.

تغطي الأهوار مساحة من الأرض تقرب من ستة آلاف ميل مربع حول القرنة، حيث يلتقي في هذا المكان نهرا دجلة والفرات ليشكلا شط العرب. وهذان النهران يؤلفان الهور، والقصب هو النبات السائد فيه. أما الهور الموسمي، فإن نبات البردي يغطي معظم أجزائه ويجف في موسم

الخريف والشتاء. والهور المؤقت يتكون فقط حينما تغمر مياه الفيضان الأرض ثم ينجو فيما يعد نبات البردي. **ويمكن تقسيم هذه المنطقة بشكل ملاءم إلى المناطق التالية: ـ**

١ ـ **الأهوار الشرقية**: وهي الواقعة في شرق نهر دجلة.

٢ ـ **الأهوار الوسطى**: وهي الواقعة في غرب نهر دجلة وشمال نهر الفرات.

٣ ـ **الأهوار الجنوبية**: وهي الواقعة في جنوب نهر الفرات وغرب شط العرب.

هنالك أيضاً بعض الأهوار الدائمية تقع أسفل مدينة الشطرة وعلى شط الغراف الذي هو عبارة عن نهر يترك نهر دجلة من الكوت ويجري باتجاه الجنوب الغربي باتجاه الناصرية، وهنالك بعض الأهوار الموسمية من السهول الواقعة إلى شمالي شرقي مدينة العمارة حيث تتكون من الفيضانات الناجمة من نهري الطيب ودويريج اللذين يجريان من التلول الإيرانية ثم يتلاشيان.

وهنالك هور موسمي صغير في منطقة ألبودراج، على بعد خمسة عشر ميلاً إلى شمال العمارة وإلى غرب نهر دجلة.

وفي ذروة الفيضانات، تغطي قطع من المياه المنتشرة بقعاً واسعة من الصحراء المجاورة للأهوار، تختلف أحجامها في كل سنة وتمتد إلى مسافات شاسعة بحيث تزيد على (٢٠٠) ميل، من ضواحي مدينة البصرة إلى الكوت تقريباً. وعندما تنحسر مياه الفيضانات هذه تتحول معظم الأراضي المغمورة بالمياه إلى صحراء.

وفي فصل الربيع، يسبب ذوبان الثلوج في قمم الجبال في إيران وتركيا بارتفاع منسوب مياه نهري دجلة والفرات. والأهوار تكوّنت من مياه

الفيضانات عبر قرون عديدة ماضية ومن تدفق مياه هذين النهرين.

تأخذ الأهوار الشرقية والوسطى مياهها من نهر دجلة، وإن ٨٠٪ من تصريف المياه في بغداد تغور فيهما. فنهر الفرات نفسه يغور أسفل مدينة الناصرية بواسطة قنوات عديدة جداً، وتجري مياهها المتبددة تدريجياً إلى هور السناف ثم إلى شط العرب عبر مجرى نهر «كرمة علي» الواقع على بعد عدة أميال شمالي البصرة. ولا يزال المجرى القديم بين سوق الشيوخ والقرنة يُعرف بإسم نهر الفرات. وفي الحقيقة، إن المياه التي فيها ما هي إلاّ مياه تسربت من ضفاف نهر دجلة اليمنىٰ.

وإلى وقت حديث، كان الكثيرون يعتقدون بأن نهري دجلة والفرات كانا يجريان بصورة منفصلة إلى الخليج وأن الطمى المتكون كان يدفع تدريجياً الطريق الساحلي أبعد فأبعد نحو الجنوب.

أما النظرية الحالية، فقدمها من البداية في سنة ١٩٥٢ الدكتور. (جي. إم. ليز G.M.Lees) (وإن. إل. فالكون L. Falcon وهي أنّ تقل الطمى المتجمع يسبب ترسباً موازياً لسطح الأرض. وبقي معظم الطريق الساحلي على حاله دون أن يتبدل. يبلغ الفيضان السنوي ذروته على نهر دجلة من شهر مايس. وفي نهر الفرات في شهر حزيران. ويبدأ النهران من شهر حزيران فصاعداً بالنقصان حتى يصلا إلى أدنى مستوى من شهر أيلول وتشرين الأول.

أما في شهر تشرين الثاني فيحدث ارتفاع طفيف في منسوبهما ويزداد الارتفاع طوال فصل الشتاء، وقد تحدث فيضانات قصيرة الأمد فجأة خلال فصل الشتاء والربيع. أما الأهوار الوسطى فهي المنطقة التي بدأتُ أتعرف عليها بشكل أفضل، لأنني شرعت العمل فيها.

وفي الحقيقة حسبتُ هذا المكان وطني، وخلال سنوات بقائي كان عليّ أن أزور كل قرية تقريباً، مهما كانت صغيرة، فزرت فعلاً أكثرها مرات

عديدة. عندما كنت أحتاج لزورق لزيارة إحدى القرى، يأتيني به صبيانها الذين يستقبلونني كما يستقبلني رفاقهم من رجال القبيلة.

يبقى هؤلاء الصبيان طوال الوقت معي وتكون قراهم قواعد لي بعد عودتي من الزيارات. تنقلت تقريباً في كل أرجاء الأهوار الشرقية، لكنني ما عرفت الناس معرفة جيدة أبداً، لذلك بقيت غريباً مع أنهم كانوا يرحبون بي لأني كنت أساعدهم في الأمور الطبية. أما الأهوار الجنوبية فما رأيت منها إلاّ النزر.

إنني مدين بالعرفان إلى جون فيرني John Verney لكل ما قدمه لي من المساعدات والنصائح لإخراج هذا الكتاب وذلك خلال الأشهر التي كنت فيها معه في فلورنس. قرأ كل المسودات بأناة وصبر، وأجرى فيها التعديلات الكثيرة.

كما أنني مدين لـ (فال فرينتج بلانش) و(جورج ويب) Val French Bla[illegible]، Georg Web فأقدم شكري الجزيل لهما لما قدماه من اقتراحات هامة ولتلطفه[illegible] بقراءة مسودات الكتاب. إن الذي حثني على كتابة هذا الكتاب هو كراهام واطسن Graham Watson، وهو الذي تلقيت منه التشجيع الكثير والنصح الوافر. كما أنني أشكر أيضاً شركة جيمس سنكلير التابعة لوايت هول التي أولت اهتماماً كبيراً لتحميض التصاوير ـ طبعها ـ.

كما أشكر المستر كي.سي. جوردان K.C.Jordan الذي رسم لي الخرائط الموجودة في هذا الكتاب.

وأشكر موظفي متحف التأريخ الطبيعي والكثيرين من الأشخاص الآخرين الذين ساعدوني وزودوني بالمعلومات.

ويلفرد ثيسيجر

١ ـ لمحة عامة عن أهوار العراق

كنا نمتطي ظهور خيولنا ونسلك أرضاً منبسطة طوال النهار، ويرتفع الغبار من حوافر خيولنا إلى درجة تكاد تخنقنا. وكانت الأمطار قد انقطعت عن السقوط، كما يحدث كثيراً، فمالت النباتات النامية، وانكسرت فوق التربة، لم نجد على هذه الأرض المنبسطة أية أجمة ولا أية صخرة لتكون علامة بارزة لنقيس بها تقدمنا البطيء باتجاه خط الأفق.

كانت سروج خيولنا من نوع السروج العربية المعتادة وهي صلبة



بيت من بيوت سكان الأهوار

لكونها مصنوعة من الخشب. والركائب تتدلى بعيداً إلى الخلف بحيث تجبرنا على الجلوس إلى الأمام وتنحصر بين الجزء البارز من السرج في الأمام وفي الخلف، وهي أشبه بسروج رعاة البقر. وفي الحقيقة، تركز اهتمامي على السروج وأيقنت من أن الأمريكيين هم الذين أخذوه من هذه الأشكال. فالعرب أدخلوا هذا التصميم إلى إسبانيا ومنها أخذها الإسبان معهم إلى العالم الجديد.

بقينا على ظهور خيولنا وهي تسير سيراً اعتيادياً لأن رفيقي كان يمتطيها لأول مرة. ورفيقي هذا هو دوكالد ستيورات Dugald Stevert، نائب القنصل البريطاني في العمارة، وهو وإن كان بعمر (٢٩) سنة إلا أنه كان شخصاً ذا موهبة واضحة. وكان يقول على الدوام بأن ليس لديه أي طموح سوى إنهاء وظيفته كقنصل وبعدها يتمكن من الحصول على كل ما يريد من صيد البط الوحشي.

كنا نتبادل الأحاديث ونحكي ذكرياتنا عن (ايتون Eton) كما يفعل طلاب كلية إيتون القدامى. كان رفيقي هذا طالب مدرسة، حصل على رايتين مدرسيتين على الرغم من إصابته بعرج وإجراء عمليتين جراحيتين صيّرتاه أسوأ من السابق، أما أنا فلم أحصل على أية راية مدرسية مع أني سليم الساقين.

أمضينا ليلتنا بين عشيرة البزون، افترشنا الأرض في خيمة ضيوف الشيخ بعد تناولنا وجبة فاخرة من الأرز ولحم الضأن.

والخيمة مع أنها تستند على أحد عشر عموداً وهي واسعة جداً، ولا تختلف عن بقية الخيم السوداء الأخرى المصنوعة من شعر الماعز، وهذه الخيمة محاطة. بحاجز من جميع الجهات، إلاّ أنها مفتوحة من جهة واحدة على طولها.

تتجه فتحات الخيم كلها بالاتجاه نفسه، وأمام معظمها تجد حصاناً



راعي جاموس من عشيرة السويد المعدان

أو حصانين مربوطين وحولها مجموعة من الغنم والماعز تجد قسماً منها داخل كل خيمة.

راقبتها فرأيت الرعاء (الرعاة) الصبيان يسوقونها عند غروب الشمس، كل قطيع يسير داخل الغبار الذهبي المتصاعد. أما ثغاء الغنم طوال الليل فيحدث أصواتاً وضجيجاً يرتفع نباح الكلاب على أثرها ثم يخفت.

كنت قادماً من منطقة كردستان العراق متجهاً نحو الجنوب، وكنت قد ذهبت إليها لعلّي أجد فيها راحة البال، تلك الراحة التي كنت أعهدها في صحاري الجزيرة العربية الجنوبية، حيث عشت مع البدو هناك مدة خمس سنوات، وتنقلت معهم عشرات الألوف من الأميال في تلك الأراضي التي لا وجود فيها لأية عربة أبداً ـ حتى جاءت جماعات الزلزال، طليعة التقدم الحديث، للبحث عن النفط.

وفي كردستان العراق، التي كنت أرغب في زيارتها على الدوام، كنت أمتطي صهوة الدواب وأقطع الجبال من طريق إلى آخر، يصطحبني خادم كردي، شاب، ولا أحد غيرنا.

ونشاهد في مسيرنا أشياء عجيبة وغريبة وأخرى لطيفة.

لا يزال الأكراد القاطنون في المناطق الجبلية يرتدون الملابس المحلية الزاهية ـ غطاء رأس مزركش وسراويل عريضه، وسترة قصيرة وكمر وحزام من القماش ذي الألوان المختلفة.

يضعون الخناجر على أحزمة بطونهم، ويتدلى المسدس من جوانبهم، وتتقاطع صفوف الرصاص المنقوشة على صدورهم وهي مليئة بالعتاد كنت أنام في قرى سطوح منازلها تكوّن أرضية لدار أخرى وهي تعانق سفوح الجبل حيث الدور ذات السقوف المسطحة ترتفع من سطوح الدور التي تحتها. كما كنت أنام في خيم البدو السوداء المنصوبة على قمم الجبل الأجرد، فأرى بعض أنواع الزهور بين الحشائش وأرى الثلوج المتبقية



راعي غنم نصب خيمة على الحافة الشمالية من الأهوار



تجرفها الرياح طوال فصل الصيف.

كنت أسلك الطريق الذي يعقّب الأنهار الجارية من خلال غابات البلوط، حيث الدببة تنبش الأرض في الأحراش بحثاً عن الطعام. أراقب قطيعاً من الوعل وهو يسلك طريقه على طول سلسلة صخرية ارتفاعها (٣٠٠٠) قدم، بينما تمرّ من فوقنا، في الفضاء، أعداد كبيرة من النسور، والرياح تُحدث صفيراً من اصطفاق أجنحتها.

وكنت قد رأيت فصل الربيع الزاهي في جبال كردستان، التي تنتشر على سفوحها وعلى جوانب الوديان فيها أنواع مختلفة من الزهور الجميلة الزاهية، تخالها بساطاً زاهياً يسر الناظرين. وأُتخمت من كثرة أكل العنب الطازج الملقى تحت أشعة الشمس أو في جدول الماء الجاري البارد. وبعد أن شاهدت كردستان العراق لم تبق لديّ رغبة بالعودة إليها. فالسفر محدود جداً إليها كما هو الأمر بالنسبة للبحث عن غزلان الغابة الجبلية.

تقع تركيا عبر هذا المجرى من النهر، وتقع إيران وراء ذلك المجمّع من المياه، حيث ترى الشرطي ينتظر ببزته الرسمية في المضايق ويدقق سمات المرور، والتي ما كنت أحملها.

مضى من عمري خمسون (٥٠) سنة، فلو كنت في مقتبل العمر لسلكتُ الجبال من راوندوز إلى (أورميا) ثم إلى (وان)، إلا أن وجود قطاع الطرق والعشائر المعادية وقف حائلاً دون ذلك.

والأهوار التي أتجه إليها الآن هي، باعتراف الجميع، منطقة أقل سعة من المنطقة التي تؤلف منطقة كردستان الجبلية في العراق، ولكنها عالم كامل بحد ذاتها وليست جزءاً من عالم أوسع. وقد مُنعتُ من الدخول إلى بقية أجزائها.

وفضلاً عن ذلك، فإنني أحب العرب وربما لهذا السبب لا أكنّ حباً للأكراد حقيقة. فالناس هناك لا يعجبونني ولو أن المناظر الجبلية تعجبني



خيمة الشيوخ لأحد شيوخ آل عيسى

جداً وتروق لعيني.

وأعترف أن المانع كان بسبب جهلي لغتهم، ولكن، حتى لو كنت أتكلم لغتهم، فإني كنت أشعر بأنني لا أزال أكرههم.

ولما كنت أفضّل كثيراً حب الناس على حرب الأماكن، لذلك عدت إلى العرب بناءً على هذا السبب. وفي اليوم الثاني ركبنا خيولنا وإتجهنا صوب الجنوب قاصدين الأهوار هذه المرة، عبر أرض منبسطة. توقفنا عن السير عند الظهيرة لدى بعض العرب القاطنين في الخيام لتناول الطعام ولتبديل الخيول.

ركب زميلي دوكالد حصاناً جميل المنظر، رمادي اللون، إلاّ أنه حرون، وعندما اعترضت وقلت بأن هذا الحصان هو أفضل من غيره، ظن الشيخ، على ما يبدو، بأنني أريد أن أمتطيه لذلك قال لي بأنه من أجل القنصل.

سرنا، وبعد فترة وجيزة، وخز دوكالد الحصان بكعب قدمه من دون عمد فانطلق الحصان بسرعة. ولكي ينقذ القنصل نفسه، ترك العنان ومسك بقوة بكلتا يديه القسم البارز من السرج ثم تبعه رفاقنا بالسير جنباً لعلهم يلحقون به ويحولون دون سقوط راكبه. ثم أدركنا بأن عملنا هذا من شأنه أن يثير الحصان ويهيجه لذلك أمرتهم بالتوقف عن الجري.

أما دوكالد، فقد أخرج كلتا قدميه من الركاب وأصبح سقوطه من على ظهر الحصان حتمياً بين لحظة وأخرى. فاستبد بي الخوف والقلق لأن السقوط سيكون مروعاً وخصوصاً إذا كان على أرضٍ صلبة. إلاّ أنه لم يسقط، بل وقف الحصان منهوك القوى، بعد أن قطع مسافة ميلين تقريباً، وما زال دوكالد ممسكاً بالسرج بقوة بكلتا يديه، اللتين أصيبت راحتاهما بالخدوش بسبب المسامير التي كانت تزين القسم البارز من السرج وقال «إنني بخير، ولكن أفضّل السير مشياً على الأقدام». ولم نحثه على استبدال حصانه لأننا غير متأكدين من استجابة الخيول لراكب غريب.



الشيخ مزيد بن حمدان شيخ عشيرة آل عيسى

واصلنا السير والشمس ما زالت عالية، ورأينا شقوقاً عميقة على الأرض، ظهرت من بعد إنحسار مياه الفيضانات الماضية التي غمرتها وغطتها، وكان دوكالد يترنح ويتمايل في مشيته وهو يئن ويتأوه الأمر الذي حدا بالشيخ أن يلتمس مني بأن أقول لصاحبي أن يكفَّ عن أنينه وتأوهاته وأن يخلد للسكون. أدركنا غروب الشمس ولم نعثر على أي أثر للأهوار أو للقرى التي نقصدها، إلا أننا لمحنا من بعيد أضواء تتلألأ وخصوصاً عند اشتداد الظلمة..

كانت عشيرة البزون قد أخطرت الشيخ مزيد بن حمدان شيخ عشيرة آل عيسى بأننا متجهون إليه، فأصبح يتوقع وصولنا في كل لحظة. ولما تأخرنا، بعث مجموعة من أتباعه للبحث عنا. وحينما التقينا بها، قادتنا إلى خيام الشيخ المنصوبة على حافة الأهوار. وهنا كنا نحس بوجود المياه خلفنا دون أن نراها.

خرج الشيخ مزيد بنفسه ليرحب بمقدمنا، فرأيته شاباً صغير الجسم، ممتلىء البدن، قوي البنية، منتصب القامة، تدل هيئته على النبل والنفوذ.

وجدنا خيمة الضيوف مضاءة بالفوانيس، مليئة بالرجال، معظمهم مسلحون بالبنادق.

وحينما دخلنا الخيمة نهض الجميع، وأشار الشيخ مزيد إلينا بأن نجلس قبالة الموقد، ثم أخذ يسأل الأسئلة التقليدية حينما كنا نرتشف القهوة ونحتسي الشاي، وهي أسئلة عامة عن الصحة والأحوال وعن الرحلة. أما رجاله فكانوا جالسين جلسة معتدلة وهم سكوت لا ينبسون ببنت شفة لأن الشيخ هو المتكلم الوحيد.

نحن الآن في حضرة عرب الصحراء، وهم دوماً يتمسكون بالشكليات جهاراً ويشعرون بمنزلتهم ومقامهم الرفيع. تناولنا عشاءنا الذي جاءوا به بعد ساعة من الزمن، فأدخلوا الصواني الكبيرة وهي مليئة بالأرز وفوقها

كمية كبيرة من لحم الضأن. لم يكن الطعام لذيذاً غير أن طعام العرب كميّ لا نوعي.

أكلنا نحن الأربعة مع الرجال المسنين، ثم نادى الشيخ مزيد على الآخرين بالأسماء بأن يتقدموا لتناول العشاء. أما هو ولأنه المضيف، فقد انتظر إلى أن إنتهى الجميع. كانوا يجلسون إلى المائدة بوجبات. وعندما انتهت الوجبة الأخيرة من طعامها، نادى الشيخ مزيد الأطفال الذين ينتظرون في الظلام خارج الخيمة.

كان أصغرهم سناً عارياً تماماً، لا يزيد عمره على ثلاث سنوات، ملأوا بطونهم بالأرز الباقي، وكانوا ينهشون العظام التي جرّدت من اللحم وفرغت الصينية من الأرز، الذي ملأوا به الأواني التي جلبوها معهم. وأخيراً ألقوا بالعظام إلى الكلاب.

وقبيل الانتهاء، لاحظت القهواتي يجتزىء لنفسه شيئاً من الطعام ويضعه في طبقه بالقرب منه، أما الشيخ نفسه فإنه إنزوى جانباً وبدأ يتناول طعامه القليل، بينما قدمت لنا القهوة والشاي.



رجل من آل عيسى

راقبته في اليوم التالي وقت الطعام وهو واقف أمام الخيمة حتى يتأكد بنفسه أنه لم يعبر أي فرد من أمام خيمته دون أن يدخل فيها. وكان يذبح الغنم مرتين في اليوم إلى ضيوفه الذين قد يبلغ عددهم المائة شخص.

لا تزال هذه العشائر الرعوية تتمسك بهذه العادات. وهي التي تعطي فكرة عن عادات

العرب في صحارى الجزيرة العربية. وفي السنوات التالية، عدت مرات عديدة، إلى خيمة ضيوف الشيخ مزيد وزرت مخيمات كثيرة أخرى تعود لعشيرته. كنت أهرب خلال أشهر الصيف السيئة من الأهوار، مستعيراً الخيول، وأتوجه نحو القبائل التي تربي الأغنام.

وقد تعرّفت على معظمها: بني لام، البزون، آل عيسى، البوصالح وقبائل أخرى غيرها.

تجتاز بعض العشائر الحدود في فصل الربيع وتنتقل إلى التلال الواقعة في أسفل الجبال في الأراضي الإيرانية حيث تكثر فيها الحشائش الطرية، كما ينتقل الآخرون إلى المملكة العربية السعودية وإلى ضواحي الكويت خلال فصل الشتاء.

يقوم الرجال والصبيان برعي الأغنام والماعز، بينما تقوم النسوة المرتديات الملابس السوداء بنقل الأحمال على ظهور الحمير ومعهنّ الخيام وأعمدتها والسجاجيد والفرش وصناديق خشبية صغيرة والمواقد والصحون والكتالي.

وكثيراً ما كنت أراهم من خلال السراب وهم يتنقلون عبر الأرض المنبسطة الخالية التي تبدو كالبحر. وبعد وجبة الطعام، أخذنا الشيخ مزيد إلى داخل صريفة مجاورة ومشيدة من القصب والحصران، فُرشت فيها الفرش والبسط الملونة حتى ننام فيها. وهذه خلوة غير متوقعة لذلك كنت وزميلي دوكالد له من الشاكرين.

كان الهواء البارد الذي يهبّ علينا ونحن في هذه الصريفة، طوال الليل ينعشنا وكنت أسمع صوت تلاطم الأمواج على الساحل وأنا على وشك النوم.

وعندما خرجت من الصريفة وقت الفجر، شاهدت بحراً من المياه الشاسعة، تتلاطم أمواجه، ووراءه قطعة من الأرض، تبدو سوداء، قبالة شروق الشمس. فلاح المنظر لعيني كأنه شبح الحفيض، تلك الجزيرة

الأسطورية التي لا يستطيع أي فرد أن ينظر إليها ويبقى سليم العقل. ولكن، سرعان ما أدركت بأنني أنظر إلى أرض واسعة مفروشة بالقصب. كما رأيت زورقاً أنيقاً مطلياً بالسواد، له مقدمة عالية، يرسو أمامي ـ هذا هو زورق الشيخ الحربي جاءوا به لنذهب سوية لمشاهدة الأهوار.

وقبل أن تُبنى القصور الأولى في أور، كان الرجال يخرجون من مثل هذا البيت عند الفجر يبحرون بمثل هذه الزوارق من أجل الصيد. اكتشف المستر ڤولي Voolley. مساكنهم ونماذج من زوارقهم المدفونة تحت أعماق خرائب السومريين. وهذه المكتشفات هي أكثر قدماً من عهد الطوفان. فهنا يكمن تأريخ خمسة آلاف سنة، والزوارق لا تزال باقية على شكلها القديم.

بقيت ذكريات زيارتي الأولى إلى الأهوار عالقة في مخيلتي تأبى أن تغادرني. وما تلك الذكريات إلاّ عبارة عن ألسنة النار المسلطة على أنصاف الوجوه، وصياح الأوز ورفرفة أجنحة البط وهي تهمّ بالطيران لتبحث عن الطعام، وصوت صبي يغني يأتي من مكان بعيد في الظلمات، وحفيف الزوارق وهي تمخر المياه في احتفال مهيب وموكب بديع، مغيب الشمس التي تظهر للعيان بلون قرمزي من خلال الدخان المتصاعد من إشتعال القصب، والطرق النهرية الضيقة التي تتلوّى نحو أعماق الأهوار، منظر رجل عارٍ في الزورق ورمحه (فالته) بيده. الطرائف المشيدة فوق المياه، والجواميس السوداء المستحمة بالمياه، والتي تبدو كأنها عجول البحر خرجت من المستنقعات إلى أول أرض يابسة، ولألأة النجوم من السماء نراها منعكسة على المياه الداكنة وأصوات نقيق الضفادع كأنها أنغام موسيقية والزوارق والمشاحيف وهي عائدة في المساء، والسلام المتواصل والهدوء والسكينة في عالم الأهوار الذي لا يعرف المكائن والآلات وضجيجها.

ومرة أخرى شدّني الشوق لأسهم في هذا النمط من الحياة، وأن أكون هذه المرة أكثر من مجرد شخص متفرج.

٢ ـ الرجوع إلى حافة الأهوار

بعد ستة أشهر كنت أتنقل على ظهر زورق مبطن بقير، تتسرب إليه المياه وكنا نسلك أحد فروع نهر دجلة ونحن متجهون نحو الأهوار ويجذفه شخصان من العرب، كان أحدهم رجلاً عجوزاً، قد وخط الشيب رأسه، نحيل الجسم هزيلاً جداً، يرتدي ثوباً مرقعاً، ضاع لونه، يصل إلى تحت الركبة قليلاً. أما الآخر فكان ممتلىء الجسم، صبياً، عمره خمس عشرة



مغيب الشمس على حافة الاهوار

سنة، أحول العين، يرتدي سترة قديمة فوق دشداشة بيضاء، تمنطق بالحزام حتى لا تسحل على الأرض.

يضع كل واحد منهما على رأسه كوفية (يشماغاً) من النوع الذي يرتديه بشكل عام رجال العشائر من الشيعة في جنوب العراق، وهي عبارة عن قماش مساحته ثلاثة أقدام مربعة واسمه الشائع اليشماغ.

وبما أنهم لا يعتمرون العقال الأسود، فإنهم لفّوا هذا اليشماغ على شكل مثلث ووضعوه فوق الرأس.

كان العجوز يجلس في مؤخرة الزورق العالية، وجلست أنا في بطن الزورق متربعاً على قطعة من الحصير ووضعت أمتعتي أمامي، والتي هي عبارة عن صندوقين من التنك الأسود اللون، إحداهما مليء بالأدوية والآخر بالكتب والأقلام وخراطيش العتاد وغيرها من الأشياء. ووضعت فوق الصندوين كيس سرج كردي محاكاً من ألوان زاهية فيه بطانيات وملابس زائدة. ثم وضعت إزاءها بندقية الصيد عيار ٠,٢٧٥ وهي داخل غطاء من الجنفاص.

النهر الذي نسلكه بعرض (٣٠) ياردا، سريع الجريان وعميق، كانت أصابع يدي تلامس سطح الماء حينما كنت أمسك بجوانب الزورق. ويهبّ نسيم بارد من أعلى المجرى بحيث يرفع موجات من الماء الذي يتطاير إلى وجهي وأمتعتي.

جلست ساكناً بدون حراك، لأنني إقتنعت من أنّ أية حركة تبدر مني تتسبب في انقلاب الزورق. وكنت أرى هذين العربيين يديران دفة الزورق بدون اكتراث وقد حافظا على موازنة الزورق.

توقف الصبي عن التجذيف ثم حبا إلى بطن الزورق ليستظل ثم أشعل سيكارة. ونهض العجوز وأخذ يجول بنظره كأنما يبحث عن صديق يعمل في الحقول. ولم أستطع، وأنا في بطن الزورق، أن أرى أي شيء سوى

الحافات المنحدرة لضفتي النهر والذي يبلغ ارتفاعها (٤) أقدام.

كانت السواقي المخصصة لجرّ المياه من النهر تعترضهم بكثرة وبشكل متعاقب وهي تختلف من حيث الحجم. وأرى في رأس كل ساقية كومة من البعرور، الواحدة منها بطول قدمين أو ثلاثة أقدام، وأصبح لونها كالتراب مائلاً إلى الزرقة والاخضرار.

رأيت السلاحف تنزلق من أماكنها على الضفتين وترمي بنفسها إلى الماء الذي أراه بلون رمادي. كان بعض السلاحف مسطح الشكل، له ترس طري، طول الواحد قدمان على الأكثر ثم يتموج هذا السطح عند الحافات أثناء السباحة. وبعضها الآخر صغير يشبه السلحفاة العادية كثيراً.



داخل الأهوار

وتمرق الطيور المرقطة الصائدة للذباب من فوق رؤوسنا، أو نراها معلقة في السماء، ترفرف بأجنحتها بشدة قبل الانقضاض. والحدأة تدور فوق رؤوسنا، وسرب من الغربان يطير من الأرض الزراعية الكائنة خلف الضفتين محدثاً ضجيجاً وصخباً عالياً.

والضباب المنخفض متسلط فوق رؤوسنا يحيل كل شيء إلى لون أسمر كالتراب. مررنا بقرية صغيرة ذات أكواخ من القصب،

وهي رمادية اللون تبدو كأكوام غيّرتها الأحوال الجوية، ورأينا النساء المرتديات الثياب السوداء وهنّ يغسلن الأواني والصحون على حافة النهر بين أسطول من المشاحيف السوداء الراسية على الضفة الموحلة.

خرج أحد الرجال من الكوخ وصاح به صاحبنا العجوز قائلاً «السلام عليكم». فأجابه الرجل قائلاً: «وعليكم السلام» ثم أردف قائلاً: «مَلْحوا» [أي انزلوا وتناولوا الطعام]. فأجبناه قائلين «كفو! الله يحفظك». وتسابق في هذه الأثناء ستة كلاب على طول الساحل بجانبنا، وهي تنبح وتكشر عن أنيابها إلى أن توقفتْ بسبب وجود حفرة عريضة لا تستطيع إجتيازها.

وفي ذلك اليوم، كنت قد غادرت مدينة العمارة في الصباح، وكان ذلك في الأسبوع الأول من شهر شباط سنة ١٩٥١، وكنت إستأجرت مشحوفاً في المجرى الكبير ليأخذني إلى مسافة خمسة أميال على طول مجرى النهر قاصداً دار الشيخ فالح بن مجيد الخليفة الواقع على حافة الأهوار. كان والده أحد الشيخين البارزين من عشيرة البومحمد الكبيرة، إذ يبلغ تعدادها مقدار (٢٥,٠٠٠) مقاتل. وكنت آمل أن أقضي عدة أشهر في الأهوار. وكان دوكالد ستيوارت قد أخبرني بأن الشيخ فالح هو أفضل شخص يستطيع مساعدتي.

جلست القرفصاء في بطن المشحوف وأنا غير مرتاح، وكنت أجول بنظري فيما حولي مستغلاً استداراتنا مع تعرجات النهر لعلّي أرى الأهوار ولكن دون جدوى، وما كنت أرى غير النهر الرمادي اللون الذي يجري في أرض منبسطة.

وبعد استدارة أخرى، انقسم النهر إلى قسمين، فرأيت أمام القسم الرئيس من النهر صفاً طويلاً من المساكن المبنية من القصب بشكل جيد، ومن خلف هذا الصف من الدور، وفي أرض مكشوفة رأيت داراً بدور واحد، مبنياً بالطابوق، سطحه مستوٍ، يشبه القلعة.

ورأيت شيئاً أدهشني. بناءً مشيداً من البراميل وسقفه من الحصير، عسليّ اللون، وفي كل طرف أربعة أعمدة مستدقة الشكل على خط سقف البناء. كان البناء مشيداً على أرض بين جدولين، فقال لي العجوز «هذا هو مضيف الشيخ فالح». ورأيت صبياً يقف أمام الدار، سرعان ما دخل حين رآنا، ثم خرج بعد فترة وجيزة عدد من الرجال لاستقبالنا.

أشار صاحبي العجوز إلى رجل سمين، يرتدي عباءة سوداء، جيدة الصنع فوق معطف من قماش غامق اللون ثقيل وهو يقول: «هذا هو الشيخ فالح».

وحالما لامست مقدمة المشحوف الساحل قفز الصبي منه بمهارة ومسك المشحوف الذي بدأ يهتز ويتأرجح على الشاطىء. ثم خرج العجوز من المشحوف وتقدم نحو الشيخ فالح وقبّل يده وقال له «إنكليزي من العمارة يا محفوظ».



ألقى الشيخ فالح نظرة عليّ وقال «مرحباً بك» فرأيته شخصاً ذا نفوذ، ذا وجه رجولي، محلوق ما عدا الشارب، له حاجبان كثيفان سوداوان ملائمان أنفه الكبير البارز. وجهه مؤطر بثنيات الكوفية التقليدية البيضاء المرقطة بالسواد، ويضع على رأسه العقال الأسود.

ولما نهضت، تمايل الزورق، وانسكب الماء من فوق القسم العلوي منه، فقال فالح: «انتظر لحظة» ثم وجه كلامه إلى العربيين قائلاً لهما «أسرعوا ـ ساعدوه» ثم مدّ يده القوية جذبني إلى الساحل وهو يكرر قائلاً «مرحباً بك». ثم التفت صوب رجل يقف بجانبه وأمره قائلاً: «دير بالك. شوف جابوا حاجبات الإنكليزي إلى المضيف؟» ثم قادني نحو باب الدار وقال لي «أهلاً وسهلاً بك. تصرّف كأنك في بيتك». وبعد أن نظفتُ حذائي مررت من بين الأعمدة وهي بطول ثمانية أقدام، كل واحد مؤلف من حزمة من القصب السميك، سيقانها المنظفة من الأوراق محكمة الربط

بحيث يبدو سطحه ذا ملمس ناعم ومصقول.

وجدت القاعة الكبيرة مليئة برائحة الدخان خافتة الضوء بحيث لا يمكن مقارنته بالشمس اللمّاعة في الخارج. وشاهدت الرجال واقفين بمحاذات جدران القاعة فقلت لهم «السلام عليكم» فأجابوا جميعاً «وعليكم السلام» ثم جلسنا على سجاد مزركش الألوان فرش فوق الحصير ثم جلس الآخرون في أماكنهم متكئين على طول الجدران. ووضع المسلحون بنادقهم أمامهم. لاحظت وجود سجادتين قديمتين لطيفتي الشكل. باللون الأزرق والذهبي وضعتا في آخر القاعة أبعدهما الشيخ إلى ذلك المكان استبدلتا بأخريين جديدتين من أجل جلوسنا.

ورأيت في الطرف البعيد أيضاً، قبالة الجدار، صندوقاً خشبياً. وبالقرب من المدخل كوزاً كبيراً من الفخار مملوءاً بالماء يستند إلى إطار خشبي، ولم أشاهد أثاثاً آخر. يقع الموقد على بعد ثلث الطريق إلى القاعة وفي وسطه. وهنا في الموقد ترى صفاً من دلالة القهوة، يبلغ عددها إثني عشرة دلّة، أكبرها بارتفاع قدم

ووفقاً للطريقة العربية، يجري تفريغ ترسبات الخمائر السابقة في هذه الدلّة الكبيرة. أما القهوة التي تكون على شكل سائل فتُصبّ في الدلال الأخرى الأصغر منها. توضع القهوة الجديدة المخمرة في أصغر دلّة وتكون جاهزة على الدوام عند وصول أي ضيف بارز.

كان يجلس بجانبي رجل عجوز وهو الوحيد الذي لم يلبس العباءة. كان يُشغل نفسه بإعداد القهوة. فحالما تتحمص حبات القهوة يبدأ بسحنها من داخل هاون نحاسي صغير ويبدأ بضربها حسب إيقاع إعتاد عليه. وهذا الصوت اللطيف يدل على أن القهوة في مضيف الشيخ جاهزة. ويحق لكل من يسمع هذا الصوت المجيء إلى المضيف.

راقبت هذا الشخص فرأيته ينهض وبيده اليسرى دلّة القهوة وفنجان أو

فنجانان صغيران من صنع الصين في يده اليمنى. وهذا الفنجان أكبر بقليل من كأس تجويف البيضة اقترب من الشيخ فالح فصبّ عدة قطرات في الفنجان الأول وقدّمه له، لكنه أمره بأن يقدّم القهوة لي أولاً. وأنا بدوري رفضت ذلك، ولما أصرّ الشيخ فالح، شربت القهوة، بينما صب القهوة في الفنجان الثاني وقدمه للشيخ.

كانت القهوة مركّزة وطعمها مر. وبما أنني أعرف عادات العرب جيداً، تناولت ثلاث مرات قبل أن أهزّ الفنجان هزّة خفيفة لأبين له بأنني اكتفيت.

ثم بدأ القهواتي يتنقل ببطء في القاعة مقدماً القهوة إلى الآخرين حسب ترتيب مركزهم من الأهمية. ثم قدم الشاي لي ولصاحبيّ اللذين أوصلاني بالزورق وإلى الشيخ فالح في إستكانات مذهبة.

وفي هذه الأثناء دخل أكبر أولاد الشيخ فالح إلى القاعة ويبلغ من العمر ست عشرة سنة. شاهدت أنفه كأنف والده، غير أن وجهه أقل استدارة وأضعف من وجه أبيه، قدّمه الشيخ فالح لي قائلاً: «خادمكم» وأمره بأن يشرف على إعداد الغداء، ثم وجه كلامه إلي قائلاً: «إنني خجلان لعدم تقديمي الطعام المناسب لك لأنك أتيت بدون أن تخبرني، أعذرني. أرى أن تأكل كل ما يقدم لك من الطعام الجاهز أفضل مما تنتظر حتى نذبح لك شاة لأنك جائع حتماً الآن من بعد هذه الرحلة الطويلة».

والسكوت لفترات طويلة في مجالس العرب عادة غير مستحبة أبداً بين الضيف ومضيفه. سألني الشيخ فالح مرتين أو ثلاث مرات قائلاً: «كيف حالك؟» فأجبته «الحمد لله» ثم يسألني أيضاً أكثر من مرة «هل كانت سفرتك مريحة؟» فأجبته «كانت مريحة جداً والحمد لله».

لم يتفوه أي فرد من الجالسين بأي كلام ما عدا الشيخ. رأيته ينهمك بتصريف شؤون العشيرة لأن المضايف هي غرف للمقابلات حيث يجلس الشيخ صباحاً ومساءً يدير فيها أمور العقارات ويحسم الخلافات

والمنازعات بين أفراد عشيرته.

يملك عدد قليل من الشيوخ، مثل الشيخ مجيد الخليفة، والد الشيخ فالح، أملاكاً واسعة جداً بحيث يجنون من ورائها مئات الألوف من الجنيهات سنوياً. وكانت الأراضي، فيما مضى، تعود إلى العشائر. ويحكم الشيخ ما دامت عشائره تتبعه. غير أنه في السنوات الأخيرة كان الشيوخ يتملكون الأراضي فعلاً. فأصبح الآن بين العشائر المستوطنة أصحاب أراضي بينما قلّ شأن رجال العشائر فأصبحوا عمالاً، يزرعون الحقول مقابل حصة من المحصول بدون أي ضمان في امتلاكها. تعود ملكية كل الأراضي في لواء العمارة نظرياً إلى الدولة، وهي التي تؤجرها بعقود إلى الشيوخ. ويدفع هؤلاء الضرائب المترتبة عليهم فيعتبرونها عند ذاك أراضي تعود لهم ولن يسأله أحد عن شرعية ذلك ما دام متنفذاً.

والمفروض أنه لا ينبغي أن تكون للشيوخ سلطات قضائية إلا أنّ قضايا قليلة بين رجال العشائر (ما عدا قضايا القتل، ولكن ليس هذا دائماً) تأخذ طريقها إلى المحاكم الحكومية.

ويفضّل رجال العشائر تحكيم الشيوخ الذين يعرفونهم في مقاضاة الموظفين الذين ليس لهم أي شيء مشترك معهم، وأنه بوجه عام، ترضى الحكومة بأن تبقى بعيدة عن مشاكلهم وقضاياهم فلا تتدخل. عالج الشيخ فالح عدة قضايا. فأصدر أوامره بوجوب تقوية السداد الترابية قبل ارتفاع منسوب المياه. ثم بحث مسألة تخصيص قطعة أرض زراعية للأرز للمحصول القادم. ثم أنذر أحد الأشخاص بأن يدفع حصة غلاله التي لا تزال غير مدفوعة.

وعلى أية حال، بعد أن وجدت من الصعب تتبع اللهجة العامية، بدأت أتفرس في وجوه المقاتلين وأدرسها. فلفت نظري إختلاف أشكالهم وتراكيبهم العريضة والضخمة عن أشكال البدو وتراكيبهم من سكان الجزيرة

العربية اللطيفة ـ اختلاف بين حصان جر العربات وبين الحصان الأصيل ـ.

ولكن من الصعب أن يكوّن المرء فكرة عنهم تحت ظروف كهذه. كان كل شخص يجلس بهدوء وقد لفّ العباءة على جسمه، ووضع الكوفية والعقال فوق رأسه، ذلك العقال الأنيق في هذا الجزء من البلاد. ولفت نظري أيضاً أنهم أناس دمثوا الخلق وظرفاء، وهم مستعدون لقبول الضبط، غير أنني شككت في أنهم سيكونون عنيدين وسريعي الغضب إذا ما أُثيروا.

كان المضيف، الذي قسته فيما بعد، بطول ستين قدماً وبعرض عشرين قدماً وبارتفاع ثمانية عشرة قدماً. لكنه كان يعطي انطباعاً بأنه أكبر بكثير من هذه القياسات وخاصة عندما دخلت فيه لأول مرة.

ويستند السقف على أحد عشر قوساً وهي على غرار الأعمدة الموجودة في المدخل مصنوعة من جذوع القصب الضخم، تربط سوية ربطاً محكماً بحيث تصبح محيطة بالمكان الذي يبرز فيه من الأرض (٩) أقدام ومحيطه من القسم العلوي ٢/٥ قدم.

ولاحظت بأن القصب يمكن أن يسمو حتى يصل إلى ارتفاع خمسة وعشرين قدماً. ويجري ربط حزمات أخرى من القصب بعضها فوق بعض على طول البناية بأسرها خارج الأقواس حتى يكمل الهيكل الخارجي بحبال قطرها عقدتان.

إن هذا التباين بين هذا التضليع الأفقي وشكل الأقواس العمودية يعطي منظراً يلفت النظر.

أما السقوف نفسها فهي مغطاة بحصران من القصب، تشبه تلك المفروشة على أرضية القاعة ومحاكة حتى الأضلاع بطريقة بحيث تضمن أنها تبدو على شكل أربع طبقات. كانت جوانب القاعة بلون ذهبي باهت، غير أنّ لون السقف كان غامقاً بسبب الدخان فأصبح بلون الكستناء الغامق ويظهر بشكل كأنه مصبوغ.



قرية الرفيعية ـ تقع على الحافة الشمالية من الأهوار

وبإشراف ابن الشيخ فالح ظهر عدد من الخدم ووضعوا أمامنا حصيرة مستديرة الشكل، قطرها خمسة أقدام تقريباً، محاكة بالأسل الناعم. ووضعوا فوق الحصيرة صينية مستديرة أيضاً، فيها تل من الأرز. كما وضعوا عدداً من صحون المرق المؤلف من الخضار، وثلاث دجاجات محمصة، وسمكاً مشوياً وتمراً بالإضافة إلى صحون فيها المحلبية وأقداح فيها اللبن المخفوق وأوعية فيها الشربت.

وفي هذا الوقت، كان معظم الجالسين قد غادروا المضيف. وكنت أتوقع أنهم سيمكثون لأن العرب من العشائر تجتمع عادة عندما يكون الطعام جاهزاً. غير أنني عرفت فيما بعد بأنه في هذه الأجزاء من البلد يُبقي الشيوخ من العشائر البدوية فقط دورهم مفتوحة في خيم الضيوف. أما الآخرون، ما عدا في مناسبات خاصة، فإنهم يتوقعون من أن أتباعهم يتناولون طعامهم في بيوتهم ويطعمون المسافرين القادمين من أماكن بعيدة فقط.

والآن رأيت فقط ثلاثة رجال كبار السن ضيوفاً بالإضافة إلى ثلاثتنا ـ أنا ورفيقاي أصحاب الزورق.

تناول الشيخ فالح وولده الطعام معنا. وجلب أحد الخدم إناء وإبريقاً فيه ماء فغسلنا أيدينا بالتعاقب الواحد بعد الآخر. ثم قال الشيخ فالح: «هيّا. خذوا راحتكم. كأنكم في داركم». وبدأ يوزعها علينا. فوضع قطعة كبيرة في صحني الذي جيء به بشكل خاص وفيه ملعقة وشوكة.

ولما شاهدت الجميع يأكلون بأيديهم من الصينية الكبيرة، بدأت أنا أيضاً أتناول طعامي مثلهم. فقال لي الشيخ فالح: «إستعمل الملعقة والشوكة لأن ذلك سيكون أسهل لك». لكنني قلت له بأنني كنت أتناول طعامي لسنوات طويلة بيدي فتعودت على الطريقة التي يستعملها العرب فأجاب على ذلك قائلاً: «إذاً أنت واحد منّا».

وبعد الانتهاء من تناول الطعام بدأنا نغسل أيدينا مرة أخرى ثم قدموا لنا القهوة والشاي. وبعدما لاحظت بأن الشيخ فالح ينظر إلى بندقيتي، ناولته إياها قائلاً له أن يعطيني رأيه فيها لأن كل رجال العشائر لهم ولع شديد بالسلاح.

جسّ ثقلها وأمعن النظر فيها ثم صوب بها ثم قال «هذه بندقية جيدة». وفي الحقيقة كانت بندقية جيدة. ثم سأل عن قيمتها وهي عادة متبعة عند العرب.

وأخيراً، مثلما كنت أتوقع، سألني عن خططي. فقلت له بأنني أريد الذهاب إلى الأهوار حتى أرى المعدان.

«هذا سهل. سأبعثك إلى قرية قباب، وهي قرية كبيرة في قلب الأهوار. ومنها جلبوا لنا القصب لبناء هذا المضيف، وللشيخ مجيد، والدي، ممثل هناك. فإذا أردت أن تمضي ليلتك هناك فإنه يملك داراً مناسباً. وفي هذه القرية يمكنك أن ترى كيف يعيش المعدان، لا تجد فيها سوى الجاموس والقصب والمياه. يمكنك أن تتجول هناك بالمشحوف فقط. لا توجد أرض يابسة فيها، وهنالك البط إذا أردت أن تصيد». شكرته على ذلك وقلت له بأنني أريد أن أمضي عدة أشهر بين المعدان.



من قلب الأهوار بالقرب من بحيرة زكري

«قباب هي المكان الجيد. وصدام له مضيف فيها، والمعدان يعيشون كما تعيش جواميسهم» ثم استمر قائلاً «بيوتهم نصفها تحت المياه، مليئة بالبعوض والبرغوث، فإذا جرّبت ونمت في أحد بيوتها ربما يدوس وجهك الجواميس خلال الليل. والمعدان هم أناس فقراء، لا يملكون الطعام المناسب، وكل أكلهم من الأرز واللبن. الأفضل لك أن تمكث هنا حيث يمكنك زيارة الأهوار حيثما شئت ومتى ما ترغب. عندي قوارب ورجال يأخذونك إلى أي مكان تريده. أمكث هنا في الليل واقضي نهارك في الأهوار. هذا هو الشيء المعقول الذي يجب أن تفعله».

قلت له بأنني قد أمضيت من قبل عدة أيام في الأهوار مع القنصل في العمارة في السنة الماضية. عدت الآن لأنني مولع بالمعدان وأريد أن أعرف الشيء الكثير عنهم، ولا يمكنني ذلك إلا بالعيش بينهم «كنت أتنقل على الدوام في حياتي في أماكن موحشة، وتعودت على العيش بدون راحة. أمضيت السنوات الخمسة الأخيرة في الربع الخالي. العيش صعب هناك. وكنت دوماً أشعر بالجوع والعطش. أما هنا، على أية حال،

سأحصل على كل ما أريده من الماء».

ضحك الشيخ فالح وقال: «نعم، والله، لن تكون في عوز للماء. ستنام فيها، أنتم الإنكليز قوم عجيبون! ليلة واحدة في الأهوار هي كافية لي حينما يتوجب مني الذهاب إلى هناك لقضاء الأشغال التي تتعلق بالمشيخة. لا أنام هناك من أجل المتعة. وعلى كل حال، أمكث معي يوم غد ثم أرتب مستلزمات الصيد لتخرج إلى صيد الخنازير. سأبعثك إلى قرية قباب بعد غد وأطلب من صدام بأن يهتم بأمورك ويعتني بك. ولا بدّ وأن تتجول هذه الليلة معي في المزارع لأرى عما إذا كنت قادراً على صيد بعض طيور الحجل. سأتوكل الآن لكي تستريح».

ثم سألني قائلاً: «هل اصطدت يوماً خنزيراً؟. كن حذراً، إنها حيوانات خطرة، ففي الأسبوع الماضي هاجمت إحداها شخصاً وقتلته بالقرب من هذا المكان بينما كان ينظر إلى زرعه. إنني أشك أن نجد خنزيراً هذا اليوم. ولكن لا بدّ أن نجد بعض طيور الحجل».

كنا نسير برتل مفرد على طول حاجز ترابي يحادد قناة ري واسعة ويؤدي إلى بستان نخيل يلوح لأعيننا مظلماً إزاء السماء. وهذا الحاجز الذي صنعه الإنسان جعلنا نرتفع عن مستوى الأرض المنبسطة والفسيحة جداً والذي يشتهر به القسم الجنوبي من العراق.

فالأرض المنبسطة تمتد باتجاه الشرق نحو مائة ميل حتى سفوح التلول الإيرانية، وإلى الجنوب مقدار (١٥٠) ميلاً حتى البحر، وإلى الشمال مقدار (٢٠٠) ميل حتى بغداد، وإلى الغرب إلى ما وراء نهر الفرات بحيث تندمج مع صحراء الجزيرة العربية. وكنا نقفز من حين لآخر، ساقية يجري فيها الماء لسقي الحقول تحتنا. واندفعنا مرة مسافة قليلة ونحن نسير تحت أشجار النخيل فمشينا بسرعة من خلال غابة تحتوي على أشجار ذات أشواك ارتفاعها (٣ ـ ٤) أقدام حتى وصلنا إلى أرض مكشوفة. وهنا

وجدنا الأرض لزجة ومغطاة بطبقة من الملح. وبعملنا هذا هيّجنا طيور الحجل البرية السوداء، فلم تسنح لنا أية فرصة حتى نطلق النار عليها.

وعند عودتنا إلى القرية، رأينا ثلاثة طيور من البط وهي تطير فوقنا، قادمة من الأهوار على ارتفاع عالٍ، فأطلق الشيخ فالح طلقة أصابت واحدة منها فسقطت على الأرض. هنأته على رميه هذا وعجبت عما إذا كانت رمية من غير رامٍ أم أنه رام جيد. واكتشفت فيما بعد أنه رام ماهر وهدّاف.

وصلنا القرية عند الغسق، وجدنا فانوساً يضيء المضيف، معلقاً من السقف بواسطة حبل، ووجدنا ستة أطفال وهم جالسون في الداخل. ثم قال الشيخ بأن موعد صلاة المغرب قد حان وعليّ أن أؤدي الصلاة.

كان المضيف يتجه نحو القبلة الجهة التي يتجه المسلمون في صلاتهم نحوها على الدوام، والمفروض أن المسلمين يصلون خمسة أوقات ـ وقت الفجر، عند الظهيرة، وقت العصر، عند مغيب الشمس ثم صلاة العشاء من بعد مضي ساعتين. ولاحظت أن عدد المصلين قليل في هذا المكان وأن المصلين هم من كبار السن.

وبعد أن إنتهى الشيخ فالح من أداء الصلاة، طلب إحضار الطعام، ولما جاءوا به، رأيته على غرار الطعام الذي قدموه لي من قبل ما عدا وجود لحم ضأن مقلي بدلاً من لحم الدجاج ووجود بعض القطع من اللحم في أطباق المرق. وبعد الإنتهاء، جاء الخدم ورفعوا الصحون ثم نظفوا المائدة ثم جاءوا بعده من الحصران والفرش والوسائد وأغطية النوم المبطنة بقماش أخضر اللون أو أحمر أو أصفر. وبقي معنا رجلان من كبار السن فأمضوا الليل معنا ثم أمر الشيخ أحد الشبان بأن يجلب بندقيته ويبقى ليحرسنا حتى الفجر.

نهض الشيخ فالح ليتركنا حتى ننام وتمنى لنا ليلة سعيدة ثم عبر إلى البناية المبنية بالآجر حيث يعيش فيها هو وأسرته.

أطفأ الشاب الفانوس، وشرب ما تبقى من القهوة، وجلس يحرك جمرات النار.

وجدت هذا الشاب ذا حجم ضخم، ووجهه مغولي يشوّه الجمال.

وعندما بدأ أحد هذين العجوزين بالشخير صاح في وجهه بأن يكف عن الشخير، فانقلب هذا العجوز إلى جهة أخرى محدثاً صوت أجش يخرج من فمه وبدأ يشخر مرة أخرى بعد فترة وجيزة جداً وابتسم الشاب بوجهي وقال لي: «المسنون يشخرون دوماً».





٣ ـ صيد الخنزير البرّي

نهض عبد الرضا القهواتي عند الفجر وأشعل النار، وسرعان ما امتلأت الغرفة بالدخان. أما الشاب الذي كان يحرسنا فقد خرج. ونهض العجوزان الآخران من نومهما وهما يتنخّعان لإخراج البلغم من صدرهما ثم يبصقان على الأرض.

وبعد أن أكملا وضوءهما أديا صلاة الفجر ثم جلسا وانحنيا على النار.



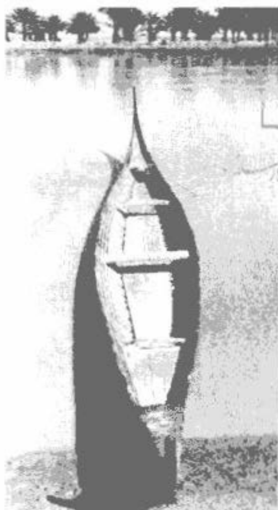
صيد الخنزير في الأهوار

يبدو أن الجو بارد، ولهذا السبب بقيت في منامي حتى جاء خادمان ليرفعا المنام فجلست عند ذاك مع الجماعة وناولني القهواتي فنجاناً من القهوة.

وبعد فترة، جلب الخادم الفطور المتكون من فطيرة محلاّة مصنوعة من دقيق الأرز وموضوعة في إناء واسع حشيشي اللون وجلب معه الحليب وفيه سكر موضوع في الكتلي.

وضع حصتنا فوق الزولية أمامنا وكانت الشمس قد بدأت لتوها بالشروق باعثة أشعتها الذهبية فأضاءت أعمدة مدخل المضيف.

وبعد مضي ساعة أو ساعتين جاء الشيخ فالح ومعه حشد من أتباعه المسلحين حتى نخرج لصيد الخنازير تنفيذاً لوعده. وبعد أن تناول الجميع القهوة، فخرجنا من المضيف وركبت الطرادة التي ركبها الشيخ وابنه.



الطرادة

رأيت الطرادة ذات شكل لطيف، تسع لأثني عشر شخصاً، طولها ستة وثلاثون قدماً، وعرضها في أعرض مكان من القعر ٣/٥ قدم، فيها نقوش محفورة. قعرها منبسط ومطلي من الخارج بطبقة ملساء من القير فوق ألواح خشبية. مقدمتها محفورة بنقوش تتجه إلى الأمام وإلى الأعلى تماماً بحيث تصبح مقدمة مستدقة، طويلة ورفيعة. أما المؤخرة فهي الأخرى مزينة بنقوش محفورة أيضاً. وعلى بعد

قدمين من المؤخرة ومن التجويف نقوش مزخرفة بشكل لطيف. أما المقعد الذي يجلس عليه الجذّاف فإنه يقع في الثلث الأمامي. ورأيت أيضاً عوارض خشبية للتقوية تقع في الثلثين الأماميين من الزورق. كما رأيت أيضاً ألواحاً خشبية غير ثابتة مفروشة على أرضية الطّرادة.

أما الجزء الأعلى من الأضلاع فهو مرصوف بألواح خشبية على طول القسم الداخلي ومثبتة بخمسة صفوف من المسامير تزين الطرادة وهي علامة مميزة لطرادة الشيخ. وبعد سنوات عديدة، شاهدت في أوسلو، سفن الفايكنك وهم يحتفظون بها. وسرعان ما ذكرتني بالطرادات التي رأيتها في الأهوار، لأن كل النوعين بسيط ولطيفة الشكل. كان عدد الجذافين أربعة أشخاص. اثنان منهم في المؤخرة واثنان في التجويف. وكانوا يجذفون بإيقاع منتظم وعلى نفس الجهة ثم يتم استبدال شخص واحد إذا دعت الحاجة. أما الركاب الآخرون فإنهم وضعوا أسلحتهم بجانبهم ونزعوا عباءاتهم، وكل واحد منهم يحمل صف رصاص فيه عتاد كامل وخنجر مفترس ذو شفرة رفيعة في القسم الأمامي من حزامه.

تقع الأهوار على مسافة ثلاثة أميال عن مضيف الشيخ فالح. ولما دنونا من الأهوار كنا قد عبرنا قرية كبيرة تمتد مسافة مئتي ياردة على امتداد الساحل الأيسر من مجرى النهر. بيوتها مرتبة على شكل صفوف، مصنوعة من الحصران، مثبتة على أقواس من القصب بشكل متوازٍ مع الساحل، والبيوت متقاربة بعضها من بعض وأمامها عجول الجاموس وهي مربوطة وعدد من الأبقار وهي سائبة تتجول هنا وهناك. شاهدت حصانين أو ثلاثة أحصنة، أجسادها مغطاة بقطعة من القماش وأرجلها الأمامية مقيدة بسلسلة حديدية. ورأيت خيول الشيخ فالح مقيدة بهذا الشكل أيضاً. وعندما سألته عن سبب ذلك، أجابني قائلاً: «هذه القيود تمنع الناس من سرقة الخيول. إذا ربطت الخيول بالحبل فبإمكان السارق أن يقطع الحبل ثم يقفز على ظهره ويختفي عن الأنظار، خيولنا أصيلة، وغالية الثمن، لذلك نعتني بها

ونحافظ عليها».

ثم سألته قائلاً، «لماذا تلفّون جسم الخيل بالقماش بهذا الشكل؟ مع العلم أن الجو غير بارد». فأجاب «حتى نمنع الذباب من لسع أجسادها».

كانت الكلاب تتسابق على امتداد الساحل وتقف بعد أن تقطع مقدار (١٠ ـ ١٥) ياردة. ثم تبدأ بالنباح بشكل جنوني وقد كشّرت عن أنيابها. وكانت كل مجموعة من الكلاب تسلّمنا إلى مجموعة جديدة أخرى عند حدودها.

وجدنا الأطفال يراقبوننا بسكون، والنساء ينظرن من البيوت وهن غير محجبات. لم نشاهد غير عدد قليل من الرجال.

توجهنا نحو الساحل تحت بيت كبير فصاح أحد أتباع الشيخ فالح قائلاً: «زاير محيسن» فخرج رجل كبير السن وهو يضع على رأسه الكوفية وقال «مرحباً، مرحباً يا محفوظ، تفضلوا، تفضلوا» إلاّ أن فالح أبى أن ينزل ولو أن الرجل ألحّ علينا كثيراً حتى نشرب القهوة.

سأله فالح قائلاً: «هل أرسلت الرجال إلى الهور بزوارقهم؟».

«نعم يا محفوظ، كلهم هناك، ينتظرون قدومكم من مدخل النهر».

«هل توجد خنازير داخل القصب؟».

«نعم، كلها متفرقة تماماً، المياه ضحلة لا تساعد على تجمعهم في الأرض التي فيها القصب».

«تعال. اركب معنا». فتسلق زايد محيسن الزورق وجلس على أرضيته.

يجلس المسافرون دوماً في بطن الزورق، وأما مكان الشرف فيبدو أنه أقرب ما يكون إلى مؤخرته، مقابل الجذاف في المؤخرة.

وعندما يجذف هؤلاء الرجال، يجلس اثنان منهم في مؤخرة الزورق على ظهره المرتفع ـ الواحد مقابل الآخر ـ. ويجلس الثالث على المجذاف

الأمامي فوق خشبة رفيعة غير مريحة، بينما يجلس الرابع راكعاً على ركبتيه في بطن الزورق.

سألت الشيخ فالح قائلاً: «هل هؤلاء الناس هم معدان؟».

نظر نحو زاير وتبادلا الابتسامة ثم قال: «كلا. هم فلاحون. المعدان يعيشون داخل الهور ستراهم فيما بعد عندما تصل إلى قرية قباب».

تركنا حقول القمح والشعير وراءنا قبل أن نصل إلى القرية. وجدنا النهر الذي نسير فيه ضحلاً وكان الجذافون يجدون صعوبة أثناء الجذف. وكانت ضفاف النهر واطئة وإذا ما اعتدلت في جلستي يمكنني أن أرى الأشياء عبر هذه الضفاف.

رأيت مساحة من الأرض تمتد بمقدار (٢٠٠) ياردة، مغطاة بالطين، مليئة بالطحلب، تلمع تحت أشعة الشمس، ورأيت قطيعاً صغيراً من طائر يشبه اللقلق، أبيض اللون. وطائرين من طيور مالك الحزين، لونهما أصفر برتقالي، راقدين وقد احدودب ظهرهما حتى تحضنا البيض على حافة صغيرة. ورأيت عدداً من الغربان المتعددة الألوان تتعارك فيما بينها محدثة ضجيجاً وصخباً حول قطعة من النفاية.

أشار الشيخ فالح إلى أرض وقال: «هذه الأرض هي التي يزرعون فيها الشلب، سوف يباشرون بتنظيف الحقول بأسرع وقت ممكن».

وفي الأمام، بإمكاني أن أرى عدداً كبيراً من الرجال والزوارق. ولما اقتربنا منهم، نزلنا من الزورق ووقفنا فوق آخر قطعة صغيرة من السدة الترابية الآخذة بالتآكل وقفة غير مستقرة. فغاص بسرعة عدد قليل من الرجال المسنين في الماء والطين وهم يرتدون ملابس أفضل من سواهم وذلك حتى يسلّموا على الشيخ ويقبلوا يده. أما الآخرون، ومعظمهم من الصبيان، فكانوا جالسين أو واقفين في زوارقهم على بعد في الماء العميق ويرتدي بعضهم عباءة خشنة سوداء وهي ملفوفة حول خصرهم. أما بقية

أجسامهم فهي عارية.

أما البقية من الرجال فكانوا يرتدون الدشداشات وهو لباس العرب التقليدي وقد رفعوها وعقدوها حول أفخاذهم. ورأيت شخصين وهما اللذان يسحبان الزورق من خلال الماء الضحل قد رفعا ثوبيهما إلى الأعلى لحد إبطيهما وهما عاريان بهذا الشكل تماماً ولا يكترثان إلى أحد. وكان معظمهم يضع على رأسه الكوفية (الغترة) ويحمل الكثيرون منهم الخناجر.

وكان عدد من الصبية يحمل بيده الهراوة وعلى رأسها قطعة من القير ويسمونها المكوار. ولما رأى هؤلاء الصبية أنني أنظر إلى هذه المكاوير، ناولني أحدهم مكواره وهو يبتسم.

وبشكل عام، كان هؤلاء الناس ذوي أجسام قوية وبطول معتدل مع بشرة سمراء لفحتها الشمس وذوت وجوه بريئة وصريحة وعيون واسعة وأنوف عريضة.

كانت غالبية زوارقهم المبطنة بالقير صغيرة وتعرف فيما بينهم بإسم المشحوف، وكان لكل نوع وحجم منها اسم خاص.

كما رأيت عدداً قليلاً من الماطورات في الماء، يمكن أن تحمل شخصاً واحداً فقط وهي تستعمل لمطاردة الطرائد. كما توجد ماطورات أكبر من هذه قليلاً تسع لشخصين وهي بحجم الزورق الذي انتقلت به من المحجر الكبير.

ملأ عدد كبير من الرجال زوارقهم بالسهام التي يصيدون بها السمك وكانت نهاياتها الخشبية في الماء. وشكل هذه السهام مخيف ولها يدة من الخيزران بطول (١٢) قدماً مع خمسة رؤوس تشبه أسنان الشوكة الكبيرة، وكل واحدة منها مزودة بشوكة ذات صنارة ويسمونها (الفالة).

واقترح الشيخ فالح بأن أتسلح ببندقية الصيد لأنه من الخطر استعمال البندقية مع عدد كبير من الناس حول هذا المكان.

فرحت لكلامه هذا، ورأيت الجذافين فقط يحملون البنادق ولو أن القرويين جميعاً يملكون أسلحة نارية كثيرة.

لقد حصل رجال العشائر على الأسلحة وخاصة البنادق الإنكليزية والتركية من ساحات المعركة في الحرب العالمية الأولى واحتفظوا بها ولم يجردهم أحد منها. وهم لا يزالون يحصلون على العتاد طالما يستخدم الجيش والشرطة البنادق الإنكليزية. وأما عتاد البنادق التركية فإنهم يجدون صعوبة في الحصول عليه وتتم في بعض القرى إعادة إملاء ظروف الأعتدة التركية الفارغة بالبارود المصنوع محلياً مع رصاصتها إلا أنها عملية خطرة نوعاً ما.

أما في الحرب العالمية الثانية فكان القتال في العراق قليلاً، لذلك كانت فرص النهب قليلة أيضاً ولكن في إيران جرى حل الجيش وقوة الشرطة بشكل واسع قبل التقدم البريطاني؛ فأخذ كل جندي بندقيته معه إلى بيته. وأتيحت الفرصة للعشائر فنهبوا مستودعات الأسلحة التابعة للحاميات. ولكن، لما أحسّوا بأساليب رضا شاه القاسية خافوا على أنفسهم من العقاب الصارم الذي لا رحمة فيه إذا ما وجدوا الأسلحة بحوزتهم لذلك بدأوا بتهريب معظمها إلى العراق. وكانت تباع بثمن بخس لا يتجاوز الخمسة دنانير. أما الآن فيقال بأن البندقية الواحدة تساوي مائة دينار.

تسمى البنادق المصنوعة في جيكوسلوفاكيا بـ (برنو) وهي مأخوذة من العلامة Brno المنقوشة على السبطانة. ولاحظت هذه العلامة مثبتة على البنادق التي يحملها أتباع الشيخ فالح في الزورق.

رأيت الشيخ فالح ينصت إلى شكوى أحد أتباعه حول توزيع بعض الأراضي الزراعية لزراعة الشلب فقال له:

«كافي ـ تعال باچر إلى المضيف بعد شروق الشمس بساعتين وأخبر

حسن بأن يحضر أيضاً». ثم سأل: «هل أدهم موجود؟. نادِ عليه». فرأيت شخصاً قصير القامة، يعرج قليلاً، يخرج من الزورق الأبعد ثم إندفع يتجه نحونا. حاول بخضوع وتذلل أن يقبّل يد الشيخ فالح إلاّ أنه بادره قائلاً:

«هل أعطيت عشرة دنانير إلى جاسم وكنت أمرتك بذلك؟».

«أردت أن أعطيه يوم غد يا محفوظ».

«أمرتك قبل عشرة أيام بأن تعطيه».

«كنت مريضاً. وأنا يومين.......».

«البارحة چنت في المجر حسبما سمعت».

«رحت أراجع الطبيب وأشتري الدواء».

«ما راجعت الطبيب أبداً. قضيت النهار في عرس نصّيف».

«والعباس! راجعت الطبيب. و......».

«كلب ابن الكلب. أخبرتك إذا ما رجعت المبلغ إلى جاسم راح أعاقبك، أنت غشاش وكذاب، ياسين، خذه إلى خزعل وقل له خلي يبقيه عنده إلى أن أعود. قل له خلي يربطة. خذه! روح يا كلب. راح أشوفك شلون تطيع الأوامر».

وعندما تقدم شخص آخر ليعرض عليه شكواه قال له فالح: «كافي ـ تعال ويانا وشوّفنا الخنازير. أريد أشوف أشلون يصيد هذا الإنكليزي» ثم التفت نحوي وقال: «إركب ذاك المشحوف. كن حذراً لما تنتقل به. هذا الشخص راح يجذف مشحوفك».

تسلقت على ظهر المشحوف الذي جاءوا به بالقرب مني. وأما الشيخ فالح وابنه فركب كل واحد منهما في مشحوف ثم بدأنا نجذف باتجاه القصب والآخرون من ورائنا. ولما وصلنا إلى المياه العميقة وضع كل شخص المردي أو الفالة التي يحملها ويدفع بها المشحوف ثم جلس في بطنه وبدأ يجذف بضربات قصيرة وسريعة. وعندما يكون في المشحوف

أكثر من شخص واحد، يأخذ الجميع أماكنهم في الجانب نفسه وفي الوقت نفسه.

انقشع الضباب الذي كان سائداً في يوم أمس، فظهرت السماء زرقاء صافية، باهتة الضياء، وتنتشر هنا وهناك قطع صغيرة من الغيوم.

المجاذيف كانت تغوص في الماء وتشكل ما يشبه الدوارة ويتطاير الرذاذ حينما يرفعونها وتتساقط على الماء وهي باردة جداً. سرنا وتركنا الجدول الطيني الذي بدأ من بداية المجرى وراءنا ثم سرنا بين نباتات البردي التي تنمو في المياه الضحلة. والآن نحن بين القصب الذي يغطي معظم أجزاء الهور.

وهذا النبات الضخم يبدو أشبه بالخيزران وينمو بشكل كثيف في منابت القصف ويبلغ ارتفاعه أكثر من خمسة وعشرين قدماً. وينتهي الساق برأس، فيه خصلة صفراء، باهتة اللون، كثيف إلى درجة يستعمله سكان الأهوار كمجذاف.

وفي هذا الفصل، كانت منابت القصب المحاذية لمجرى النهر الضيق غير كثيفة وتبدو لطيفة المنظر لأنها هي من بقايا العام الماضي، لونها ذهبي باهت، وبعضها فضي رمادي ما عدا عند القاعدة فتكون بلون أخضر لأنها تنمو من جديد ويبلغ ارتفاعها في ذلك الوقت بضعة أقدام.

رأينا أمامنا مجموعات صغيرة من الطيور الماضية وهي منتشرة فوق سطح الماء، تطوف في ظلال منابت القصب، كما رأينا الطيور المائية المسماة الزُقّه والغاق، وهي قابعة تنشر أجنحتها الداكنة على سيقان البردي حتى تجف لأن قطرات الماء كانت تتساقط من أجنحتها. ولما شعرت بوجودنا، غطس بعضها في الماء وطار بعضها الآخر بارتفاع واطىء ثم ظهرت من خلفها الطيور المسماة بمالك الحزين من بين البردي اليابس محدثة ضجيجاً عالياً حينما بدأت ترفرف بأجنحتها حتى تطير.

بلغ عدد المشاحيف أربعين مشحوفاً. ازدحمت في المجرى المائي الضيق، فاحتكت بعضها، وارتطمت، لأن النوتية تسابقوا فيما بينهم وهم يصيحون ويضحكون حتى يجتازوا هذا الممر الضيق ثم ينتشروا في المياه الواسعة والفسيحة.

ولست أدري، هل كنا نتنقل نحو الأهوار أو أننا كنا نتنقل بموازاة الساحل لأن منابت القصب أصبحت متشابكة وأحاطتنا من كل جانب وأصبح المجرى المائي أكثر ضيقاً وأكثر التواءً. خرجنا فجأة من هذه المنطقة المليئة بالنباتات ودخلنا في بحيرة ضحلة مغطاة بالنباتات فرأينا جزراً صغيرة، كثيرة العدد، بعضها تبعد مسافة قصيرة جداً عنا وبعضها الآخر تبلغ مقدار فدّان أو أكثر تسدّ الطرف البعيد من البحيرة الضحلة. ويسمي سكان الأهوار مثل هذه الجزر باسم «طحل». بعضها غائصة وبعضها الآخر ذات تربة رخوة وتنجرف، وكلها مغطاة بالقصب، وهنا رأيت القصب بارتفاع (٨ ـ ١٠) أقدام، وبأنواع مختلفة من نبات البردي، أوراقها حادة بحيث تشبه أمواس الحلاقة، وبالعليقات وبعدد قليل من أشجار الصفصاف وبأنواع مختلفة من النباتات المتسلقة. وتجد تحت كل هذه النباتات نباتاً من فصيلة النعناع ونباتات ذات أشواك منتشرة وأخرى أرجوانية اللون ونباتات مائية ونباتات من أنواع أخرى.

كانت الأرض تبدو وكأنها صلبة لكنها كانت رطبة. وهي بالفعل تتألف من طبقة من جذور النباتات ومن نباتات متفسخة تطفو على السطح.

وبعد عدة سنوات، أطلقت رصاصة على خنزير ذكر، كبير الحجم، كان يأكل طعامه من جزيرة تشبه هذه الجزيرة وكانت قد احترقت قبل فترة وجيزة. وجدت هذا الخنزير يقف فوق أرض صلبة حينما أطلقت عليه النار ولكنني حينما عبرت إليه لم أعثر على الجثة «ربما لم تكن إصابته قاتلة فولّى هارباً واختفى».

«كلا. كلا» أجاب رفيقي «أنه قُتل وغرق في الماء».

وفي إحدى هذه الجزر، كان زورق الشيخ فالح يمخر بجوار زورقي: وقال لي وللآخرين: «هذا هو المكان تعالوا وأدخلوا في هذه الجزيرة لازم تشوفون شيء». فخطا عدد من الرجال على الساحل وبأيديهم الرماح وهم متأهبون لكل حدث طارىء، لكنهم لم يجدوا أي شيء. ثم دخلوا جزيرة أخرى ثم جزيرة ثالثة. وأما أنا فكنت أراقب طائرين وهما يغردان ويقفزان بين القصب ثم سمعت أصوات عيارات نارية فجفلت ثم أعقب ذلك صياح:

«هذا خنزير هناك، تعالوا بسرعة، راقبوا المكان، يا الهي، هذه أربعة خنازير».

وأعقب ذلك فترة اندهاش وسكوت..

«وين راحت الخنازير؟» سأل أحدهم.

«راحت بالماي، شفت وحده منهم مرّت من بين قدمي. قسماً بالله! حجمها حجم حمار! قسماً بالعباس!».

ثم صاح شخص آخر «رميت رمحي وما أصبت. هي أنثى ومعها ثلاث فروخ».

وصاح الآخرون «اختفت هنا. طوقوا المكان واقطعوا عليهم الطريق حتى لا يهربوا». دخلنا في ممر ضيق يقع بين جزيرتين، لكن، رأيت الجذاف يجذف بسرعة إلى المياه المكشوفة وجاءت من وراءنا زوارق أخرى.

انتقل الصيد إلى جزيرة أخرى. ولما اقتربنا منها، كان هناك هرج ومرج وصياح بصوت عال. ثم سمعنا صراخاً حاداً قصيراً، وضحكة وشخص يصيح «شفتهن، شفت أصغر وحدة. رميتها بالرمح. راحت في الماي وأنا أحاول إغراقها».

وفي هذه الأثناء عبر الشيخ فالح بزورقه وكان قد نزع عباءته وبدأ يجذف بنفسه.

«وين راح الخنزير الكبير يا مناتي؟» سأل رجلاً عجوزاً، قوي البنية، كان يقود الصيد إلى مسافة بعيدة.

«فاتت بداخل الجزيرة الكبيرة. هناك. حسبما أعرف - يا محفوظ... نعم. هذه آثاره. تعالوا. خلي نطلعه من هل المكان!».

إندفع مناتي بسرعة وغاب عن الأنظار داخل أجمة القصب ثم تبعه شخصان آخران. وبوسعي أن أسمع صوت تنقلهم. وصاح أحدهم وهو يقول: «ما جاء الخنزير بهذا المكان» ثم صاح مناتي بعد قليل «هاي هي آثاره».

لم يحدث أي شيء لحد الآن، على أية حال، واعتقدت أنهم فقدوا آثاره ثم سمعت أصواتاً من بعيد وزعيقاً يقول «راح يقتلني! راح يقتلني».

وصاح آخر «جرح مناتي. تعالوا يا ولد بالعجل. وين هم المقاتلين؟».

اندفع عدد من الأشخاص من خلال القصب. ثم بدأ الشيخ فالح يجذف بشكل جنوني كما بدأت أجذف وتبعني آخرون وتوجهنا صوب الجانب البعيد من الجزيرة حيث وجدنا مناتي قد أُخذ إلى زورق كبير آخر، قميصه ملطخ بالدماء وممزق، ووجدته ممدداً وقد أغمض عينيه ثم رأيت جرحاً عميقاً على عجزه الأيمن وبوسعي أن أُدخل فيه جمع يدي.

مال الشيخ فالح عليه وسأله بقلق: «شلونك يا مناتي؟» ففتح العجوز عينيه وتمتم قائلاً «أنا بخير يا محفوظ». ثم أمر الشيخ بأن يأخذوه بسرعة إلى الخلف إلى مدخل الخر والذي لم يكن بعيداً من حسن الحظ.

ولما بدأنا نجذف ونحن عائدون قال أحد الصبية «هاي أنثىٰ هي اللي

عظّته. لو چان ذكر كان يشفه بأنيابه ويقتله».

وقال آخر «لوما يتصرف زين ويذب نفسه على بطنه لكان ينقتل. شفت رجل قبل سنتين من أرض عشيرة البوبخت بعدما قتلته خنزيرة. شفت نصف أمعائه خارج بطنه».

وقال آخر «الخنزير اللي قتل شاب من السادة بحقل الحنطة من العام الماضي مزقه وصله وصله. كان الشاب بوحده وغير مسلح ويجوز داسته. الزرع كان بارتفاع عالي وما محصود. زحف الشاب باتجاه القرية لكن فقد الحياة قبل خروجه من الزرع». قال شاب آخر: «هل تتذكر لما ركب هاشم على ظهر الخنزير؟».

«إي والله» أجاب صاحبي المجذف «كان هو وأخوه يفتشون حقل الشعير العائد لهم. شافوا خنزير ذكر، كبير السن، رمادي اللون. أراد أخو هاشم يرميه. لكن منعه هاشم من الرمي. امتنع وما طاع أمره فرماه وأصاب الخنزير في بطنه».

«نعم» قاطعه آخر «هو رامي غير جيد».

واستمر الجذاف قائلاً «هجم الخنزير عليه وطرحه على الأرض. شق الخنزير ذراعه. اقترب هاشم خلفه وطعنه بخنجر على كتفه. ولما استدار الخنزير نحوه، ألقى الخنجر وقفز على ظهره وولّى هارباً وهاشم لا يزال على ظهره وهو يمسك من أذنيه. توجه الخنزير نحو بستان السيد علي وسقط على الأرض لما أراد أن يعبر ساقية عريضة. وقال هاشم أنا ما أريد أركب على ظهر الخنزيرة مرة أخرى أبداً». وضحك المستمعون لأقواله.

وقال رجل عجوز «الخنازير هي أعداء. تأكل محاصيلنا وتقتل رجالنا. الله يقتلهم! إشوف مناتي. أصبح عاطل ما يقدر يشتغل بعد. هذيج الخنزيرة قضت عليه».

وصلنا إلى مدخل المجرى فوجدنا طرادة الشيخ فالح مع عدد قليل من الناس بانتظارنا لأن ضفتي النهر عاليتان وعريضتان.

نزلنا وبدأنا نسحب الزورق ومناتي في داخله. كان ممدداً على جنبه، يسند أحد الرجال رأسه. ويبدو أن النزف كان قليلاً لأن الماء الذي في قعر الزورق كان بلون وردي غير أن الجرح كان فظيعاً وخطيراً جداً. فالنهايات الممزقة للعضلة تبرز في اللحم الذي ينزّ منه الدم. تحرك مناتي قليلاً حتى يرى جرحه ولكنه لم ينطق بأية كلمة، كان في صناديقي التي تركتها في قرية الشيخ فالح كمية كبيرة من العقاقير الطبية. وإنني غير مؤهل كطبيب، ولكن، بعد أن أمضيت عشرين سنة في البراري والقفار، وكل فرد منهم يتصور بأنني يجب أن أداوي المرضى والجرحى، لذلك فقد اكتسبت خبرة طبية.

وبالإضافة إلى ذلك، كنت أنتهز كل فرصة تسنح لي، أتوجه فيها إلى المستشفى وأتجول في الصالات وأراقب العمليات الجراحية. وبعملي هذا استطعت أن أكتسب معلومات جراحية.

ولا بدّ أنني قد حصلت على معلومات أكثر خلال السنوات التي أمضيتها في الأهوار.

والآن قلت للشيخ فالح: «من الأفضل أن نرسله بسرعة إلى المضيف حتى أتمكن من معالجته هناك، وألّف على جرحه الضماد، وليس بوسعي أن أفعل أي شيء أكثر من هذا. يجب أن نرسله بسرعة إلى العمارة».

«لا ترسلوني إلى المستشفى» ردّ مناتي قائلاً «لا إلى المستشفى. خلّي أبقى بقريتي، أريد من الإنكليزي أن يعالجني».

وقلت: «على أية حال، لازم نرجع بسرعة إلى القرية» غير أن الشيخ فالح أصرّ قائلاً بأن الطعام جاهز «ويجب أن نتناول الطعام أولاً وبعدين نرجع».

كنت في حالة غضب حينما ابتسم مناتي قائلاً «على كل حال، أنا جائع، أريد شوية أكل قبل ما تأخذوني من هذا المكان» استسلمت للأمر ثم مشيت متوجهاً نحو المكان الذي أعدوا فيه الطعام فوق حصيرة من القصب، فرأيت طبقاً كبيراً مخلوطاً بالأرز وعليه قطع من لحم الضأن بالإضافة إلى وجود الدجاج المحمر وصحون من المرق، وكنت أرجو أن نكتفي بهذا الحد وننطلق بسرعة عائدين، ولكن رأيت أناساً آخرين يجلسون على المائدة من بعدنا ثم تأتي جماعة أخرى من بعدهم حتى تناول كل فرد طعامه، ثم جيء بالقهوة والشاي.

ما استطعت أن أكتم تأثري وهياجي أكثر، فمشيت نحو مناتي ورأيته قد أمسك بقطعة من لحم الضأن وتعجبت إن كان حقاً قد تناول الطعام، كان يبدو شاحب الوجه كهيئة الميت. وأخيراً عدنا إلى قرية الشيخ فالح، وبدأ مناتي يتوسل مرة أخرى بأن لا نرسله إلى المستشفى، غير أن الشيخ فالح أقنعه بضرورة ذهابه.

يبدو أن الخنزير قد نهش قطعة كبيرة من عجزه. حقنته بإبرة من المورفين ثم نظفت جرحه ونثرت عليه كمية من مسحوق السلفوناميد ثم أجلسناه في الزورق على أكثر ما يكون من الراحة وأرسلناه إلى المجر الكبير ومنه إلى العمارة.

صادفته مرة أخرى بعد مضي سنة من الزمن حينما تناولت وجبة الغداء في قريته وفزعت حينما رأيته يعرج بشكل دائم، لا يقدر على الحركة مالم يستند على العصا الذي معه. سألته عن المدة التي أمضاها في المستشفى. أجابني قائلاً: «لما وصلت المستشفى ما دخلوني، رجعت إلى القرية، الحمد لله. دواك هو الذي أشفاني. ما أخذت أي شيء آخر».

وعلى أية حال، تساورني الشكوك من أنه لم يقترب من المستشفى أبداً، بل إنما عاد إلى قريته في مضيف الشيخ فالح.



٤ ـ الوصول إلى قرية قباب

أرسلني الشيخ فالح في اليوم الثاني إلى قرية قباب في زورق يجذفه ثلاثة أشخاص. وقال لي: «سيأخذك هؤلاء إلى صدام. عد إلينا حينما تشعر بالضجر في عيشك بين المعدان، تذكّر بأن هذا البيت هو بيتك. إذهب مع السلامة».

شرعنا بالرحيل سالكين المجرى الرئيسي من النهر ثم صادفنا مضيفاً





قرية قباب ـ احدى قرى المعدان في الأهوار الوسطية

كبيراً آخرَ وقال لي الجذاف بأنه يعود إلى السيّد (سروط). وعرفت أنه هو أكثر السادة المحليين هيبة واحتراماً بحيث إمتدت سمعته في طول القسم الجنوبي من العراق وعرضه. ولهذا السبب لمضيفه حرمة وقدسية كبيرة كحرمة الجامع وقدسيته.

واليوم يسمي كل شخص من سكان العراق نفسه سيّداً بذريعة أنه يتعلم، كما كان الحال عليه في العهد التركي حيث كان يدعو نفسه أفندياً. وفي هذا المعنى، كلمة سيّد تعني «مستر» وليس لها أية علاقة أو دلالة دينية. أما بالنسبة إلى العشائر فإن كلمة سيّد لا تزال لقباً محترماً يشير إلى أن حامله من سلالة النبي محمد ﷺ.

وبعد مضيف السيد (سروط)، تمتد قرية صغيرة أخرى على طول النهر، يتصاعد منها الدخان الرمادي اللون فوق خط البيوت. وأرى جواميس وحيوانات سوداء، منظرها قبيح، وأجسامها ضخمة، وجلودها قذرة، بعضها واقف على طول الساحل، وبعضها الآخر غائصٌ في النهر، لا يظهر منها إلاّ الأنف وقمة الرأس والقرون المقوسة والسميكة. وعلى الساحل أنواع مختلفة من المشاحيف المختلفة الأحجام، وعلى اليابسة بقايا متفسخة للمشاحيف وألواح خشبية متساقطة منها. كما رأيت مجموعة من فروخ الكلاب وهي تجري بجانبنا وتنبح. ورأيت رجلاً ينظر من خلال باب بيته وهو ساكت، فقال لي الجذاف «هيّا صاحب. سلّم عليه».

صحتُ بأعلى صوتي «السلام عليكم» فأجاب «عليكم السلام» ثم أضاف قائلاً: «تفضلوا لتناول الطعام».

فأجبته «أكلنا. الله يحفظك».

«كلش زين» قال الرجل الذي بجانبي «**لازم تتعلم عاداتنا، شوف، من عاداتنا أن يسلم اللي في القارب على من في الساحل، والقارب النازل يسلّم على القارب الصاعد**».

كما رأيت صفاً من أشجار الصفصاف الجرداء، فيها براعم صغيرة خضراء، تمتد على طول ضفتيّ النهر تحت القرية. تتدلى أغصانها السفلى إلى النهر وتلامس المياه الموحلة وهي غائصة في التيار الجاري. وخلفها أحراش من النخيل غير المعتنى بها. ورأيت في إحدى الأماكن بيوتاً في العراء مشيدة من القصب.

وهنا يتفرع النهر مرة أخرى. فسلكنا الفرع الأيمن الأصغر، ومررنا من جانب حقول القمح والشعير ومن جانب قرية، سطوح بيتها من الطين ثم مررنا بحافة الهور ونباتات البردي. فهذا المنظر الذي أراه اليوم شبيه بالذي رأيته بالأمس.

سرنا في قناة ضيّقة وملتوية بين القصب، وفي الميل الأول من مسيرنا صادفنا مشاحيف كثيرة وهي عائدة، محملة بكثرة بكوم من فروع القصب الجديدة، بحيث لا نرى من المشحوف إلا جزءاً قليلاً.

كانت هذه المشاحيف تُجذف من قبل رجال وصبيان نصف عراة. وأحياناً أرى بعض المشاحيف يجذفها شخصان، ولكن أكثرها يجذف من قبل شخص واحد. وقال لي أحدهم وهو يريد أن أتعلم «هذا حشيش إلى جواميسهم». وكان اسم هذا الشخص «جحيش» وفعلاً كان هذا اسمه الصحيح وليس لقباً للمزاح. وهناك كثير من رجال العشائر لهم أسماء غريبة غير مستساغة. وجحيش، على الأقل، إسم غريب.

وكنت أصادف مرات عديدة رجالاً وصبياناً لهم أسماء مثل حليب، بقر، خنزير، وهي أسماء يكرهها المسلمون ويستنكفون منها لأن الكلاب والخنازير هي حيوانات قذرة ومكروهة في نظرهم.

وهنالك أشخاص آخرون لهم أسماء غريبة مثل جريدي، وواي، ضبع، كوسج، عفريت وبعرور.

يطلقون مثل هذه الأسماء حتى يطردوا عيون الحساد. وهم يسمون

الأطفال الذين يولدون حديثاً بهذه الأسماء وخاصة إذا سبق وأن مات أخٌ لهم.

عبرنا مكاناً كانوا يجمعون منه الحشيش. وتنطبق كلمة الحشيش على نباتات القصب النامية حديثاً وتستعمل علفاً للحيوانات.

رأيت في مقدمة أحد المشاحيف صبياً عاري الجسم يقطع الأغصان الخضراء بمنجل له أسنان كأسنان المنشار ثم يجمعها على شكل كومة ثم يلقيها وهي ندية في بطن المشحوف بجانبه. وكلما استمر في قطع النباتات وتقدم من مكانه يسحب معه المشحوف.

وبوسعي أن أسمع من وراء هذا الستار المتكون من القصب أصوات ضحكات الأولاد بشكل واضح تخرج من صميم قلوبهم بصدق. وسمعت أحدهم يغني أغنية بحيث توقف المجذافون حتى يسمعوا هذا الغناء بهذا الصوت الرخم. وقال أحدهم «هذا صوت حسن». ولما انتهى من الغناء صاح عليه أحدهم قائلاً: «سمّعنا أغنية أخرى».

كان هذا من المشاهد التي ستصبح مألوفة لي خلال السنوات السبع التالية.

كنا نسلك في بعض الأحيان الطريق المائي في فصل الشتاء. وتكون المياه باردة جداً، وعندها تكون الرياح باردة أيضاً لأنها تمرّ عبر الأهوار وهي آتية من المناطق الجبلية الكردية المغطاة بالثلوج.

وكنا نسلك أحياناً أخرى الطريق المائي وقت الصيف ويكون الهواء مشبعاً بالرطوبة فتحدث حماوة لا تطاق في هذه الممرات الضيقة من بين القصب العالي، وترى البعوض يطير فوقنا على شكل أسراب لا عدّ لها ولا حصر.

ومن النادر أن تجد فصل الربيع أو الخريف لأنهما فصلان قصيران

جداً في هذا الجزء من العام. فلا تجد غير فصل الشتاء أو الصيف.

وخلال مكوثي في هذه المنطقة، كنت أعتاد على سماع ضحكات الصبيان وغنائهم بين حقول القصب حيث يكدحون في جمع العلف لجواميسهم النهمة.

«ذلك الصبي له صوت رخيم» قال جاسم وهو يجذف.

«نعم، صوت جميل جداً، أحسن بكثير من صوت چليب في قرية قباب».

«نعم، حقيقة، صوت أحسن بكثير ولكنه لا يستطيع الرقص، هل لاحظت ذلك الذي تزيّا بزيّ فتاة في عرس عبد النبي؟، يا الهي، كانت متعة ونحن نراقبه عندما يرقص».

وسألت ما معنى «ذكر بنت»، فشرح لي جحيش قائلاً بأنها تعني راقصاً محترفاً من الصبيان وهو ذكر فاسد الأخلاق، وهناك إما شخصان أو ثلاثة منهم في المجر الكبير يُؤجرون للرقص في احتفالات الأعراس وفي الاحتفالات الأخرى.

وحينما سألت عما إذا كانوا يعيشرن بين العشائر قال لي «كلا. كلا. أبداً ما يعيشون وياهم. وبالطبع. عندنا صبيان كثيرين يجيدون الرقص ولكن ما هم (ذكر بنت)».

لم نصادف مشاحيف أخرى في طريقنا على الرغم من أننا كنا نسير ببطء، تقريباً يجرفنا التيار ونحن نسلك الطرقات المائية الضيقة والمياه ساكنة بين نباتات البردي الذهبية الألوان. وعندما يتكلم أحدنا لا نسمع أي صوت غيره ما عدا صوت ضربات المجذاف وتطاير الرذاذ وحفيف الماء تحت مقدمة المشحوف.

أخذ هذا الطريق المائي يزداد اتساعاً إلى أن وصلنا إلى حافة بحيرة

صغيرة، عرضها ثلاثة أرباع الميل. رأينا ماءها الأزرق زاهياً تحت أشعة الشمس.

وقال جحيش «راح نجذف على شكل خط مستقيم لأن الرياح ساكنة». وفي هذه الأثناء رأينا مجموعة كبيرة من الماعز وهي راقدة في البحيرة ووراءها عدد كبير من البط، على مسافة بعيدة بحيث لا يمكن تمييزها إلاّ بصعوبة. فأخذت بندقيتي بيدي حتى أطلق النار عليها ولكنها طارت وارتفعت في الجو بعد أن رأتنا ونحن نخرج من بين القصب.

وقال جحيش «هذه طيور متوحشة في هذا الوقت، لازم تجي بفصل الخريف وتشوف مثل هل طيور تجي هي أيضاً بهل وقت. تكدر تصيد مثل ما تريد. فالح صاد عدد كثير منها في الشتاء».

رأيت القصب الكائن عبر البحيرة كأنه جرف صخري واطىء يمتد على طول الساحل المسنّن. بينما أجد القصب الذي أراه من بعيد والكائن خلفه كأنه يذكّرني بحقول الذرة الناضجة. ولما وصلنا الطرف البعيد، إندفعنا بسرعة مرة أخرى داخل القصب وصادفنا قاربين كبيرين محملين بالقصب اليابس بحيث تركت لزورقنا فسحة بالكاد تكفي لمرورها.

كان القاربان واسعين جداً، لهما جوانب عالية. طوال الواحدة ثلاثون قدماً تقريباً، لها مؤخرة منقوشة ومجذاف.

يجذف ثلاثة أشخاص كل قارب ببطء وهم يتقدمون إلى الأمام. كانوا يضعون مراديهم الغليظة في الماء ثم يتقدمون خطوة بعد خطوة على طول الحافة العليا من القارب، من مقدم القارب إلى مؤخرته. وبعدما يصلون إلى المؤخرة يعودون إلى أماكنهم مرة أخرى ويبدأون بمثل هذا العمل ثانية.

وصاح بهم جحيش «هل صدام موجود في قباب؟».

«نعم. عاد إلى القرية قبل البارحة من عند خلف».

وخلف هذا هو الأخ الأصغر للشيخ فالح. «وين رايحين؟».

«عند صدام. ويانا شخص إنكليزي جبناه من عند الشيخ فالح».

«وين فالح؟».

«في البيت».

«وين مجيد؟».

«بعد في بغداد».

ثم قال لي جحيش: «نسمي هذه القوارب (بلم). وهي جائية من قباب، محملة بالقصب إلى مضيف الشيخ مجيد الجديد».

وبعد فترة قصيرة اجتزنا مشاحيف محمّلة بالحشيش وهي عائدة إلى قباب.

كانت القناة ضحلة بشكل واضح، لأن الأعشاب المائية تنمو بين القصب ثم أصبحت القناة عريضة فسرنا حول أرض مزروعة بالأسل في فسحة تتسلط عليها أشعة الشمس وتتموج من جراء هبوب النسيم وتظهر من بينها القرية.

شاهدنا بيوت هذه القرية منعكسة على سطح المياه. وشاهدنا من الدخان الأبيض تتبدد في السماء الزرقاء الباهتة فوقها، وسياجاً من أشجار الأسل الأصغر يقع إلى الوراء. ووجدنا فيها (٦٧) بيتاً تنتشر حول البحيرة وبعضها يتباعد بضع ياردات عنها. كنا نراها من بعيد ونخالها داخل المياه، ولكن في الحقيقة، وجدنا كل بيت مشيّداً فوق أكوام ندية من أشجار الأسل، كأنه عش وز كبير الحجم، يشكل حيّزاً يكفي لبناء بيت مع فسحة قليلة في الأمام. وشاهدنا جاموسين أمام أقرب بيت والمياه تنزلق عن جلودها السوداء.

أما الجواميس الأخرى فكانت غاطسة في المياه، تتفاوت في مقدار الغطس، متقاربة بعضها مع بعض. وهذه البيوت كغيرها من البيوت المبنية في البر الرئيسي هي من الحصران، مثبتة على هياكل مقوسة من القصب، ورأينا إحدى نهاياتها مفتوحة حينما عبرناها.

كانت بعض هذه البيوت بحجم مناسب، أما البيوت الأخرى فكأنها ملاجيء، من الصعب أن نصنّعها بيوتاً، كانت ألوان البيوت الجديدة تبنية طريّة ولكن معظمها كان قذراً وهي بلون رمادي.

وفي كل مكان يصعد الناس إلى المشحوف وينزلون منه في رحلاتهم في إحدى الجزر الاصطناعية الصغيرة إلى أخرى. ورأيت الرجال والصبيان يحملون بأحضانهم الحشيش على الساحل ويكدّسونه أمام بيوتهم. ألقينا عليهم التحية فردوا قائلين «مرحباً، مرحباً، أبقوا للأكل».

راقبت صبياً صغيراً عمره من أربع إلى خمس سنوات، يخطو داخل المشحوف ويأخذ المردي بيده ويندفع نحو نباتات القصب. فنادته امرأة شابة تحمل بين ذراعها طفلاً صغيراً حينما مررنا بها. ولهذه المرأة وجه جميل، يستدق وينتهي بحنك لطيف، ترتدي ملابس سوداء، وقد وضعت على رأسها عباءة سوداء أيضاً. ورأينا أمام بيت آخر فتاتين ترتدي كل واحدة منهما فستاناً طويلاً، إحداهما بلون أحمر والآخر بلون أخضر وهما تدقان القمح في هاون خشبي له ذراع طويل وثقيل. رأيتهما تدقان بالتناوب وتحنيان جسميهما إلى الأمام من الخصر وكانت الدقات بإيقاع رتيب.

كان مضيف صدام يقع في الطرف البعيد من القرية، على حافات القصب، يبعد مسافة عن البيوت الأخرى. ووجدته أضخم وأوسع بناية في قرية قباب. وهو البناء الوحيد المبني على اليابسة لأنه يشغل أرضاً في اللسان الخارج من المياه. ويرتفع مقداره (٥ ـ ٦) أقدام عن المياه المحيطة به.

ومن الواضح، أن هناك الجزيرة، كانت موجودة منذ عهد بعيد، لأن الطابوق ظهر بالقرب من مستوى الماء. وهناك فسحة واسعة تكفي لبناء آخر أصغر منه.

شيّد داره على هذه القطعة ليسكن فيه مع أسرته. ولما اقتربنا خرج صدام من الدار وبدأ ينادي أحد الصبية ويؤشر له بيده بأن يسرع ويجلب الزوالي ثم توجه نحونا وقال: «مرحباً. مرحباً بكم». ثم ساعدني على النزول من المشحوف.

رأيته رجلاً طويل القامة، نحيف الجسم، في وجهه آثار خفيفة للجدري، يحلق ذقنه وله شارب رفيع. كان يرتدي الدشداشة البيضاء وعلى رأسه الكوفية والعقال، ومعه ابنه (عوده) وهو صبي هادىء عمره ما يقارب الست سنوات.

نظّفت حذائي في المدخل ثم دخلت المضيف. وكان هذا المضيف الوحيد في القرية إذ لا يوجد غيره. وجدت بناءه خشناً، له سبعة أقواس، بابه مفتوح نحو القبلة، يشرف على القرية بسبب موقعه المرتفع. أرضيته مغطاة ببعض القطع الممزقة من الحصران، فيه فانوس قد اسوّد زجاجه معلق على عود من القصب على الجدار.

«وين راح هذا الصبي. الله يلعنه» قال صدام وهو ضجر. ثم ظهر الصبي وتبدو عليه علائم البلادة، يحمل سجادتين كبيرتين وعدداً من المخاديد.

«تعال يا ولد بالعجل. ما تشوف عندنا ضيوف؟. ناولني هيذج اللي بيدك. بعدين روح وجيب وياك السجادة الأخرى. هيذج السجادة الزينة».

عاد الصبي وهو يحمل سجادة من النوع الذي يستعمل للصلاة ولكنها من النوع الجيد.

فرش صدام هذه السجادة مقابل الجدار البعيد ثم وضع مخدة مغطاة بقطعة من القماش المصنوع من السلك، أحمر اللون بجانبها ثم طلب مني أن أجلس عليها. سمعته وهو يهمس في أذن الخادم ويقول له، «خبرهم خلي يسون الغداء. روح بعدين إشتري سمكة. أذكرك لازم تكون زينة. جيب بعدين وياك ست علب سيكاير واشتري لنا السكر والشاي. خذ المشحوف الصغير».

دخل المضيف رجل ضخم الجسم، سمين، له وجه عنقودي الشكل يثير الفضول. ربما كان وجهه من قبل جميلاً عندما كان صبياً، أما الآن فإنه يبدو مترهلاً وإنثوي الشكل. وكان يصحب معه ابنه البالغ من العمر (١٥) سنة.

حيّانا حينما دخل ثم جلس، «تفضل، عجرم. مد إيدك» قال صدام للصبي وهو ذو مظهر بهيج. «إغلي الماي للقهوة. هاهي القهوة في الإبريق الكبير. أشعل النار. القصب موجود هناك في الزاوية، خذ عدد من عود الكبريت وياك».

وعندما عاد خادمه كان صدام يضع علبة سكائره أمامي، وعلبة أمام كل فرد من أصحابي. ثم فتح علبة أخرى وبدأ يوزع منها سيكارة واحدة لكل فرد من الجالسين في المضيف.

دخل المضيف في هذه الأثناء، عدد من الرجال بينما كان القهواتي يقدم لنا القهوة ثم ازداد عدد القادمين إلى المضيف حتى أصبح (٢٠ ـ ٣٠) شخصاً وهيأتهم تشبه هيئة أصحاب القرى الذين جاؤوا معنا لصيد الخنازير.

والشيء الذي جذب انتباهي هو عرض وجوههم، تبدو هيئة عدد منهم، وبالأخص هيئة شاب طويل القامة كهيئة المنغوليين.

كل الرجال المسنين لهم شوارب ولبعض الرجال المسنين لحى يغلب

فيها بياض الشعر على سواده. شعورهم قصيرة، يضعون على رؤوسهم الكوفية والعقال الأسود والدشداشة ويلبس معظمهم العباءة الخشنة.

خرج صدام ثم عاد ويتبعه عوده وعجرم وخادمه وهم يحملون معهم إناءين واسعين فيهما المرق ودجاجتان مسلوقتان وصينية واسعة مستديرة مملوءة بالأرز. وضعت الصحون على حصيرة مستديرة أمامي ثم جاء عجرم وخادمه وهما يحملان سمكة مشوية، طولها قدمان، وستة أرغفة من الخبز الأسمر.

وحسب العادة المتبعة، دعا جحيش صدام بأن يشاركهم في الأكل إلا أنه رفض وقال: «كلوا، كلوا» ثم صب المرق فوق الأرز وبدأ بتجزئة الدجاجة واضعاً اللحم أمامنا. حينما كنت مع البدو، كنت ألاحظهم يكورون الأرز بيدهم على شكل كرة ثم يدفعونها إلى أفواههم، لكن، هنا كانوا يستخدمون أصابع اليد فقط. لاحظتهم وهم يأكلون الأرز مع الدجاج والخبز مع السمك. وعند الانتهاء، ينهض كل فرد بصورة مستقلة ويغسل يديه ثم يتمضمض بالماء. وبعد أن انتهينا، دعا صدام الآخرين لتناول الطعام ولكن كان كل فرد منهم يدّعي أنه قد تناول طعامه وتظاهر بعدم الأكل وهو يقول «أشكرك. تغدينا قبل ما نجي» رد عليهم صدام قائلاً بإلحاح: «ما معقول، تعالوا، تعالوا اكلوا».

«لا. أبداً. لا. لا» كان جوابهم مع شيء من علائم السخط الظاهرة.

وأخيراً. أمسك صدام بذراع أحدهم كما لو أنه يجره بالقوة مما حدا به إلى أن ينهض ويتوجه للأكل. وبعد ممانعات كثيرة، قام عدد منهم واشترك في الأكل وقال عدد قليل منهم «لا. حقيقة، يا صدام. قسماً بالله أكلت قبل ما إجي. بحليب أمك أكلت».

قسم غريب ولكنه قسم خاص بالنسبة إلى عشيرة البومحمد.

شارك في الأكل بعد إلحاح كل الذين امتنعوا في البداية وقالوا بأنهم قد أكلوا قبل مجيئهم. كما لاحظت أيضاً بأنهم يطردون الكلاب إذا ما دخلت الغرفة لكنهم يسمحون للقطط بأن تجلس بجانبهم. وقد رأيتهم يفركون شعرها.

وبعد تناول الشاي والقهوة، نهض أصحابي الثلاثة الذين جاءوا معي في الزورق وقال جحيش «ابقوا بحفظ الله ورعايته يا صدام».

«شنوا؟ أنتو رايحين؟. مو معقول. إمضوا الليل معنا». قال صدام.

«لا. عندنا شغل لازم نسويه، لازم نرجع».

«أرجوكم أبقوا ويانا».

«لا. صدق عندنا شغل» ثم كرروا قولهم «إبقوا بحفظ الله ورعايته».

ثم قال صدام «زين. روحوا الله ويايكم» وأنا أضفت قائلاً «سلموا لي على فالح». «الله يسلمك» أجابوا، ثم أخذوا المجاذيف ومراديهم التي كانوا قد وضعوها في الزاوية في المضيف ثم خرجوا وركبوا زورقهم.

ولما غادر البقية الغرفة، نهض رجل عجوز وقال إلى صدام «جيب الإنكليزي وياك وتعالوا إلى داري لنشرب الشاي عصر هذا اليوم» ولاحظت، عندما قبل صدام الدعوة يخاطبه بكلمة (زائر) وهي تسمية دينية يستعملها الشيعة.

٥ ـ الصورة الأولى المطبوعة في ذهن المعدان

وحّد النبي محمد ﷺ القبائل العربية في الجزيرة العربية التي كانت في حرب مستمرة فيما بينها وذلك لأول مرة في تاريخهم. وفي خلال عشر سنوات من وفاته في سنة ٦٣٢ للميلاد، اندفع رجال القبائل الفقيرة وذوو الآراء الفردية المتشددة من الصحراء فدمروا الجيوش التي تتحلى بالضبط والتي قاومتهم.

انتزعوا سوريا ومصر من الإمبراطورية البيزنطية والعراق من الإمبراطورية الفارسية، وامتدت إمبراطوريتهم في أقل من مائة سنة من جبال البرنيز إلى حدود الصين وشملت مناطق شاسعة جداً تفوق في مساحتها المناطق التي كانت تحكمها روما في يوم ما.

كانت إنجازاتهم بارزة جداً حينما أسسوا دولتهم، لكن المنافسات والعداوات أخذت تمزق دولتهم منذ السنوات الأولى.

بدأت المشاكل عند مقتل عمر في سنة ٦٤٤ للميلاد. والذي خلف أبا بكر الخليفة الأول، ثم خلفه عثمان بن عفان وكان شخصاً ضعيفاً، لكنه كان من أسرة ذات قوة في مكة المكرمة فقتل سنة ٦٥٦ للميلاد. وجاء من بعده علي. فاندلعت الحرب الأهلية، والتحق معاوية وهو ابن أخت عثمان ووالي سوريا مع المتمردين فحدثت حروب منقطعة ثم أعقبتها مفاوضات غير حاسمة إلى أن قُتل علي أيضاً في سنة ٦٦١ للميلاد، في عاصمته الجديدة الكوفة والواقعة في القسم الجنوبي من العراق ودفن في الصحراء.

وكان ابنه الأكبر الحسن ضعيفاً وكان بحاجة إلى حث قليل حتى يتخلى عن مطاليبه. فأصبح معاوية، والي سوريا القوي، خليفة وأسس الخلافة الأموية المشهورة في دمشق. وسرعان ما أصبح النظام الجديد غير محبوب في العراق لأن معظم السكان ليسوا عرباً فاستاءوا من عجرفة حكامهم العرب ومن اضطهادهم لهم على الرغم من أنهم قد اهتدوا للإسلام. وعندما توفي معاوية ثار أهالي الكوفة. فأرسلوا رسلاً إلى الحسين الابن الثاني للإمام علي يناشدونه بالمجيء إلى العراق ليترأس الثورة ووعدوه بالدعم الشامل.

وافق الحسين وانطلق عبر الصحراء، من مكة مع جماعة صغيرة بضمنهم النساء والأطفال. وفي الطريق، علم بأن المؤامرة قد انكشفت وأن زعماء الثورة العشرة قد أوقفوا ونُفّذ فيهم حكم الإعدام.

لم يثنه هذا عن مرامه، فواصل مسيرته حتى وصل كربلاء الواقعة على نهر الفرات، وهنا واجه قوة تتألف من أربعة آلاف مقاتل وقد اتخذوا مواقعهم على طول النهر وهؤلاء هم الذين أرسلهم الخليفة الجديد يزيد ليعترضوا سبيله.

وبالتأكيد، لم يأمر يزيد بقتله ولم يرغب فعلاً في ذلك. وكان بإمكان الحسين الانسحاب بأمان وإلاّ فإنه سيطوق.

اختار الحسين القتال وبعمله هذا تغير تاريخ الإسلام. ولم يتحرك أي فرد من الذين أدخل مساعدتهم في حسابه. وتقول الأحاديث بأنه بقي وحيداً مع زمرته الصغيرة معتمداً على شجاعتهم وبسالتهم.

وفي اليوم العاشر من الشهر العربي، شهر محرم الموافق سنة ٦٨٠ للميلاد، تقدّم الحسين مع جماعته نحو أعدائهم. «لم تدم المعركة وقتاً طويلاً» قال أحد شهود العيان ليزيد «عبارة عن وقت يكفي لذبح بعير، ووقت يأخذ فيه المرء سنة من النوم» ثم أخذوا رأس الحسين المذبوح إلى

الكوفة حتى يراه والي الكوفة التابع ليزيد والذي ضرب الرأس بعصاه على فمه.

وفي ذلك السكون المروّع الذي أعقب هذا الحادث، رفع أحد الرجال المسنين صوته وقال: «واأسفاه! ما كنت أتمنى أن يمتد بي عمري حتى أرى مثل هذا اليوم ـ أنا الذي رأيت نبي الله يقبّل تلك الشفاه».

فبدأت منذ ذلك الوقت الشيعية كحركة سياسية بين العرب تروّج مطاليب الإمام علي وأحفاده في الخلافة، ولكن بعد استشهاد الحسين أعلنت نفسها كحركة دينية جديدة وسرعان ما أصبحت قوة في العراق وإيران بشكل خاص.

وبينما يميّز السنّة علياً بأنه رابع خليفة أو الخلف الرابع لمحمد ﷺ، يعتبر الشيعة الخلفاء الراشدين الأُول مغتصبين.

إنهم يعتقدون بتعاقب الأئمة في الرسالة، ظانين أنهم يسيرون بذلك على نهج النبي. ويعتقد معظم الشيعة باثني عشر إماماً ومنهم علي والحسن والحسين الثلاثة الأوائل والآخرون هم من سلالة الحسين.

وحسبما يقول الشيعة فإن الإمام الأخير هو المهدي الذي اختفى بشكل غامض في سامراء. وهم ينتظرون ظهوره في تمام الوقت باسم المهدي أو المهدي المنتظر.

توسعت المدينة المقدسة النجف الأشرف في الصحراء حول قبر علي الذي بنى فوقه المؤمنون جامعاً كبيراً فيه قباب ذهبية، لا يدخله أي كافر حتى هذا اليوم.

ويجلب الناس في أماكن بعيدة جداً كبعد الهند، موتاهم لدفنها في هذه الأرض المقدسة. وبالنسبة إلى الكثيرين، يعتبر الإمام علي شخصية شبه سماوية.

دفن الحسين في كربلاء، في المكان الذي سقط فيه صريعاً. وبدأ

الناس فيما بعد يأتون لزيارة هذا المكان للتضرع وسرعان ما ظهرت المدنية ثم ظهر جامع فخم يضم رفاة شهيد الشيعة الأعظم.

وأصبحت كربلاء والنجف قبلة الحجاج من أنحاء العالم.

وعندما زرت سكان الأهوار لأول مرة وجدتهم متطرفين في شكوكهم للعالم الخارجي. وفي قرية قباب يذهبون إلى السوق في المجر، ويذهب العدد القليل منهم إلى العمارة والتي تبعد مقدار (٢٠) ميلاً عنهم. وأنّ شخصاً واحداً أو شخصين منهم قد زار البصرة أو بغداد.

والكل، على أية حال، يتمنى زيارة كربلاء والنجف الأشرف كما يتمنى كل فرد منهم أن يدفن في مدينة النجف الأشرف.

وفي طريقنا إلى الزائر، اقترح صدام بأن نزور الدكان. ركبنا في مشحوف صدام وجذف عجرم. فتوجهنا نحو أقرب مجموعة من البيوت، ووجدت بينهن منها قد بنيا على إحدى الجزر، وشاهدت قطعة من القماش الأبيض، أشبه بالعلم، يرفرف على سقف أكبر البيوت. فقال لي صدام «يؤشرون دائماً على الدكان بهذا الشكل حتى يراه الشخص الغريب». كما شاهدت عجلين صغيرين، أسمري اللون، وثلاث نعاج تأكل القصب الأخضر المكدس على شكل كومة. وجاء صاحب الدكان إلى حافة الجزيرة ليسلّم علينا وأمسك المشحوف. ولاحظت أن الأسل المقطوع الذي يقف عليه قد غاص تحت أقدامه بمقدار بضع أنجات في الماء.

ووجدت الماء قذراً بسبب ما يطفو فوقه من قطع من البعرور وغيره من الأشياء. ووجدت بالقرب من الدكان مرحاضاً بني على الماء وهو مغطى بقطع من الحصير الممزق حتى يحجب النظر. وكان هذا هو الشكل المحسّن من المدينة. أما سكان الأهوار العاديون فإنهم يجذفون قواربهم إلى أقرب منابت القصب ثم يجلس الواحد منهم القرفصاء على جانب القارب ويقضي حاجته. وهذه عملية لا تتم بسهولة.

ولما نزلنا إلى البر، بذل ابن صاحب الدكان جهداً في إسكات الكلب حتى يكف عن النباح ويخلد إلى السكوت وذلك بتحريك المجذاف فوق رأسه. ورأيت دجاجتين تطيران على السقف. كان باب الدكان مصنوعاً من خشب الصناديق والقفل معلقاً على سلسلة. وأما في الداخل، فقد سحب صاحب الدكان إحدى صناديق الشاي الفارغة إلى الأمام لأجلس عليها وأمر ابنه بأن يهيىء لنا الشاي.

لم أجد في الدكان أشياء كثيرة. وجدت كيساً من السكر وآخر من الدقيق، وخصافة من التمر وصندوقاً من الشاي الهندي الرخيص الثمن، وتنكة نفط أبيض، وعلب سيكاير عراقية وشخاطاً وعدداً من قوالب الصابون وعقالاً عليه غبار كثير.

تذكرت بأنني قد شاهدت صاحب الدكان في مضيف صدام وكانت إحدى عينيه ملتهبة وبدأ الآن يمسحها بحاشية كوفيته.

ومن خلال الباب، لاحظت حسبما أظن، أنه لفتاة تملؤ الكتلي بالماء من جانب مشحوفنا بعد أن أزاحت بعض القطع الصلبة من الروث ومع ذلك كان طعم الشاي كغيره من الأنواع الأخرى. وبينما كنا ننتظر تقديم الشاي، سألت صدام قائلاً له بأن له يبين لي المؤهلات التي تتطلب في أن يسمى المرء نفسه باسم زائر. فشرح لي بأن الزائر يجب أن يزور ضريح علي الرضا الإمام الثاني ومرقده في مدينة مشهد الرضا في خراسان الواقعة في القسم الشمالي الشرقي من إيران.

وكثيراً ما كنت أزور مشهد في الشتاء الماضي وحالفني الحظ لأرى الجامع وأدور حول الضريح.

كان هذا البناء أحد الأبنية الأكثر جمالاً حسبما يراه روبرت بايرون Robert Byron في إيران حينما دخل إليه وهو متنكر في سنة ١٩٣٣.

وحتى في سنة ١٩٥٠ من الصعب جداً أن يدخله شخص غير مسلم،

وتجد في الجامع نفسه قبر الخليفة المشهور هارون الرشيد.

وفي القسم الجنوبي من العراق يزور عدد كبير من الناس مدينة مشهد كما يزورون مكة المكرمة.

ولو أن الشيعة يعتبرون كربلاء والنجف أكثر قدسية من مشهد إلاّ أنهم لا يمنحون لقب زائر لمن لا يزور هاتين المدينتين من الناس في جنوب العراق. وبعد بضع سنوات، حينما كنت في القسم الأوسط من أفغانستان بين الهزاراس، وهم أيضاً من الشيعة، وجدت أنهم يطلقون كلمة كربلائي على كل شخص زار كربلاء بينما لا يطلقون أي نعت على من يزور مدينة المشهد. ويظهر أن المسألة هي مسألة مسافة.

كان بيت الزائر واحداً من عدة بيوت مفصولة بسواقي فيها مياه قذرة، عرضها بضعة أقدام، وأمام الطرف المفتوح في كل بيت ساحة ندّية واسعة أكثر سعة من البيت نفسه. أما أرضية البيت فإنها عبارة عن مزيج من نباتات متفسخة وسماد، يرتفع بعض أنجات عن مستوى الماء ثم يُحصر بحاجز من القصب ارتفاعه أقل من قدم.

ورأيت على الجدران الخارجية للبيت صفوفاً من أقراص البعرور وهي معرضة للشمس حتى تجف. وشاهدت امرأة عجوزاً مرتدية الثياب السوداء وفتاتين صغيرتين مرتديتين ملابس ذات ألوان، جلسنا تحت أشعة الشمس في المدخل. نزلنا من المشحوف، وعبرنا السياج ثم دخلنا البيت ونحن نبعد عن طريقنا الجواميس التي كانت تهزّ رؤوسها، وما وجدت شيئاً آخر يجذب الانتباه.

وجدت إحدى العجول واقفة في الداخل ومجموعة من فراخ الدجاج تعدو تحت أقدامنا. قالت إحدى النسوة، وهي ترتدي الملابس السوداء كغيرها من النساء العجائز في القرية «مرحباً يا صدام» ورفعت أحد الأطفال الصغار في الأرض وهو عارٍ تماماً حتى تفسح لنا مجالاً للدخول.

والبيت من الداخل بطول ست ياردات وعرض ياردتين وبارتفاع تسعة أقدام. وفيها سبعة أقواس، وعرفت فيما بعد أن جميع البيوت والمضائق تحتوي حسب التقاليد على عدد فردي من الأقواس.

كانت الغرفة مقسمة إلى قسمين بواسطة سرير منام واطىء أشبه بسيقان القصب، وُضع إزاء الحائط الأيسر وكدّست فوقه أكياس مصنوعة من شعر الماعز تحتوي على الحبوب ومجموعة مشكّلة من اللحف وغيرها من الملابس وأشياء أخرى من السجاد. ووجدت عدداً من المجاذيف معلقة على القمة.

خصص نصف الغرفة للنساء. اللواتي يعددن الطبخ. مشينا فرأينا هاوناً خشبياً وقربة معلقة على ركائز خشبية ذات ثلاثة أذرع ومجرشة حجرية دائرية الشكل وفيها ذراع خشبي.

رأيت عدداً من الصحون والصواني والأباريق مبعثرة بجانب موقد صغير. وفي الطرف البعيد يؤدي الزائر صلاته فيها. ينشر عباءته أمامه كسجادة للصلاة ويصلي صلاة العصر أما النصف الثاني من الغرفة فهو مخصص للرجال يستقبلون فيها الضيوف ويقيمون فيها الولائم.

كانت الغرفة مفروشة بقطعتين من السجاد الممزق فوق الحصير المصنوع من القصب. كما وجدت عدة وسائد من الصوف ذات أوجه لماعة، فيها نقوش هندسية الشكل وكانت محشوة تماماً حتى يرتاح عليها الجالس.

وقال صدام وهو يقوم بواجب المضيّف «إجلس. خذ راحتك. كأنك في بيتك». وأخيراً، انتهى الزائر من صلاته ثم جلس وتمتم بأدعية وتسبيحات ومسح أخيراً لحيته بيده ثم نظر إلى اليمين وبعدها إلى اليسار ثم نهض ورفع عباءته وقال: «مرحباً بكم». وجدته رجلاً عجوزاً لكنه شخص له مكانته، طويل القامة، محدودب الجسم، بوجه نحيف ينم عن الزهد،

وأنف مقوس ولحية بيضاء. لا يرتدي أي شيء سوى الكوفية والدشداشة البيضاء الرقيقة والشفافة.

أخذ وسادة أخرى ووضعها فوق الوسادة التي هي بجانبي وقال «هسه إستند عليها وترتاح أكثر» ثم أشعل النار في فجوة كائنة في الحصيرة المفروشة على الأرضية المتكونة من أشجار الأسل. ولما اشتعلت النار أضاف إليها أقراص البعرور بحيث وضع الواحدة فوق الأخرى وسرعان ما امتلأت الغرفة بدخان أبيض مؤذ جداً بحيث بدأت عيوني تدمع. وقال صدام: «هذيج الوصلة بعدها ندية» فأخرجهامن النار غير أن الدخان بقي على حاله.

جلب الزائر مستلزمات الشاي وجلس بجانب النار وبدأ يغسل الأقداح والأطباق والملاعق في وعاء لماع.

كان الشاي موضوعاً في ورقة ملفوفة والسكر في علبة من التنك. وبينما كان الزائر وصدام يتناقشان حول الضريبة المفروضة على القصب الذي طلبه الشيخ فالح إلى مضيف والده الجديد، وصل ابن الزائر.

بدأ يفرغ الحشيش من المشحوف ثم ألقى شيئاً منه أمام الجاموس ثم كوّم الباقي في داخل الغرفة. كان يبدو في العشرين من عمره، حاسر الرأس، حليقه، عارياً إلا من عباءة لف بها خصره، ثم وضع رمح الصيد في الزاوية ولبس الدشداشة قبل أن يجلس معنا. وقال صدام:

«باچر راح أروح إلى أبو مفيفات والتقي مع صحين. لازم يحضّر قاربين مليانه بالقصب من قريته».

«نعم! والله يا صدام. هذا كل ما جمعناه» قال الزائر.

وأضاف ابنه قائلاً: «قوم صحين يسببون دائماً مشاكل».

«مع كل عشيرة الفريجات مثل هيج حالة. كل همهم هو إحداث المشاكل».

وفي مساء ذلك اليوم عدنا إلى مضيف صدام. بقيت واقفاً في الخارج أراقب مغيب الشمس وراء شتلات القصب الممتدة إلى مسافات شاسعة وهي عالية تصل إلى فوق الرؤوس. وأراقب أيضاً الركام من الغيوم المستديرة، منفوخة على شكل قطع متناثرة تتسلسل ألوانها من لون خشب الأبنوس إلى الذهب اللماع ثم إلى العاج القديم، مقابل خلفية من اللون القرمزي أو البرتقالي والبنفسجي والجنازي والأخضر الباهت.

وأنت في مثل هذه الوقفة تسمع من جميع الجهات نقيق الضفادع الهائل العدد وأصوات أخرى كثيرة لا يستسيغها المرء ولا يستطيع أن يدوّن ملاحظاته عنها. كل ذلك كما لو أن الأهوار تتنفس.

إنك تسمع هذه الأصوات أكثر من أي صوت آخر، حتى من أصوات صياح الوز وهي تسبح في الماء.

فالأصوات التي تسمعها في الأهوار هي عبارة عن صوت نباح كلب وصوت جاموس يريد أن يقبع في محل ما فيحدث صوتاً كصوت الجمل وصوت رجل يغني أغاني الشوق ثم يتوقف حتى يردّ عليه شخص آخر.

وترى في الأهوار جواميس كثيرة، تسبح عبر المياه المفتوحة، متجهة إلى القرية لا ترى منها غير رؤوسها ثم يترك كل واحد منها أثراً حين الخروج من الماء.

كما ترى أعمدة الدخان تتصاعد من بين البيوت وهي كثيفة. يشعلونها حتى يطردوا البعوض عن مواشيهم.

وترى صبياً يجذف مشحوفه في الطريق المائي، في طريق عودته إلى بيته، يغني بصوت رخيم.

الصوت باقٍ لا يزول في طبقات الهواء.

وفي هذه الأثناء ناداني صدام فدخلت إلى المضيف.



٦ ـ في دار ضيافة صدام

قرأت خلال السنة الماضية ما بوسعي قراءته عن المعدان. وكل ما قرأته لا يُعدّ إلاّ شيئاً قليلاً. أما الكتاب الوحيد الذي عنوانه الحاج راكان ـ عرب الأهوار ـ بقلم فولانين Fulanian (إس. إي Hedge Cocha) فهو عبارة عن كتاب يصف سكان الأهوار وصفاً يلائم مزاج المرء. كتبه في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وما عدا هذا الكتاب لم أجد أي مرجع سوى بعض الإشارات العرضية التي تشير إلى عرب الأهوار في ما كتب عن معركة بلاد الرافدين، كلها بدون تملق وبروايات مختلفة.

إسم المعدان، بالتأكيد، إسم سيىء لدى العرب ولدى الإنكليز على حد سواء.

فالكلمة تعني باللغة العربية الساكن في عدك أو السهل. أما بدو الصحراء فإنهم يستعملون هذا الاسم لينعتوا به كل عشيرة عراقية تسكن الأنهار. بينما يستعمل المزارعون الذين يسكنون في قرى على امتداد النهر هذا الاسم بشكل متفاوت، لينعتوا به سكان الأهوار.

العرب كلهم أناس متعالون على من يعتبرونهم أدنى منهم. فكلما كانت ادعاءات العشيرة من أنها تنحدر من سلالات العرب الأقحاح كلما أزداد احتقارها لسكان الأهوار وذلك بسبب سلالتهم المشكوك فيها.

والعشائر الآنفة الذكر كثيراً ما تلصق التهم بهم كالتي تتعلق بالخيانة والأعمال الشريرة.

يخشى أبناء المدن الذين يسافرون على طول نهر دجلة والفرات صعوداً ونزولاً بأس المعدان فيتجنبونهم ويصدقون كل ما يسمعونه عنهم من الأعمال. كما أن سمعتهم بين الإنكليز في العراق سيئة ـ تلك السمعة التي ورثوها على ما أظن في زمن الحرب العالمية الأولى، عندما كانوا في مساكنهم في الأهوار يقتلون ويسلبون كلا الطرفين المتحاربين بدون تمييز.

وفي خلال السنوات القليلة التي كان البريطانيون يديرون فيها شؤون العراق، كان الضباط السياسيون يشغلون أنفسهم كثيراً في مسائل عاجلة جداً، يورطون فيها أنفسهم كثيراً مع المعدان.

فقد تنقل عدد منهم في طول الأهوار وعرضها غير أن زياراتهم ما كانت تدوم أكثر من بضعة أيام بأي حال من الأحوال. أما في السنوات الأخيرة فقد كان يؤمها عدد من الأوروبيين من البصرة وبغداد حتى يصطادوا البط وما كانوا يمكثون إلا مع الشيوخ الأثرياء الساكنين في أطراف الأهوار.

أما بالنسبة للموظفين العراقيين فإنني أشعر بكل تأكيد بأنه لم يتغلغل أي فرد منهم في الأهوار ما لم تكن المهمة المكلف بها ضرورية تماماً. وربما أكون أنا على أكثر احتمال الشخص الأجنبي الأول الذي عاش بين المعدان فرداً منهم حسب رغبتي وحسب الظروف المواتية لي.

بي شعور عاطفي غريزي لمعرفة الحياة التقليدية لدى الآخرين مثلما لكثير من الإنكليز ممن هم في جيلي وتنشئتي.

أمضيت طفولتي في الحبشة حيث لم تكن توجد فيها أية عجلة في ذلك الوقت أو أية طرق معبدة ثم عشت بعدئذٍ بعد مغادرتي جامعة أوكسفورد مدة ثمانية عشر عاماً في أجزاء بعيدة ونائية في أفريقيا والشرق

الأوسط، فجعلتني أنسجم بطريقة الحياة مع سكان العشائر بسهولة، وأكيّف نفسي وفق أساليب عيشهم وأجد متعة في طريقة حياتهم. ولكن يصعب عليّ أن أجد في الوطن أولئك الناس الذين ينبذون عاداتهم الخاصة ويحاولون أن يكيفوا أنفسهم مع الحياة على طريقة المدنية الغربية.

وفي العراق، كأي مكان آخر، هذا التبدل هو أمر محتوم. وإنني أعرف من أن الآخرين الذين هم أوسع أفقاً وتفكيراً مني وجدوا هذا التبدل شيئاً ممتعاً وآمنوا بأهمية نتائجه. أما أنا فسيّان لديّ، فضّلت أن أرى أقل ما يمكن من النتائج. فمثلاً، كنت أشعر بالضجر بشكل عام وبهمة مثبطة حينما يتطلب مني أن أمضي ليلة مع الموظفين العراقيين ـ وأنا اليوم ألوم نفسي لتصرفي هذا طالما أجد مضيفيّ أناساً أصدقاء وكرماء للغاية ـ وما سبب ضجري إلا انهماك مثل هؤلاء الموظفين في الأمور السياسية العراقية وأنا لا أملك عن الأمور السياسية إلا النزر ولا أهتم بها إلاّ اهتماماً قليلاً بينما ينصب اهتمامي على أحوال العشائر والتي يرونها أموراً لا يسبر غورها أحد أو أنها أمور مشؤومة. فبإمكاننا أن نتحدث ساعات عن الأمم المتحدة وعن كل ما يفتن المرء في تمضية العطلة في باريس وعن أنواع صناعة السيارات أو عن تطوير بلدهم. واضطر في سبيل مجاراتهم أن أنافق وأكون مرائياً. بيوتهم مريحة إذا ما قارنتها بالأماكن العديدة التي نمت فيها، فهي بيوت ذات طابق واحد، بناؤها رخيص، تعوزها المتانة والذوق، لكنهم يقيسون المدنية بأسرها بتقدم المادة لأن تعليمهم كان قد علمهم ذلك. ولهذا السبب تراهم يخجلون من ماضيهم ويريدون نسيانه، كما أنهم يحلمون بأن يعيشوا في بيوت حديثة كتلك البيوت المشيدة في ضواحي المدن ويعتبرونها الحياة المفضلة.

أما ذوقي أنا، فربما يذهب إلى أبعد من ذلك، إلى الطرف الآخر. إنني أكره السيارات والطائرات والراديو والتلفزيون وهي في الحقيقة مظهر مدينتنا في السنوات الخمسين الماضية وأكون دائماً سعيداً إن قاومت في

العراق أو في أي مكان آخر راعي الغنم وهو يعيش في كوخ مليء بالدخان مع أسرته وحيواناته. لأنني أجد كل شيء في مثل هكذا بيت غريباً ومختلفاً. وإن اعتمادهم على أنفسهم شيء يريحني والشعور بالاستمرارية مع الماضي يسحرني. فإنني أحسدهم لأنهم قنوعون. والقناعة نادرة في العالم في هذا الوقت، والبراعة والمهارة في المهنة بسيطة، على أية حال، بحيث لا آمل أنا شخصياً من بلوغها مطلقاً.

أمضيت سنوات كثيرة في الاستكشافات والريادة فلم يبق أي مكان لحد الآن لم أستكشفه من البلدان التي تسحرني وتفتنني. لذلك، أشعر بأنني أميل إلى العيش بين الناس الذين اختار العيش معهم. ففي الجزيرة العربية كنت على صلة وثيقة مع رفاقي، غير أن رحلتي المستمرة حالت دون أن أتعرف إلى أي مجتمع خاص، على الرغم من أنني كنت أرغب في ذلك، والشيء القليل الذي وجدته لحد الآن فيما يخص سكان الأهوار راق لي. فهم أناس مرحون وأصدقاء يروق لي مظهرهم.

إنّ طريقة حياتهم، التي لم تتأثر بالعالم الخارجي إلا قليلاً كانت فريدة لحد الآن، وأن الأهوار نفسها أماكن جميلة. فهنا والحمد لله، لا توجد أية علامة من تلك المدنية الرتيبة والتي تنتشر على شكل ملابس أوروبية في بقية أنحاء العراق كانتشار الآفة أو الوباء. وصلنا دار صدام فوجدته لوحده في البيت، يخمّر القهوة. ولما جلست، ناولني فنجاناً منها ثم دفع الطرف الملتهب من النار في الحزمة الطويلة من القصب تحت إبريق القهوة.

«ما هي خططك. صاحب؟» كلمة صاحب تعني في اللغة العربية صديقاً «بعث لي الشيخ فالح رسالة يقول فيها بأنك ترغب أن تزور الأهوار. فهل تعمل من أجل الحكومة؟».

«كلا. إنني أتنقل لأنني أجد لذة في رؤية أماكن وأشكال مختلفة من الناس».

«من يدفع لك تكاليف سفرك؟. ما هو مقدار راتبك؟».

«ليس لي راتب. وأنا أدفع تكاليف سفري».

«شيء غريب!» ثم سكت صدام دقيقة أو دقيقتين.

وبإمكاني أن أقول أنه لم يصدقني لذلك استطردت قائلاً: «تنقّلت في بلدان كثيرة، في أراضي الحبشة وفي السودان وفي الجزيرة العربية. وجئت الآن من كردستان. إنني أبحث عن المعلومات».

ربما أثّر كلامي هذا فيه، ولكن بالتأكيد لم يصدقني حتى إن قلت بأنني أتنقل من أجل اللهو أو التسلية.

«هل تبحث عن معلومات عن المعدان؟» سألني ونظر إلي نظرة شك.

«يمكن العثور على المعلومات في كل الأماكن» أجبته باختصار.

وبعد وقفة أخرى قال: «هل تعرف كرميلي Grimley. كان صديقي في العمارة».

«نعم، كنا سوية في الحرب».

«إنه صديقي، كان يستمتع بالحفلات، أين هو الآن؟».

«لا أدري».

«هل تعرف ديجبورن في بغداد؟ DiGhburn».

«التقيت به مرة في سوريا».

«هل تعرف إدموندز؟».

«نعم، في إنكلترا».

«إدموندز رجل طيب. إنه صديقنا. فهو رجل عاقل جداً. هل هو في صحة جيدة؟».

«نعم، الحمد لله، إنه في صحة جيدة، وهو يبعث بتحياته».

لا تزال للبريطانيين سمعة حسنة واسعة في العراق في ذلك الوقت. وهي نتيجة للتعاون الوثيق مع البلد بين الحربين العالميتين حينما عمل الضباط البريطانيون إداريين ومستشارين. ولا يزال كثير من السكان المسنين يشعرون بالاحترام والود والمحبة للأفراد الإنكليز.

والعشائر بوجه عام، دمثة الأخلاق، لا يعترضون سبيل الضيف على العكس من سكان المدينة أو موظفي الحكومة إذ كانوا يهاجمونني بمرارة بسبب السياسة البريطانية إزاء فلسطين أو قناة السويس مثلاً.

ففي مثل تلك الحالة قد ينقلب ذكر الإنكليزي الذي يعرفونه إلى مرارة ويتغلب على ذكرى الصداقة.

«شكو عندك بهاي الصناديق؟» قال صدام.



«أدوية».

«أنت طبيب إذاً!».

«أعرف عن استعمالات الأدوية».

«هل عندك دواء لرأسي، عندي وجع رأس».

فتحت الصندوق وأعطيته قرصين من الأسبيرين.

«أعطني أكثر. صاحب، هذا قليل».

أعطيته ستة أقراص ولكن حذرته بأن يتناول قرصين منها في كل مرة.

«ولمعدتي؟. أشعر بوجع هنا أيضاً».

أعطيته بعض الأقراص من الصودا.

«ما هذه؟» أشار إلى القنينة.

«هذا يود».

«وهذه؟».

«هذا دواء للحروق» ثم قفلت الصندوق بقوة.

ساد صمت آخر، ناولني خلالها فنجاناً من القهوة ثم سأل:

«وين تريد تروح؟».

«أريد أن أعبر الأهوار حتى أصل إلى نهر الفرات ثم أعود من خلال أراضي عشيرة الفرطوس. تنقلت من أراضيهم في السنة الماضية مع القنصل».

«هل إلتقيت مع جاسم الفارس؟».

«لا. لم يكن موجوداً لما زرنا قريته. ابنه الصغير فالح ضيّفنا».

«ما أعرفه. إبق هنا. ترتاح أكثر بهل المكان. راح نروح للصيد سوية. نصطاد البط والخنزير وكل شيء تريده».

«أشكرك يا صدام. سأعود إليك بالتأكيد. ولكن، قبل كل شيء أريد أن أرى الأهوار».

«الأهوار واسعة. صاحب. تمتد خلف نهر دجلة إلى مساحات شاسعة إلى إيران. ما تكدر تشوفها في سنة واحدة».

«ما يخالف، لكن أريد أشوف أكثر ما يمكن».

«كلش زين! باجر راح نروح إلى قرية بومفيفات. عندي شغل لازم أخلصه هناك. راح نتغدى عند صحين. راح نروح في اليوم التالي إلى نهر الفرات عن طريق زكري، وهاي بحيرة واسعة، ومكان غير مريح عند هبوب الرياح، غرق كثير من المعدان هناك».

وعند تناول طعام العشاء، حيث أكلنا وحدنا، قدّم لي صدام قدحاً

من حليب الجاموس ولم أكن قد تذوقته من قبل. ولكنني فضلته على حليب البقر، ثم تقاطر الناس إلى المضيف. أخذت مكاني، مسنداً ظهري على الجدار، مصغياً إلى أحاديثهم التي لم أكن أفهمها. كانوا يتناقشون حول زراعة الشلب وكانوا يستعملون عبارات لا أفهمها.

فسألت: «هل تزرعون الشلب في قباب؟».

«كنا نزرع في الماضي. لكن. الفيضانات كانت تجرف الطمي معها، قباب انتهى أمرها في زراعة الشلب، ما تكدر تزرع الشلب إلا في طمى حديثة، وهذه السنة، راح نطلب من الشيخ مجيد أن يخصص لنا أرضاً حتى نزرعها بالقرب من فتحة النهر».

«يعني راح تتركون هذه المنطقة؟».

«طبعاً لا! هذه المنطقة هي بيوتنا، نحن معدان. هذولاك اللي يرغبون في زراعة الشلب على حافة الأهوار راح يروحون ثم يرجعون هنا مرة أخرى».

بدأ رجلان من الجالسين يتحاوران ويتناقشان بشكل حاد حول دفع مهر العروس لأنه لا يزال غير مثبوت فيه. واشترك الجميع في هذا النقاش. وأرادوا عجرم أن يضع أساساً لهذا الشيء غير أن صدام التفت إليه وقال له «حسين! باجر راح نجي أنا والإنكليزي نتغدى عندك وأتوقع راح يكون الغداء زين».

مضت فترة سكون ثم نظر الجميع إلى حسين الذي كان يتململ وهو ساخط ثم قال: «أهلاً وسهلاً بكم» بلهجة غير مقنعة ثم أسرع في الخروج وهو يقول: «بحليب أمك. صدام. باجر عندي شغل لازم أروح إلى المجر».

ابتسم عدد من الرجال وشعرت أن حسين قد تضايق. وعلمت فيما بعد بأنه مشهور بخبثه ودناءته.

«روح للمجر بعد باچر. باچر الإنكليزي يشرّف بيتك».

«تشرفت» رد حسين وهو كئيب.

وقال صدام: «إذاً الظهر. لحم ولبن وأرز».

لجأ حسين إلى الآخرين وقال: «كلكم تعرفون عندي شغل ولازم أروح باچر إلى المجر، لي موعد مع ابن عم زوجتي».

«هذاك اللي مات في العام الماضي!» قال صدام.

«لا. صُدُكْ صدام. وحياتك، بالعباس يا صدام».

«والله حسين. اليوم اللي تضيف فيه الضيف يكون يوم عيد، عليك العار».

شعرت بأسى بالنسبة إلى عجرم.



ولما غادر الضيوف أخيراً أوعز صدام إلى عجرم وشخص آخر بالبقاء في المضيف لتمضية الليل.

«ضع أمتعة الانكليزي بينكما. وضع الفانوس فوقها، يبقى أحدكم يقظاً. أقتلكم إذا سرقوا أي شيء منه. راح آخذ البندقية إلى داري للأمان» ثم قال لي: «راح ترتاح هنا. والمعدان هم حرامية، في الأسبوع الماضي سرق بعضهم زورقي، الله يحرقهم! ولا تزال مفقودة، وقبل شهر، دخلوا الدكان بالليل وسرقوا كل ما فيه. عندما تكون في الأهوار نم على سلاحك وإلاّ راح يسرقوه. ما يسرقك أهل الدار بل يسرقك الآخرون. ربما من قرية أخرى. وقبل بضع سنوات، جاء الوصي بنفسه إلى المجر. حضر جميع الشيوخ هناك مع رجالهم وكوّنوا حشداً كبيراً. وكان أحد رجال الشيخ مجيد يملك بندقية (برنو) جديدة، دفع الشيخ ثمنها ومقدارها مائة دينار وأخذ يتباهى ويتفاخر بها ويريها إلى الجميع، طلب أحد المعدان منه أن يراها. ناوله البندقية وسرعان ما غاص المعيدي بين الجمهور المحتشد

ولم يره أحد أبداً مرة أخرى. والبندقية لم تعد إليه أبداً وعندها غضب الشيخ مجيد لهذا العمل».

جلب خادم صدام فراشاً ولحافاً فقال له صدام «ضعها هناك، لا، ضعها هناك أيها الغبي، ضع المخدة».

قلت له بأن لديّ بطانيات.

«لا تحتاجها هنا. هذا بيتك». رتّب المخدة ثم تمنى لي ليلة سعيدة وحذّر عجرم قائلاً: «إذا نمت أسلخ جلدك». يظهر أن هذا تهديد ومن الممكن تنفيذه.

أما أنا فخرجت خارج البيت قبل أن آوي إلى فراشي. كانت ليلة ظلماء، لا أثر للقمر. فصاح عجرم قائلاً: «دير بالك من الكلب».

كانت النجوم تلمع وترسل أشعتها الماسية وقد انعكست على سطح الماء بين قدميّ. وكان الهواء بارداً جداً، فيه شيء من لمسات الشتاء. وهنالك، في بيوت عديدة، تتأجج نيران المواقد، ويمكن مشاهدتها من مدخل الباب.

حَطّ البط على الماء بالقرب مني، وتطاير رذاذ الماء، وسمعت مرة أخرى نقيق الضفادع الموزون.

٧ ـ بومفيفات

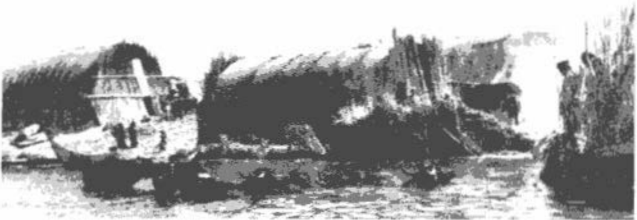
إحدى قرى الأهوار

أيقظني عجرم والشمس لم تشرق بعد ثم بدأ بإشعال النار مستعملاً روث الجاموس، وسرعان ما إمتلأت الغرفة بالدخان. فقال لي عجرم:

«صباح الخير. صاحب. نمت زين؟».

«صباح الخير. عجرم. نعم. نمت نوم مريح فعلاً. وأنت؟».

«ما نمت. حرست أمتعتك».



قرية بومفيفات

طوى الفراش ثم أخذ الكتلي وانتحينا في إحدى زوايا المضيف وبدأ يصب الماء الفاتر على يديّ وأنا أملؤها بالماء ثم أغسل وجهي وأمضمض فمي. ولما انتهيت ناداه صدام حتى يحلب الجواميس. خرجت حتى أرى كيف يحلب عجرم الجواميس، فرأيت وعاء الحليب مصنوعاً من كتلة خشبية، له قاعدة مستدقة حتى لا يمكن وضعه على شكل قائم، أخذه عجرم من يد الخادم ثم جلس القرفصاء في جانب من جوانب الجاموس واضعاً الوعاء بين ركبتيه. وكانوا قد جلبوا أربعة جواميس وعجلاً واحداً.

وتعجبت لماذا استدعى صدام عجرم بدلاً من الإيعاز إلى خادمه ليحلب الجاموس. ثم عرفت بعدئذٍ بأن هناك عدداً قليلاً من الفتيان فقط يعرفون كيف يحلبون الجاموس. فهنا يكمن موطن ضعف غريب بين الناس الذين تتركز حياتهم حول جواميسهم. فبعض الأسر في قرية قباب تملك مقدار خمسة عشر جاموساً، غير أن العدد الاعتيادي كما يبدو هو ما بين (٦ ـ ٨) جواميس. تبقى واحدة منها على الأقل أمام كل بيت.

كانت المياه في البحيرة الضحلة كالزجاج، لونها خافت، والهواء بارد ورطب أيضاً.

لم أستغرب حينما رأيتهم لا يسمحون للنساء بحلب الجواميس لأنني رأيت أيضاً في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية أنهم لا يسمحون للنساء بحلب الإبل مطلقاً. ووجدت، من جهة أخرى، الرجال في القبائل التي تربي الأغنام خارج الأهوار لا يحلبون الغنم والماعز كما لا يحلب الرجال الأكراد أغنامهم أيضاً بل إنما تحلبها نساؤهم لكنهم يساعدونهن في مسكها فقط.

والرجال في الأهوار لا يدقون الحبوب ولا يجرشونها ولا يصنعون أقراصاً من الروث لاستعمالها كوقود بل إنما يقومون بطبخ الطعام وجلب المياه إن لم تتواجد النساء للقيام بهذا العمل لهم. فالمحرمات شائعة بين

الناس البدائيين جميعاً. ففي إحدى المرات فقدت البعثة الكاثوليكية أتباعها في أراضي شيلوك Shiluk الواقعة في جنوب السودان لأن القساوسة لم يعيروا اهتمامهم إلى احتجاجات الصبيان الذين كانوا يطالبون بأن النساء وحدهنّ تلصقن الطين على جدران الدور.

وبعدما انتهى عجرم من هذا العمل، تناولنا فطورنا المتكون من أرغفة الخبز المصنوعة من الأرز وحليب الجاموس بعد غليه وتحليته بالسكر. ثم أرسل صدام ثلاثة رجال ليجلبوا المشحوف ويوصلوني إلى قرية بومفيفات.

وهنا في قباب يُعتبر صدام الأساس، فهو المستبد فيها، يعدم القرويين أو يجلدهم حسبما يشاء ويستوفي الضرائب في التجارة التي تعبر من هنا، فهو ممثل الشيخ مجيد، والحكومة لا تمانع بأن تترك السلطة بيد الشيوخ في الأهوار.

والشيخ مجيد هو أحد الشيخين البارزين في عشيرة البومحمد، وهي عشيرة مستوطنة، يبلغ تعدادها (١٢٠,٠٠٠) نسمة وتسكن على امتداد المجرى الرئيسي لنهر دجلة والفروع الكثيرة التي تصب في الأهوار ابتداء من العمارة وحتى جنوب العزير.

والشيخ الآخر هو محمد العريبي، وهو رجل عجوز، مقاطعته في الجانب الشرقي من نهر دجلة. وفي العهد التركي، كانت العشائر تعتمد في زراعتها على زراعة الشلب. وتبذر الأرض التي تغمرها مياه الفيضانات في فصل الربيع.

وفي الوقت الحاضر، ومع دخول المضخات الميكانيكية، يزرع الكثيرون منهم المحاصيل الشتوية كالقمح والشعير. ومع أنّ كل أسرة تقريباً تربي عدداً من الجواميس، فإن العشيرة محسوبة على الفلاحين وليس على المعدان ما عدا بعض الأفخاذ التي تسكن داخل الأهوار.

تسكن أسرة واحدة أو اثنتان فقط من عشيرة البومحمد في قرية قباب

نفسها. وأما السكان الآخرون في القرية منهم من ينتمي إلى عشيرة الفريجات والشغانبا أو عشيرة الفرطوس.

تعيش هذه العشائر الثلاثة كما تعيش عشيرة البومحمد في كل مكان من الأهوار وهي محسوبة على المعدان، على الرغم من أنّ الكثيرين منهم يزرعون الشلب.

ففي لواء العمارة، للشيوخ الذين تحادد أراضيهم الأهوار، الحق على القرى الكائنة في الداخل حتى وإن كانت تسكنها عشائر أخرى، فيأخذ الشيخ حصته من محاصيل الشلب.

وعندما يمتنع أحدهم عن دفع الحصة المستحقة عليه لا يسمح له ببيع محاصيله. كما أنهم يلحون على القرويين على بيع السمك للأشخاص المخولين بالشراء فقط، ولهذا السبب يتذمر القرويون من هذا الأسلوب ولكنهم يرضخون للأمر.



وبالمقابل، يحافظ الشيخ أو ممثله على الأمن في هذه الربوع ويحكم العشيرة بالعدل حسبما يفهمه. والعشائر تخشى التورط في المحاكم لأنه يتطلب من الأشخاص عند ذلك دفع أجور المحاماة الباهظة ودفع الرشاوى فضلاً عن أنهم سوف يبتعدون عن بيوتهم لفترة طويلة من الزمن، فإذا أدينوا فسوف يتم وضعهم في سجن المدينة وبذلك يصبحون بعيدين جداً عن أهاليهم وأقاربهم الذين يسكنون في الأهوار. أما الشيخ فإنه قد يفرض عليهم الغرامات عند المقاضاة أو يجلدهم أو يحكم عليهم بالسجن في قريته.

ينظر الشيخ في دعاوى أتباعه في المضيف، يحيطه رجال بارزون وبحضور أتباعه، ولقد أدين عدد قليل من الناس وهم في الحقيقة لا يستحقون مثل هذه الإدانة. وصدام هو ابن عم الشيخ مجيد الخليفة. ويعطي الشيخ مثل هذا المركز إلى أحد عبيده الذي يعتمد عليه ويثق به.

والعبيد في العراق كلهم أحرار من الناحية القانونية، غير أن العشائر لا تزال تعتبر الشخص عبداً إن كان ينحدر من سلالة من آباء وأجداد عبيد.

وهذا لا يعني أنهم يعاملونهم معاملة سيئة أو يحتقرونهم علماً بأن كثيراً من العبيد قد أصبحوا من أتباع الشيخ. وإن لعدد قليل منهم السلطة والمقام العالي، وأسمعهم في كثير من الأحيان يتحدثون عنهم ويحسدونهم على مراكزهم الرفيعة. كما أن قسماً منهم قد أصبح أخاً للشيخ بالرضاعة أو أخوة لأبنائهم بالرضاعة. ولا يمكن تمييز الكثيرين من العبد عن رجال العشائر الآخرين من حيث اللون والمظهر لأن الدماء العربية تجري في عروقهم.

ومن الأمور الشائعة أن يتزوج العرب فتيات من العبيد إلاّ أنه لا يحق للعبد أن يتزوج امرأة حرّة وإلاّ فالموت هو المصير الذي ينتظره إن مسّ المرأة الحرّة بسوء.

وإذا ما حصل شيء من هذا القبيل، يثور أحد أقارب المرأة الحرّة ويقتل هذا العبد الذي تجاسر على مسّ المرأة أو تزوجها حتى يمحو آثار هذا العار.

وسرعان ما أدركت من أنّ صدام شخص غير محبوب للغاية، لأنه مستبد وظالم. وعندما يثور غاضباً لا يكبح له جماح.

ويتهمه القرويون من أنه استفاد كثيراً من مركزه حتى أصبح ثرياً، ولكن لا بدّ لكل واحد منهم أن ينهج النهج نفسه إذا واتته الفرصة. غير أنهم جميعاً اعترفوا بأنه شخص سخي وكريم، يعجبون من قوة أخلاقه ويسرّهم كثيراً حسن تقديره وفهمه للأمور إلى حد الإفراط. وفي إحدى المناسبات، روّع الجيران بقيام رجال زورقه بالغناء الثنائي العاطفي أثناء مرورهم من قرية كان صدام يكره أخ أحد الأشخاص وقد توفى حديثاً ولا يزال أهله يقيمون له مراسيم التعزية ـ الأغنية هي «الله يشعل أخوك اللّي مات البارحة، أنت ابن الكلب».

وأخيراً تجاوز حدود صلاحياته، ففي إحدى المرات، كان أحد القوارب محملاً بخصافات من التمر يمرّ في قرية قباب في طريقه من القرنة إلى العمارة، خرج صدام من بيته وأمر صاحب القارب بشكل جازم أن يتوقف عن السير ويناوله ثلاث خصافات من التمر قبل مواصلة سفره. فردّ عليه قائلاً بأنه كان يسرّه أن يقدم لصدام شيئاً من التمر كهدية، لكنه، لعن نفسه إن قدّم له منها شيئاً بعد هذا الطلب. فما كان من صدام إلاّ وأن دخل بيته ثم خرج حاملاً معه بندقيته فأطلق النار من فوق رأس صاحب القارب.

اشتكى هذا الرجل لدي الشيخ مجيد الخليفة فنحّى صدام عن منصبه هذا لعمله المشين. التقيت به مرات عديدة من بعد هذا الحادث فوجدته في فقر مدقع، لكنه بقي على عادته في الكرم والسخاء، يرحب بالضيوف مثلما كان يرحب بهم حينما كان يحكم قباب.

تبعد قرية بومفيفات مقدار ميلين عن قباب. انطلقنا إليها من مضيف صدام ونحن نسلك في مسيرنا ممرا مائياً يجري كالنهر الرئيسي بين القريتين. وسألت صدام عما إذا كانت هذه الممرات بين منابت القصب هي طبيعية أم من صنع الإنسان. فأجاب، بأن المعدان يسوقون الجواميس حينما ينخفض منسوب المياه من خلال القصب حتى يحدثوا أثراً لطريق يسلكونه، ثم يبقى هذا الأثر فيما بعد مفتوحاً بسبب ذهاب وإياب المشاحيف منه.

شاهدنا أثناء سيرنا عدداً من الجواميس وهي غاطسة في وسط مجرى النهر، وكان الشخص الجالس في مقدمة المشحوف يربت على رؤوسها بعصاه حتى يبعدها عن الطريق، لكنها ما كانت تبالي أو تتحرك من أماكنها حتى ولو سار المشحوف على أجسادها لمنع ظهورها.

سألت: «هل بإمكان الجواميس أن تلامس مقر الماء في كل مكان من هنا؟».

«ليس في كل مكان، ولكن لازم تقف على قعر الماء حتى تكدر تأكل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تحب أن تبقى داخل الماء مثل هيذج الجواميس اللي شفتها لما عبرناها. وأحياناً يكون الماي عالي جداً بسبب الفيضان في مثل هذه الحالة على «الحافات أمام البيوت. لكن، الذباب يزعجها وما تكدر تأكل. وإذا أكلت يصعب على صاحبها تأمين الطعام لها. والمعدان يمضون النهار كله في قطع النباتات حتى يؤمنوا العلف إلى الجواميس في الليل. هاي هي حالة المعدان، يقطعون القصب إلى جواميسهم حتى تأكلها».

عرفت بأنه عندما ترعى الجواميس فإنها تقتات على النباتات المائية وعلى القصب والبردي وعلى لسان الثور والسجال وغيرها من أنواع النباتات المائية وأنواع من الحشائش التي تنمو في الأراضي الواطئة الممتدة على حافة مجرى الماء.



وجدت ثمانية عشر داراً في قرية بومفيفات في مكان مجتمع ومنابت القصب تزدحم عليها. نزلنا من المشحوف على ساحل كبير جداً ومنحدر، أسود اللون، دخلنا الدار عن طريق حفرة ضيقة ووجدنا فيها عدداً من الأشخاص، وانهمك الجميع في إعداد الغرفة بوضع الفرش على الأرض وجلب المخدات. ثم قال صحين مضيفنا: «مرحباً يا صدام، مرحباً يا صاحب» ثم تقدم الجميع للسلام علينا ومصافحتنا. فرأيتهم لا يختلفون عن المعدان الآخرين يرتدون الدشداشات البيضاء أو الغامقة. أما الأطفال فكانوا يرتدون الملابس الزاهية. وأما داخل الغرفة فهو لا يختلف في شيء عن الغرفة التي كنت فيها يوم أمس مع فارق واحد مهمّ أوضح لي صدام مغزاه.

كان المدخل على الجدار الشمالي يدلّ على أن البيت (ربعه). وهو مكان قسم منه للسكن وقسمه الآخر للضيافة.



صحين ـ مختار من عشيرة الفغريجات
من بومفيفات

بوسع الشخص الغريب حينما يكون بين المعدان أن يتوقف في أي مكان يشاء حتى يتناول الطعام مجاناً كما هو الحال حينما يكون بين العشائر الأخرى ويقضي ليلته ولا يردّ أحد طلبه.

أما إذا كان هناك مضيف فإنه يذهب إليه، ما لم يكن له صديق في القرية، وفي القرية ليس فيها مضيف فمن المتوقع أن يذهب الغريب إلى (الربعة).

وبإمكان كل شخص أن يحوّل بيته إلى (ربعه) أو يبني مضيفاً حقيقة. ولكن، لكي يفعل ذلك عليه أن يلجأ إلى السيّد لكي يبارك له عمله هذا وإلاّ سيلاقي ما لا يسرّه ويرضيه. فقيل لي فيما بعد بأن أحد الشباب كان قد ادخّر شيئاً من المال في البصرة ثم عاد إلى قريته الواقعة على البر الرئيسي فبنى له مضيفاً، ولما مات والده خلال سنة من بنائه المضيف ثم ماتت زوجته لم يستغرب القرويون ذلك فقالوا «ما كان أبوه في يوم من الأيام يملك مضيفاً ولا حتى ربعة، لو يريد يبني مضيف أو ربعه، لازم يروح للسيّد حتى يبارك له وإلاّ فإن هذا العمل ينقلب عليه ويصير شؤم».

علّقت على كرم العرب، فقال لنا صحين بأنه قبل عدة سنوات، زار ثلاثة أشخاص من المعدان من قرية القبور مدينة البصرة وهي لا تبعد عنها كثيراً. كانوا شباباً يا فعين، أصحّاء، لم يتسن لأي فرد منهم الخروج من

الأهوار والإبتعاد عنها. ولما وصلوا البصرة شعروا بالجوع والتعب فأخذوا يبحثون عن مضيف حتى يتناولوا الطعام لأنهم لا يعرفون أحداً في المدينة. احتاروا في أمرهم وأعياهم التعب فأوجسوا خيفة. وبينما هم في هذه الحالة إذ بشخص مرح، له كرش كبير، يخرج من بيت يقع على الطريق وقال لهم: «مرحباً! ألف مرحباً، تفضلوا».

ثم مشى أمامهم وقادهم إلى غرفة واسعة وجدوا فيها عدداً كبيراً من الناس وهم يجلسون على الكراسي ويتناولون الطعام على منضدة صغيرة. ولما جلسوا قال لهم «تفضلوا. اعتبروا أنفسكم في بيتكم. شتريدون أكل حتى أجيبلكم؟. تريدون شوربه، خضراوات، سمك، لحم غنم، حلويات؟. تشربون شربت؟. بس انطقوا وأنا أجيب كل شيء اللي تريدوه. أهلاً وسهلاً ـ أهلاً وسهلاً».

ظن الصبية الثلاثة بأن هذه الطريقة تصرف غريب من نوعه. فمن سمع بأن مضيفاً يسأل ضيوفه عما يريدونه. وعلى كل حال، إنه صادق جداً ولا يتصرف مثله إلاّ الناس المتمدنون فقط.



فقالوا له «نريد كل ما ذكرته لنا».

«زين. راح أجيب لكم شوربه وسمك وخضراوات ودجاج. ما تريدون شيء آخر؟. وبعدين أجيب حلويات وشربت حتى تشربون ـ إسمحوا لي لحظة من فضلكم».

والتفت أحد الصبية نحو الآخر وأخذ يحاوره فقال له «والله. هذوله ولد المدينة ناس طيبين. وين نشوف مثل هل الكرم في الأهوار؟. أشجان أبّهاتنا يقصدون لما يحذرونا من ولد المدن ويقولون بأنهم ناس زينين».

عاد مضيّفهم وهو يحمل صحوناً كثيرة من الطعام بحيث غطيت المنضدة ثم جلب لهم الماء ليغسلوا أيديهم، لكنهم رفضوا بأن يصب الماء على أيديهم ثم قال لهم:

«كلوا. خذوا راحتكم. كأنكم في بيوتكم». فبدأوا يأكلون بنهم لأنهم لا يتذوقوا مثل هذا الطعام من قبل. ثم جاء مرة أخرى وقال لهم: «أجيب لكم مرق ودجاج؟».

«نشكرك. نشكرك». ثم تحدثوا فيما بينهم وقالوا بعد أن جلب لهم الطعام:

«شلون رجال هذا!» ولما أكلوا وشبعوا قالوا له بأننا اكتفينا الآن ثم بدأوا يغسلون أيديهم، ولما انتهوا جلب لهم الشاي والقهوة. ولما انتهوا من هذا نهضوا وهمّوا بالخروج وهم يقولون لصاحب الدار:

«جزاك الله خير». إلاّ أن صاحب الدار صاح بهم قائلاً:

«هاي وين. أوكفوا. انتظروا شويه. الله يجازيكم بالفعل!. وين فلوسي؟. أعطوني دينارين. حسابي وياكم دينارين».

«شتكول!. تطلب منا فلوس؟. هذا مضيفك. نحن كنا عابرين وأنت اللي صحت علينا ولحّيت علينا بالدخول».

«كلاب! أعطوني فلوسي، معيديه، كلاب، حرامية! أبقوا راح أخبر الشرطة».

وفي النهاية. أُجبروا على دفع دينار ونصف، ولم يبق لديهم أية نقود ثمناً لأجرة الحافلة لذلك يجب أن يعودوا إلى القرنة مشياً على الأقدام.

«نحن المعدان» قال أحد المستمعين إلى حديث صحين «إش لازم نعرف عن المدنية؟».

قال صحين: «زرت البصرة، الناس في كل مكان، السيارات، ألوف الناس، كل واحد ملتصق وراء الآخر».

«صحيح لا يوجد مضيف؟. كيف يعيش الغرباء؟».

«أنت تدفع عن كل شيء. مثل ما تفعل لما تجلس في المقهى في البحر».

وفي هذا الوقت قدموا لنا الشاي، ودخل عدد آخر من القرويين في الغرفة وأصبح الطرف البعيد مكتظاً بالجالسين. أما الطرف الآخر من الغرفة فهو للنساء، يطبخن فيه ويقمن بالأعمال البيتية. وجّه صدام كلامه إلى صحين وقال له: «يجب أن تساهم قرية بومفيفات بحمل قاربين من القصب لبناء مضيف الشيخ مجيد الجديد».

وسبّب هذا الكلام في حدوث صخب فارتفعت أصوات الحاضرين وهم يحتجون حول المساهمين في جلب القصب كما كان الفتيان أيضاً يحدثون الصخب كالكبار، فتدخل صدام بلطف وهو يعبث بحبات مسبحته الكهرمان فقال: «وأريدها بعد غد» وأدّى هذا الطلب إلى حدوث مشادة كلامية بين الحاضرين ثم خفتت الأصوات بوصول طعام الغداء المتكون من ماعونين كبيرين من الأرز ودجاجتين.

بومفيفات قرية من قرى عشيرة الفريجات، وصحين هو رئيس فخذ الناس من هذه العشيرة التي تسكن هنا. وهذا مركز يتوارثونه، عمره أربعون سنة تقريباً، يتميز بمظهر خارجي ذي نفوذ، هادىء، وهو أصغر سناً من معظم الأشخاص الآخرين لكنه ذو بنية قوية، وكان الشخص الوحيد الذي لم يبتهج خلال الجدال والنقاش الذي جرى قبل وصول الطعام. له لحية صغيرة على ذقنه وشارب قصير اعتيادي، وأخوه حافظ الذي يبلغ من العمر (١٨) سنة هو الذي جلب الطعام مع صبيين آخرين.

وفي السنة الماضية، بينما كان حافظ يحرس محصول الشلب، سمع صوتاً ظن أنه صوت خنزير، فأطلق النار ثم توجه ليستجلي الأمر فرأى أنه قد أصاب امرأة في رأسها. وهذه المرأة من إحدى القرى القريبة ومن عشيرة الفريجات.

وافق أهل هذه المرأة في النهاية على قبول الدّية. وعرفت الآن أنهم يحسمون مثل هذه القضية بالنساء. فالثمن بين عشيرة الفريجات هو ست فتيات على أن تكون الأولى منهن حسبما هو معروف غجرية وعذراء وفي سن الزواج يعني بين عمر (١٤ ـ ١٦) سنة. والأخريات يعرفن باسم (طلاوي).

والغجرية يجب أن تكون من أسرة القاتل أو من أقرب أقربائه إن لم يكن للقاتل أخت أو بنت ملائمة لسن الزواج فتتزوج أخا القتيل أو ابن عمه.

وبإمكان العائلة المفجوعة بفقيدها أن تختار العدد الذي تريده من (الطلاوي) أو تختار المال بدلاً من ذلك. والمال هذا مقدّر بخمسين ديناراً عن كل من الفتاة الأولى والثانية و(٢٠) ديناراً عن كل فتاة من الفتيات الثلاثة. ويؤمن فخذ العشيرة الذي ينتمي إليها القاتل المال أو النساء. وعندما أبديت رأياً قلت فيه بأن ست نساء مقابل حياة شخص واحد هو ثمن غير متناسب. قال صدام:

«التعويض بين عشيرة البومحمد لشخص واحد من أسرة الشيخ هو (٥٠) إمرأة مع نفي القاتل لمدة سبع سنوات».

ويسمي العرب الدم المأخوذ عن الدم بالفصل، غير أن التعويض أفضل تسمية.

لا تؤثر درجة الذنب أو الجرم على مبلغ الفصل، فقد سمعت أنهم طلبوا مالاً عن مقتل شخص مضى على قتله عشرون عاماً من بعد حادثة جُرح فيها ودفع له المال. ويرفض أقارب القتيل بالتأكيد تقريباً قبول المال، ويطلبون في هذه الحالة الدم مقابل الدم. والفصل على درجات مختلفة بالنسبة للضرر الناجم. فالعين تعادل نصف الحياة والسن يعادل امرأة واحدة وهلم جرا. ويتم الدفع عن كل الأصابع إلاّ، لبعض الأسباب. عن الإصبع الوسطى. فيتم الدفع على شكل صفقة على الوجه علناً. وحتى أن

صدام قال لي بأنه إذا ما قتل شخص ما كلب آخر عمداً فإنه يجب أن يدفع ثمن الدم ويمكن تسويتها بثلاث نساء فقط.

انتباني شعور حب الاستطلاع عن أصل عشيرة البومحمد. فأوضح لي صدام كيف أن شخصاً من عشيرة زبيد عزة المسمى (محمد) قتل ابن عمه قبل أربعة عشر جيلاً وأخذ إبنته المسماة (باشا) معه وبدأ يبحث له عن ملجأ حتى يلتجىء إليه.

لجأ إلى عشيرة الفريجات وعاش معهم مدة (١٥) سنة ثم وقع في غرام فتاة اسمها (مهينة) ابنة شيخ الفريجات الجميلة.

وأخيراً وافق الشيخ بأن يزوج إبنته له على شرط أن يسمح له محمد بأن يتزوج (باشا). فوافق محمد على هذا الشرط. غير أنه في ليلة الزفاف استبدل الشيخ ابنته القبيحة المنظر والمسماة (كوشه) بابنته الجميلة (مهينه). وبدأت جماعة الزفّة تغنّي وترقص كما هي العادة الجارية حتى أوصلوا الفتاة إلى بيت محمد الذي تسلمها منهم. وعندما رفع الحجاب عن وجهها اكتشف الخدعة. وبدلاً من أن يطلقها رضي بها كزوجة له وقال «الحمد لله. هاي هي البنت اللّي هي من نصيبي». ولدت له كوشه ولدين سعد وعبود. ومنهما انحدر الفخذان من عشيرة البومحمد الكبيرة، وهما العمّله والبوعبود. وأضاف صدام قائلاً: «**نحن عشيرة البومحمد نقول في صيحة المعركة [أنا أخو الباشا]**».

وهذه العادة كغيرها من العادات الأخرى العديدة ولدت بشكل واضح مع البدو في الجزيرة العربية حينما يصيح الرجل صيحة المعركة فيذكر إسم أخته أو إسم جمله المفضل. وقبل أن نغادر المكان، دخل الغرفة سيّد. وهو رجل متوسط العمر، على ذقنه قش إذ كان يقطع الحشيش علفاً لحيواناته، يرتدي دشداشة عتيقة وممزقة. نهض الجميع حينما دخل تقدمت جماعة صدام التي معه في المشحوف لتقبل يديه. هنالك عدد لا يحصى



عائلة من الفريجات من قرية بومفيفات

من السادة في القسم الجنوبي من العراق كما هو الأمر في معظم أقطار العالم العربي، وهنالك عدد من القرى في الأهوار تفتخر بسبب وجود أسر كثير تنحدر من سلالة النبي محمد ﷺ.

مكثت مدة بين عشيرة الفرطوس مع أسرة تسمى بالسادة. وقد أخبرني عدد من الناس في القرية قائلين «هذولاك موسادة أبداً. نحن نعرف منين أجو. قبل أيام صبغ العجوز كوفية بلون أخضر». وعلى الرغم من ذلك فإنهم ينادونهم بكلمة (مولانا) وهي الصيغة المستعملة عند مخاطبة السيّد. ومن المحتمل أن لا يسأل أي أحد، بعد بضع سنوات، عن ادعاء هذه الأسرة بأنها سادة.

كان بيت صحين مشيداً فوق جزيرة قد تكون طبيعية أو مكاناً لقرى قديمة العهد. ولكن لاحظت حينما غادرناه من أنه مؤلف من طبقات متتالية من التراب والقصب المتفسخ.



وجدتها، في الحقيقة، أوصفة متقنة الصنع من أشجار الأسل من النوع نفسه وهي التي كونت أساس بيت الزائر في قرية قباب.

وتتلخص طريقة تشييد البيت في القيام بإحاطة المنطقة المائية بقدر ما يكفي لبناء البيت والساحة مع السياج أولاً بحاجز من القصب يبلغ ارتفاعه مقدار (٢٠) قدماً.

والخطوة الثانية هي عبارة عن تكديس القصب الموجود داخل السياج وتوضع فوق هذه الأكوام. ثم يكوّم المعدان أشجار الأسل بكثرة فوقها ثم يدوسونها بأقدامهم بأكثر ما يمكن من الشدة.

وعندما يتأكدون من متانة الأساس، يبدأون عندئذٍ ببناء الدار ويسحبون القصب حتى تشكل أقواساً فردية داخل الأرض قبل أن يحاولوا ربطها سوية على شكل حزمة.

فإذا طفح الماء على أرضية الدار، لكونها قد غاصت، أو لأن مستوى الماء قد ارتفع، فما على صاحب الدار إلاّ أن يضع مقداراً من القصب المقطوع حديثاً على الأرضية. وتسمى مثل هذه الأرض (كباشه).

وللحصول على أرض تدوم طويلاً يغطي المعدان الأسس بالطين المستخرج من تحت المياه. ويقومون بهذا العمل عندما يكون الماء في أوطأ حده، في فصل الخريف، ثم يستخرجون الطين من المكان الذي لا يكون عميقاً جداً. ويغطون الطين بطبقات كثيرة من الأسل. وبعد هذه العملية تصبح (الكباشه) (دبناً). وإذا لم تشغل الأسرة (الدبن) لأكثر من سنة واحدة فإنها تصادر وبإمكان كل فرد استخدامها.

وتشكّل هذه الطبقات المتعاقبة من القصب والطين بمرور السنين جزيرة مثل تلك الجزيرة التي نرى فيها بيت صحين شامخاً.

وعند عودتنا إلى قرية قباب، طار عدد من البط البري من بين صفوف القصب القريبة منا. ومن سوء الحظ، ما كنت أتوقع أن أصيد إذ كانت بندقيتي فارغة من العتاد. ويظهر أن صدام قد أصيب بخيبة أمل. ولهذا السبب طلبت بأن أقوم بالبحث عن البط عندما وصلنا إلى مكاننا الذي نقصده في ذلك المساء، فقال صدام: «زين! راح أدز عجرم وياك. هو يعرف وين يروح.... دير بالك من الإنكليزي حتى لا يقلب الزورق الصغير!» ثم صاح عندما بدأنا بالجذف وأخذ يبتعد عنه «هو ما متعود على ركوبها».

هكذا علّق، وأرى أنه لا لزوم لمثل هذا التعليق طالما تبين لعجرم قلة مهارتي، وصادفنا أثناء سيرنا عدداً من المشاحيف وهي عائدة إلى القرية ومحملة بالحشيش: «وين رايحين يا عجرم؟».

«رايحين نصطاد البط».

«جرّبوا حافة البحيرة. تكون البط فيها بكثرة».

وبعد فترة قال عجرم: «هل بندقيتك جاهزة؟ هذا هو المكان اللي نقصده».

وفي الحقيقة وجدنا عدداً كبيراً من البط في المداخل المخيفة وكلها بط وحشي للغاية. سرنا بمحاذاة حافة القصب ببطء كبير، وحالفنا الحظ، وعثرنا على مجموعة من البط البري. أطلقت النار فسقطت بطتان فوق الماء ثم أطلقت الطلقة الثانية فلم أصب شيئاً.

بدأ عجرم يجذف باتجاه مكان سقوط البطتين حتى يلتقطهما من الماء. فقال:

«دير بالك هناك عدد من البط جايات علينا».

وبعد أن هاج البط من صوت الإطلاقات وطار، أخذ عدد منه يحوم فوق رؤوسنا على شكل دائرة فأطلقت النار على إحداها فسقطت على مسافة بعيدة في داخل القصب. وما كان من عجرم إلاّ ونزع ملابسه وألقى بنفسه في الماء ثم اندفع بين القصب يبحث عن البطة. ولم أندهش حينما عاد وهو خالي الوفاض، وكان يخوض في الماء الذي يصل عمقه إلى حد الصدر حينما عاد إلى المشحوف وبدأ يتسلق على ظهره. ولو جرّبت أنا مثل هذا التسلق لانقلب المشحوف بالتأكيد ولكنه قد اعتاد على مثل هذا العمل فلم ينقلب المشحوف بل إنما بالكاد أراه يهتز. ثم ارتدى ثيابه والتقط المجذاف وبدأ يجذف متجهاً صوب مجرى ماء آخر. وفاتني أن أذكر بأنني رأيت جلد جسمه حينما نزع ثيابه أبيض لم تلفحه الشمس كبياض جسمي تقريباً.

صدنا بطتين آخريين قبل عودتنا إلى قرية قباب حيث وجدنا مجموعة صغيرة من الرجال والنساء بانتظارنا خارج المضيف. فشاهدت فتاة ذات بشرة سوداء تحمل على ذراعيها طفلاً غطته بشالها وقال لي صدام:

«هذه الطفلة المسكينة احترقت وأصيبت بحروق. يريدون دواء منك. هل تكدر تساعدهم؟».

كشفت المرأة الغطاء عن الطفل ووضعته أمامي، رأيته طفلاً لا يتجاوز عمره سنة واحدة. وجدت صدره وبطنه وساقه الأيسر وذراعه مغطاة بطبقة من روث الجاموس.

«متى حدث هذا الشيء؟».

«هسه. قبل شويه» قالت الفتاة «كنت أطبخ أسوي العشاء وكان الماء على النار. أنداريت شوية والطفل جر القدر وانچب الماء الحار عليه. صاحب، هذا ابننا الوحيد. الله يحفظك، صاحب. أنقذه. صاحب أنقذه. أنقذه الله يحفظك».

وأخبرني صدام بأن هذه الفتاة قد تزوجت قبل سنة. فرقّ قلبي على حالها لذلك ذهبت وجلبت صندوق الأدوية من المضيف وبدأت أعالج الطفل في العراء حتى أرى الجرح بشكل أفضل.

طلبت من أم الطفل أن تجلس على الأرض وتمسكه. رأيته يئن بصوت خافت. فبدأت أمسح الجرح بعناية فائقة جداً بقدر المستطاع وهو يرفس برجليه ويصرخ بصوت عالٍ. والأب الشاب كان جالساً القرفصاء بجانبي وماسكاً أقدام طفله. كانت حروقه شديدة للغاية، إذ كان الجلد ينسلخ من بعض الأماكن كما وجدت ثبوراً كثيرة في أماكن أخرى.

بدأت أرش الدواء على كل أجزاء الجرح ثم قلت لهما:

«لا تضعوا أي ثوب على هذه الجروح إلى أن تجف تماماً ثم غطوا الجرح بهذا الشاش الطبي». ناولتهم قطعة كبيرة من الشاش وأعطيتهم حبوب أسبيرين قائلاً لهما بأن يذوباها بالماء ويسقيا الطفل منها.

ركبوا مشحوفهم وعادوا إلى بيتهم. ثم طلب مني آخرون بأن أعطيهم الدواء. ورأيت أحدهم مصاباً بجرح عفن في قدمه. ورأيت شخصين آخرين وهما يشكوان من الصداع والآخر يشكو من البواسير. كما طلب مني

البقال الذي كنت قد زرته الدواء لمعالجة عينه التي تدمع. وبقيت على هذه الحالة إلى أن ذهب آخر فرد منهم وحل الظلام تقريباً.

وجدت لحم البط حينما تعشينا لذيذاً جداً. وبعد الانتهاء من تناول العشاء بدأنا نلعب لعبة (المحيبس) إذ انقسمنا إلى مجموعتين، كل مجموعة مؤلفة من خمسة أشخاص.

جلست المجموعة التي معها المحبس في صف واحد وأيديهم تحت العباءة حتى يخفوا هذا المحبس بيد أحدهم، ثم ينهض واحد من المجموعة الثانية ويحاول أن يعثر على الشخص الذي يحمل المحبس وعليه أن يعرف في أية يد هو. فتراه يروح ويغدو على عجل ويمر من أمام كل فرد منهم وهو يصيح بصوت عالٍ «أشوف المحبس بيد فلان بن فلان. أشوف المحبس بيد فلان بن فلان». ويستمر على هذا المنوال وهو يصيح «أنت فلان إفتح إيد اليمين. أنت فلان افتح إيد اليسار. أنت فلان ذب المحبس في يد اليسار». فإن عثر عليها، تبدأ الجماعة الأخرى بإخفاء المحبس وإلاّ تحسب لهم نقطة.

وبما أنني لا أفهم إلا الشيء القليل مما يقولونه لذلك وجدت هذه اللعبة مملة تماماً، غير أن الآخرين يستمتعون بها جداً.

وكنت ألعب لعبة المحيبس في مناسبات كثيرة وفي قرى كثيرة وتنتهي اللعبة تقريباً مثلما تنتهي عندنا حينما نلعب بتراشق التهم وفقدان الصبر.

وأخيراً صرفهم صدام قائلاً لهم ـ وهو محق في قوله ـ هذا الشخص الإنكليزي تعبان ويريد أن ينام. روحوا إلى بيوتكم.



٨ ـ عبور الأهوار الوسطية

في اليوم التالي، بدأنا أنا وصدام بعبور الأهوار، كما وعدني، قاصدين نهر الفرات. الوقت لا يزال مبكراً، فأمضينا ساعة والشمس لم ترتفع كثيراً. رأينا صفاً من المشاحيف التي يقودها الرجال الذين يتركون لجلب الحشيش، ورأيناهم قد وضعوا رماح صيد السمك مطروحة في مقدمة المشاحيف.



كنت أنا وصدام في مشحوف واحد، وصحين في مشحوف آخر. وفي كل مشحوف ثلاثة جذافين كلهم مسلحون بالبنادق. لأنهم لا يتنقلون



مشاحيف من قرية العكار



حياكة الحصران

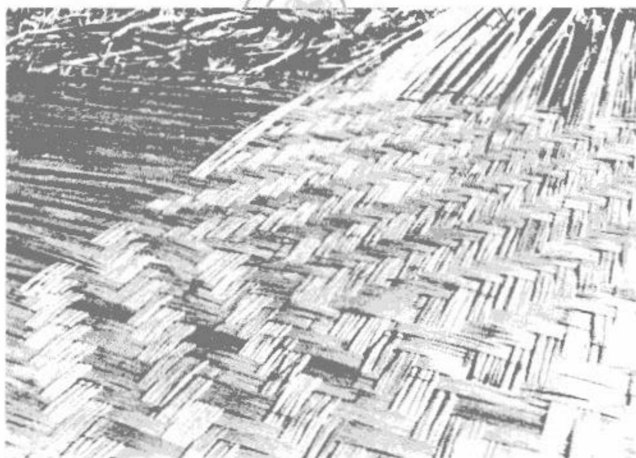
في الأهوار إلا ومعهم السلاح [illegible] وخاصة حينما يمرون من بين أراضي عشيرة أخرى.

ولما وصلنا إلى نهر الفرات تركوني وحيداً وعادوا من حيث أتوا. ولم أجد أحداً يعتني بي وبأشيائي كما لم أجد أحداً يقدمني للآخرين للتعريف وذلك حينما أصل إلى قرية جديدة. وكنت قد حاولت إقناع عجرم بأن يأتي معي ويرافقني كزميل، ووعدته بأننا سنعود إلى قرية قباب بعد ستة أسابيع تقريباً. لكنه رفض دعوتي، وقال لي صدام «يخاف يجي وياك. محمد يجي وياك هسه.... المعدان هم جهلة ويعيشون هنا في الأهوار مثل ما تعيش جواميسهم. يخافون من الحكومة. صادفت شخص إنكليزي وعرفت أنهم أناس طيبون. لكن المعدان هم قوم شكوكين من كل الغرباء، لعل السبب يعتقد عجرم أنك ستأخذه وتجنده في الجيش».

ما كنت أتوقع أن أجد أية صعوبة في العثور على رفيق وبدأت أشعر الآن بخيبة الأمل. رأيت بجانبي صبياً يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، يجذف المشحوف فقال لي: «خذني وياك صاحب. أعطني النقود وخذني وياك. إذا جيت وياك ما راح أتعب نفسي بحصد الحشيش طول النهار داخل مثل هل الماي البارد».

وصاح آخر قائلاً: «لا. لا تأخذه معك. هذا شخص ما به فائدة، كسلان، خذني أنا وياك».

وقال صبي آخر قدّرت عمره بثلاثة عشر سنة، يجذف في الجانب الآخر، أفطس الأنف، فمه واسع، عيونه ضاحكة وجسمه هزيل: «إثنينكم ما تنفعون شيء وما بيكم خير. خذني أنا معك. أقدر أغني وأقدر أرقص. راح أسلّيك».



حصيرة من القصب محاكة من شرائح من سيقان القصب



مقدم الزورق

ثم التفت صدام نحوي وقال: «تره كلهم يمزحون» ثم وجه كلامه إلى الصغير وقال «داوم يا حلو وغني».



«ما أعرف أشلون أغني يا صدام».

«داوم غني يا حلو، أطربنا حتى نصل إلى منابت القصب».

وصاح صحين أيضاً من مشحوفه قائلاً «غني يا حلو».

وقال صدام بأن لهذا الصبي صوتاً عذباً وحلواً. «إسم على مسمى تماماً».

ابتسم الصبي بوجهنا ابتسامة عريضة وراقه هذا المديح ثم بدأ يغني بصوت عالٍ «**العرب كالوا لي عنك أنك من الأول ظالم**». كان صوته رخيماً جداً وذا إيقاع جيد ونغمة حزينة. وشرح لي صدام هذه الأغنية وقال بسرعة أيضاً أظن بأن هذه الأبيات إنما نُظمت حول شيء لم يقطن وراء نهر دجلة. نظمتها زوجته لأنه عاملها معاملة قاسية ثم طلقها. وأحسب أنه كان يظن من أنني أفترض بأن الأغنية تعنيه هو ـ وهي بالفعل موجهة إليه.

ويدوم مثل هذا الغناء في الأهوار ويبقى شائعاً طوال ستة أشهر أو طوال سنة بأكملها. ثم يغنون أغنية أخرى بعدما يملون سماع الأغنية الأولى. وتسمع بنفس الوقت أغاني كثيرة رائجة في ذلك الوقت. وربما هذا هو الشيء المفضل لديهم والسهل.

سمعت هذه الأغنية طوال السنتين التاليتين في كل مكان. في حفلات الأعراس، في أمسيات الرقص المرتجلة مثلما أسمعها الآن وهم يغنونها وهم سائرون نحو منابت القصب.

«داوم يا حلو. غني أغنية أخرى». ويغني حلو أغنية أخرى استجابة لطلبهم. لم نكن لوحدنا في هذا المكان بل إنما كان هناك عدد من المشاحيف تنتظر حتى نلحق بها. فرأيت ما بين (١٢ ـ ١٥) مشحوفاً يمر الواحد بعد الآخر وهم يدفعوها بجانبنا في هذا الطريق المائي.

رأيت صبيّين يجذفان في مؤخرة المشحوف أولاً ثم لاحظت بعدئذٍ من أن المعدان يفعلون هذا الشيء حينما يكونون بمفردهم في المشحوف. وكلما توقف حلو عن الغناء تعلو الأصوات من كل مكان صائحة «داوم يا حلو، غني بعد».



الخروج إلى جمع العلف صباحاً

ورأيت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الأربع عشرة سنة وهي جالسة بمفردها في أحد المشاحيف، واضعة عباءتها السوداء على رأسها وعلى أكتافها. ولما دفع أحد الصبيان مقدمة مشحوفها بعيداً عنه بيديه موجهاً المشحوف نحو القصب، التفتت إليه بغضب وصاحت بوجهه وعنّفته. ولم أستطع سماع ما كانت تقوله غير أنني لاحظت الآخرين يضحكون ويحثون الفتاة بأن لا تتوقف بدون لزوم.

وفي مشحوف آخر، كانت فتاة أخرى صغيرة تجذف مع أخيها في مشحوف صغير، تجلس بجانبه كما يجب أن تقوم به النساء على الدوام، فسألت عما إذا كانت النساء تساعد في قطع الحشيش. فأجابني صدام قائلاً: «نعم، فقط لما تكون الأسرة في عوز للأيدي العاملة».



العودة عند المساء مع جلب العلف إلى الجواميس

وأخيراً، اتجهت المشاحيف الواحدة وراء الأخرى إلى داخل القصب، ونادي حلو وهو يمزح حينما غادرنا قائلاً: «ما تريد أجي وياك يا صاحب؟».

تمتد أمامنا مياه شاسعة، مقدارها ميلان تقريباً، ورأيت سطح الماء يتحرك بفعل نسيم الصباح، وهو بلون قاتم إلا أنه يلمع ويبدو أزرق اللون.

قال لي صدام بأن المعدان يسمون هذا (دماً). ويطلقون على كل قطعة مكشوفة من المياه اسماً خاصاً بها حتى وإن لم تكن أكبر من بركة كما يطلقون على كل مجرى ماء أو على كل قطعة من منابت القصب اسماً خاصاً أيضاً. ولكن، معلوماتهم ومعرفتهم محدودة بالنسبة إلى ما يجاور بيوتهم.

ثم سأل صدام قائلاً «حول البحيرة أو عبر البحيرة؟» فأجاب صحين بعد مراقبة البحيرة والسماء لفترة وجيزة ثم قال «عبر البحيرة. راح نسير مع الريح. وكل شيء على ما يرام». والآن رأيت ثلاثة نسور تحوم فوق رؤوسنا في السماء الصافية. ورأيت عدداً كبيراً من البط وهو يطير حولنا على مسافة بعيدة، في الطرف البعيد من البحيرة، بعضها كان يحوم دائرياً وعلى ارتفاع شاهق، فميزت الطيور التي اقتربت منا وعرفت أنها بط نهري صغير وكبير، لونه أزرق مائل إلى الخضرة، يغوص حيناً في الماء وأحياناً في تشكيل متقارب فوق رؤوس أغصان القصب، ورأيت باطن أجنحتها بيضاء حينما استدارت كلها بحركة واحدة، فعجبت من الذي هيجها ونغَّص عليها حياتها.



عائلة من المعدان في طريقها إلى السوق



خروج المعدان لصيد السمك بالرماح



رأيت مشحوفين على بعد قريبين من القصب. وسألت عما إذا كانا يطلقان النار على تلك الطيور أم لا؟ فأجابني صحين بعد أن نظر نظرة خاطفة نحوهما وقال «لا، هذوله يسممون السمك، هذوله من قرية القبور، القرية اللي راح نأكل فيها طعام الغداء. أجذف بقوة نريد نعبر قبل ما يشتد الريح». كنا في منتصف المسافة حينما نادى قائلاً «هيئوا بنادقكم صاحب». ثم أشار إلى يسارنا فرأيت مجموعة كبيرة من الطيور المائية وهي متقاربة من بعضها البعض.

وبينما أنا أراقب إذا بنسر يطير فوقها بانخفاض ثم ينقضّ عليها. ولكن هذه الطيور المائية طردته. وذلك بضرب أجنحتها على سطح الماء فتطاير الرذاذ من الأمواج المتكسرة. ثم بدأت الريح تزداد قوة. ولما استدرنا نحو هذه الطيور المائية، بدأ الماء يطفح من على جوانب المشحوف. وأما النسر فإنه انقضّ مرتين أو ثلاثاً قبل أن نصل إلى مدى

رمي هذه الطيور بحيث لم تعر أية أهمية لقدومنا حتى بعدما أصبحنا على بعد (٤٠) ياردأ منها.

أطلقت النار من كلتا السبطانتين مرة واحدة فتفرقت هذه الطيور ثم طارت باتجاه الريح تاركة وراءها خطأ من الأجساد السوداء طافية فوق سطح الماء.

وبينما كنا نلتقط الطيور المقتولة كان الآخرون يصطادون الطيور المشلولة عن الحركة والتي كانت تغطس في الماء حينما كان المشحوف يقترب منها.

كان صحين الذي يجلس في مقدمة المشحوف يجمع هذه الطيور المشلولة عن الحركة الواحدة بعد الأخرى بواسطة رمح صيد السمك. فيمسك الطير حالما يطفو على سطح الماء حينما يكون قريباً منه ويرمي الرمح على مثل تلك الطيور البعيدة عنه.

وعندما يلتقط الطير يقوم أحد الرجال بحز عنقه وهو متجه نحو القبلة ويقول: «بسم الله والله أكبر». وبذكر هذا الاسم عند الذبح يصبح أكله حلالاً من الناحية الشرعية من قبل المسلمين وبخلاف ذلك يُعتبر، حتى عند المعدان أنفسهم، جيفة ولا يصح أكله فيرمونه. ومن الناحية الشرعية، يجب أن تكون الطيور كلها حيّة حينما يحزون عنقها حتى تنزف منها الدماء. ولكن رأيتهم لا يدققون كفاية في مثل هذه الأمور.

سأل أحدهم وهو يصيد الطير ورأسه غاطس داخل الماء لمدة عشر دقائق.

«هذا ميت لولا؟».

«لا. بالطبع موش ميت. داوم. أسرع وأقطع رقبته».

فالميتة والدم ولحم الخنزير كلها محرمة لدى جميع المسلمين، كما

أن هناك محرمات كثيرة تختلف من مكان لآخر ومن عشيرة إلى أخرى. فمثلاً. لا يأكل بعض المسلمين الطيور التي لها أقدام على شكل شبكة. وفي العراق لا يأكل الشيعة الأرانب البرية بينما يأكلها السنّة. ويأكل المعدان الغاق والزقّة (نوع من الطيور المائية) ولكن لا يأكلون البجع وأبو منجل ومالك الحزين والكركي ولكن ليس اللقلق، ويأكلون الغطاس إلا الصغير منه، ولا يأكلون أيضاً سمك السلّور. وعندما جمعنا جميع الطيور المائية التي اصطدناها، إلتفت صدام إلى الجذافين وقال لهم بأن يسرعوا لأن في مشحوفنا ماء وشخصين وصناديق.

شكرت الله عندما وصلنا إلى ملجأ في منابت القصب.

التحق بنا في هذا المكان صحين وهو على مشحوفه ثم بدأنا نعدّ ما صدناه. وجدت عندنا (١٨) طيراً. فقال صدام بعد إن إقتنع ورضي عن هذا الصيد: «راح يكون غدانا دسم هل التمن».

وصلنا قرية القبور بعد فترة من الزمن، وجدنا الضباب الرمادي اللون ينتشر في السماء، وسمعنا صفير الرياح بين القصب ثم انقلب الجو إلى بارد مزعج.

وهذه القرية تشبه قرية قباب. وهي بنفس الحجم تقريباً. فذهبنا إلى أحد البيوت الكبيرة.

كان مدخل البيت ضيقاً، في قمة منحدرة، أسود اللون، ملوثاً بالشحم، يعلو مقدار خمسة أقدام. أما في الداخل، فوجدنا صبيين يتدفّئان حول موقد صغير. فقال صدام لهما: «أبوكم موجود في البيت؟».

أجاب الأكبر «نعم. بس هسه راح إلى الدكان». ثم إلتفت نحو أخيه وقال له «اركض بسرعة وقل لعلوان بأنه عندنا ضيوف».

وفي هذا الوقت، كنت أشعر بالبرد الشديد على الرغم من أنني كنت أرتدي السترة والقميص والبلوز وبنطلون فانيلة رمادية اللون فجلست بجانب

النار وأحسست بشيء من السرور.

وإبن علوان هذا صبي، طويل القامة، نحيف الجسم، عمره ستّ عشرة سنة، يرتدي دشداشة قطنية مهلهلة فقط.

ذهب إلى الطرف الآخر من البيت وجلب معه بعض الفرش والمخدات التي ناولته إيّاها إحدى الفتيات. وقال صدام لي: «خلّيني أجيب أمتعتك».

«لا، راح نروح إلى أبو شجر بعد الأكل».

«هذا غير ممكن، إبق هنا هذه الليلة، الجو مو زين ما يصلح للسفر. وعلى كل حال، فات وقت طويل من يوم اللي شرفتنا».

بعث صدام أحد رجاله فجلب (١٢) طيراً من التي اصطدناها وناولها إلى الصبي حتى يُعدّ الغداء منها.

كان علوان نفسه رجلاً متوسط العمر ومن الأصدقاء، وصل بعد فترة وجيزة جداً وألحّ أيضاً بأن نأتي بأمتعتنا ونمضي الليل هنا، غير أن صدام أصرّ بضرورة مواصلة السفر، وسأل «المعدان بعدهم ساكنين في أبو شجر؟».

«نعم» أجاب علوان. «الفيضان تأخر هذه السنة ولم يرحلوا بعد».

ثم أتى بمستلزمات الشاي وهو يقول «اصطدتم كثيراً من الطيور».

وعندما أخبره صحين عن النسر قال: «أحد النسور سوّت عش من القصب هل السنة. كان يهاجم كل شخص يروح ويجي في مجرى الماي. الفتيان يروحون هناك لقطع الحشيش، شعلوا فد يوم النار في القصب واحترق العش. ولعل السبب أن النسر كان يحوم هناك».

وأثناء حديثه كان يعبث بأصابعه بمسبحة طويلة فيها (٩٩) حبة، صغيرة، لونها أسود.

يسبّح بهذه المسبحة حينما يؤدي الطقوس الدينية، بينما كانت مسبحة صدام من نوع الكهرمان، فيها (٣٣) حبة، يستعملها للتسلية، يعبث بأصابعه بحباتها لتمضية الوقت.

يحمل معظم الناس مثل هذه المسابح في جيوبهم ثم يخرجونها حينما يجلسون للراحة ويعبثون بحباتها للتسلية.

ولما رآني صدام أنظر إلى المسابح ألقى مسبحته إليّ حتى أجرّب مثلهم. ولما أردت أن أعيدها له قال: «لا. إحتفظ بها. فهي لك. عندي الكثير منها في قرية قباب». واعتدت على استعمال المسبحة منذ ذلك الوقت.

وفي هذه الأثناء جيء بالغداء فأكلنا (٩) طيور وأعتقد أن لحمها لذيذ. طعمه كلحم الأوز، ولكن، وربما شعرت بذلك لأنني كنت أشعر بالبرد والجوع.

كان صدام وصحين يناولاني دائما قطعاً من اللحم على الرغم من اعتراضي وعدم قبولي. أما الأرز فقد صبّوا فوقه المرق حتى تشبّع ثم أضافوا شيئاً من الزبدة عليه أيضاً وبدأنا نأكل.

وجدتهم يأكلون الطعام بأيديهم وقد اعتادوا على ذلك. أما أنا فوجدت من الصعب تناول طعامي بأصابعي. ولما انتهينا وجب تنظيف الأرز المنتشر على المائدة، فبدأ علوان يجمع الأرز المتبقي مع عظام الطيور في صحن واحد ثم يضعها أمام أولاده بعد أن جلب أحدهم قطعة من الزبدة ووضعها فوق الأرز.

بدأنا بشرب الشاي، ولما اكتفينا توجهنا نحو مشاحيفنا بعد أن ودعنا علوان ولم نشكره على وجبة الطعام التي قدمها لنا، وربما لا يفعلون مثل هذا الشيء. انطلقنا في سيرنا على طول ممر طويل يمكن تمييزه من خلال تمايل أغصان القصب بسبب هبوب الريح وكانت عناقيد رؤوس القصب

الباهتة اللون تموج كالعلم في يوم ذات ريح عاصف وسماء غائمة.

غنى أحد أتباع صدام العاملين في المشحوف بتشجيع منه أغنية ريفية. كان صوته قوياً وأجشاً وكانت أوتار حنجرته تبرز ووجهه يحتقن.

كانت الأغنية ذات مقطع طويل بحيث تبعث على السأم والملل وليس لها وزن. ولكي أقدّر هذه الأغنية مثلما يقدرها الآخرون عليّ أن أفهم معنى كلمات الأغنية. غير أنني وجدتها فوق طاقتي. وبعد مضي ساعة ونصف من الوقت وصلنا إلى قرية أبو شجر. وجدت القرية عبارة عن جزيرة ذات تربة سوداء وجرداء، تمتد على مسافة (٣٠٠) ياردا، وارتفاع أعلى نقطة فيها عن سطح الماء هو بمقدار (١٠) أقدام. وساحلها محاط بمنابت القصب. فيها (٣٠ ـ ٤٠) بيتاً، متقاربة من بعضها البعض بشكل غير منتظم وعلى امتداد حافة المياه.

تقف الجواميس أينما تجد لها فسحة مناسبة. والبيوت محاطة بسواقي متعاقبة حتى تمنع الجواميس من حك أجسامها على جدران البيت، والأهالي هنا هم شغانبا Shaghanba، وتوصلنا إلى تحديد البيت الذي يبدو أكثر ثراءً حتى نقترب منه. ولما اقتربنا منه خرج رجل وصبي ورحّبا بنا ثم ساعدانا على نقل أمتعتي إلى الساحل لأن رفيقيّ لم يجلبا معهما أي شيء سوى البندقية. وأدخلنا معنا أيضاً المرادي والمجاذيف، لأنه إذا ما تُركت، تبقى عرضة للسرقة من قبل المارين من هناك.

والمرادي هي عبارة عن سيقان القصب، لكنها من النوع الجيد ولا يمكن العثور على هذا النوع بسهولة.

أما المجاذيف فهي معمولة من ألواح خشبية على شكل مجرفة، تثبّت بمسامير حتى يبلغ طولها بقدر طول الخزيران، ومن النادر إمكان استبدالها محلياً.

وكالعادة، تقاطر الرجال إلى هذا البيت فازدحم بهم. وبدأ مضيفنا

يوجه بعض الأسئلة والآخرون جالسون لا ينبسون ببنت شفة، لكنهم كانوا يراقبونني بحذر وعيونهم مركزة نحوي. فعرفت أنهم قد أوجسوا مني خيفة، لأنهم كانوا يكثرون السؤال فيقولون: «منو هل الشخص؟ ومنين جاي؟. لوين جاي عندنا، لويش جابه صدام إلى قريتنا؟». وإنني على يقين من أن القوم كانوا يتحدثون عني كثيراً حينما أخذني صدام ومضيّفي في الوقت المناسب لأتجول حول الجزيرة.



عشيرة آل عيسى تحتفل بمناسبة عيد الفطر

وجدت التربة مليئة بالأملاح لذلك لا ينبت أي شيء فيها. لم أجد أية صخرة أو حجارة وفعلاً لم أجد أي شيء من هذا القبيل في الأهوار.

تبدّي لي أن قرية «أبو شجر» كانت موقعاً لمدينة ماضية عفا عليها الدهر وبَنيتُ تخميني على وجود الطابوق وقطع الفخار المتواجدة على الأرض. وقال صدام:

«يكولون، أكو ذهب مدفون بهل الجزيرة، المعدان يفتشون عنها.

باوع شوف وين حفروا؟» وأشار بيده إلى عدد صغير من الحفر الضحلة ثم أضاف قائلاً «بس ماكو أي شيء». قاطعه مضيفنا فقال: «في السنة الماضية، كانت عائلة من الشغانبا تحفر عدداً من الحفر لبناء بيتها في قرية العكار وعثروا على جرتين مملوءتين بعملة معدنية».

وسألت عن مكان قرية العكار فقال لي:

«هناك إلى الغرب. وهي جزيرة مثل جزيرتنا هذه. يسكن فيها كثير من الشغانبا».

«ماذا فعلتم بالعملة المعدنية؟».

«لا أدري. أظن أنهم أخفوها حتى لا يأخذها الشيوخ منهم».

ثم تكلم صدام وقال: «قبل عدة سنوات، عندما كنت أبني مضيفي في قباب عثرنا على تمثال حجري ـ هيكل امرأة. يمكنك ترى ثدييها، وكان التمثال بهذا الطول» وأشار بيديه مباعداً الواحدة عن الأخرى مقدار (٩) عقدة.

«هل التمثال لا يزال عندك؟».

«لا، أخذه الشيخ مجيد».

وأما أنا فلم أحاول طوال مدة بقائي في الأهوار، إن أبدأ بجمع أشياء تخص الفن المعماري ولكن أعطوني في إحدى المرات ختماً يعود إلى عهد الحيثيين، وفي مرة أخرى، أعطوني جزءاً من قطعة كبيرة نوعاً ما من الرصاص مغطاة بخدوش بحيث تبيّن أنها شخوص فينيقية. وقال لي الشخص الذي أعطاني إيّاها، إنها كانت جزءاً من بكرة كبيرة أذابوها حتى يصفوا منها رصاص البندقية.

وفي مناسبة ثالثة، أخذوني في غاية السريّة إلى أحد الدور وأروني تمثالاً صغيراً على شكل قلب، وفي أسفلها العبارة التالية «مصنوع في اليابان».

بدأت الشمس تميل نحو المغيب، وأخذت حدة الرياح تهدأ، وأصبح منظر القصب اللامتناهي منظراً يقبض النفس في ذلك الضياء الرمادي اللون. وظهرت في أماكن عديدة شمال المكان وشرقه سحب كثيفة من الدخان حيث أشعل المعدان القصب حتى يؤمنوا لهم مراعي جديدة ينمو فيها القصب لترعى فيها جواميسهم.

«هل سمعت في يوم ما عن الحفيض؟» سألني مضيفي.

«نعم، ولكن زدني بما عندك عنها».

ثم إتجه نحو الجنوب الغربي وقال «حفيض هي جزيرة تقع في مكان ما هناك. فيها قصور مشيدة، وأشجار نخيل وبستان رمان. والجواميس هي أكبر من جواميسنا، ولكن لا يعرف أحد أين هي بالضبط».



«ما شافها أحد من الناس؟».

«شافوها، لكن، كل من يشوف حفيض يصاب بسحر وتصبح أقواله غير مفهومة عند الناس. والعباس، أقسم أنه صحيح. واحد من عشيرة الفرطوس شافها قبل سنوات لمّا كنت طفلاً. كان يبحث عن جاموس مفقود، ولما عاد إلينا كان كلامه كلّه غير مترابط وعرفنا عند ذاك من أنه شاف حفيض».

فقال صدام: «صيهود، الشيخ العظيم من عشيرة البومحمد بحث عن حفيض ومعه أسطول من المشاحيف وذلك في العهد التركي، لكنه، لم يعثر على شيء. ويقولون بأن الجن تتمكن من إخفاء الجزيرة عن أنظار كل شخص يقترب منها».

أبديت بعض التعليقات، وأظهرت فيها شكوكي، غير أن صدام قال وهو يؤكد ما يقول «لا، صاحب. حفيض موجود تماماً. سل كل من تريد أن تسأله. سل الشيوخ أو الحكومة، تجد كل فرد يعرف عن الحفيض».

عدنا إلى القرية ونحن نمشي على امتداد حافة المياه فوق أصداف هشة بيضاء مغروسة كأنها زولية يبلغ طول كل واحدة منها مقدار نصف عقدة إلى عقدة واحدة. ونظرت في بعضها فوجدتها فارغة. ولا أدري ما إذا كانت تعود إلى عقدة واحدة. ونظرت في بعضها فوجدتها فارغة. ولا أدري ما إذا كانت تعود إلى مواقع نهرية، فإن كانت كذلك فإنها تحمل معها في فصل الصيف ذي الطقس الحار الطفيليات التي تسبب مرض البلهارزيا. وتعيش هذه الديدان المسطحة والصغيرة جداً في المياه خلال الطقس الحار. فإذا سنحت لها الفرصة فإنها تخترق جلد البشر وتأخذ طريقها إلى المثانة حيث تتضاعف هناك وتسبب فقدان الدم وألماً شديداً على الغالب.

وبالأخير تخرج البيوض من الجسم عن طريق البول وهي على أتم استعداد لبدء الدورة الجديدة في الحياة. والبلهارزيا وباء الأهوار، يعاني منها جميع المعدان كنتيجة حتمية لطريقة عيشهم.

شاهدت عدداً من الفتيات يذهبن لجلب المياه، يحملن الجرار فوق رؤوسهن. فكنّ يخضن في الماء ويسرن بضع خطوات قبل أن يملأن جرارهن.

يستعمل المعدان الساحل الأمامي كمرحاض عام. ولا بدّ أن تحتوي كل جرّة على عينات من الجراثم المحلية. ونظرياً، يجب أن يصاب كل شخص في الأهوار بعدوى الديزانطريا وبعدد آخر من الأمراض المستوطنة. ولكن، في الحقيقة، اكتسب معظم المعدان شيئاً من المناعة. وعلى أية حال، ربما تقتل الشمس المحرقة عدداً من الجراثيم. وأنا شخصياً وجدت أنه ليس بالأمر العملي أخذ الاحتياطات ما عدا تجنب خوض المياه القريبة من القرى في وقت الصيف.

أكلت من طعامهم، وشربت من المياه نفسها، وكثيراً ما كنت أمكث

طوال السنة هناك وأصبت مرة بالجيوب الأنفية ومرة أخرى بالديزانطريا الخفيف وشفيت منها بعد أربعة أيام. وبخلاف ذلك، لم أعانِ من أي مرض ما عدا الصداع.

لا فائدة من أن أقلق نفسي بالأمراض التي قد تصيبني، ولكن، أحياناً من الصعب جداً أن يشعر المرء بالوساوس حول الطعام والماء.

ولقد أقلقني حدثان بصورة خاصة. كلاهما في وسط فصل الصيف عندما كنت أتنقل على ظهر الحصان بين الفلاحين في شمال الأهوار.

الحدث الأول: كنت أسلك ساقية ماء ضحلة تمتد مسافة عدة أميال باتجاه القرية التي كنت أقصدها، وكانت الساقية تحتوي على المياه بعمق قدم أو قدمين وهي تجري بشكل بطيء بالاتجاه الذي أسير فيه. وصادفت خلال مسيري كلباً ميتاً مرمياً في الساقية، وبعد مسير مسافة أخرى وجدت عجل جاموس ميتاً. ورأيت الجلد قد انسلخ من الأضلاع، والروائح تنبعث من كليهما بشكل مزعج جداً، والمياه تكون قذرة يالقرب من القرية حيث تجد حافة الساقية مليئة بالقاذورات، لأن العرب دائماً يتغوطون بالقرب من المياه حتى يستجمروا من بعد قضاء حاجتهم. وكان المضيف يقع على حافة الساقية والمياه هناك تكون دوماً راكدة تقريباً وفوقها طبقة من مادة لزجة خضراء. وأعتقد أنهم لا يشربون مثل تلك المياه.

وصلت القرية عند منتصف النهار الفائض، فجيء لي بالماء لأشربه من كوز يقع في نهاية المضيف فوجدته بارداً جداً وحديث العهد، ولما علم الناس بوجودي تقاطروا إلى المضيف. ووجدت بعضهم يحب المخالطة والبعض الآخر يريد الدواء والعلاج.

وبعد الترحيب الاعتيادي، خرجت قاصداً ظل البناء حيث بدأت هناك عملي فحقنت الإبر ووزعت الأدوية.

كان هناك النسيم خفيفاً، ولكن الطقس لا يزال حاراً لا يُحتمل حيث

ترتفع الحرارة في الصيف في هذه السهول إلى (١٢٠) فهرنهايت في الظل، وفي هذا الوقت شعرت بالعطش، لذلك، أعطيت القدح إلى أحد الصبية ليجلب لي الماء.

أسرع هذا الطفل إلى الساقية ليملأ القدح منها فصرخت به ونهرته قائلاً:

«لا. ليس من هذا المكان. الماء قذر هنا بل من الكوز في المضيف حيث الماء نقي».

إمتثل الصبي للأمر وجلب لي الماء ونظر إليّ نظرة استغراب.

وبعدئذٍ، لاحظت أنهم يملأون الكوز من هذه الساقية. ففكرت وأنا في غاية الكآبة كيف أنني وافقت على البقاء ليلة أخرى في هذه القرية.

والحدث الثاني: كنت أمكث مع أحد الشيوخ وهو من أصدقائي. وكنت قد وصلت إلى قريته قبل ليلة وخصص جمع حاشد من المرضى في الصباح الباكر، وكان الجو رطباً يشعر فيه المرء بالدبق، والهواء ساكن، وكان العرق يتصبب من وجهي وكل جسمي حتى عندما كنت جالساً من غير عمل.



زيما

كان صديقي الشيخ كبير السن وكريماً للغاية. ذبح شاة حتى يطعم ضيوفه الذين بلغوا الآن ما يزيد على المئة شخص.

دخل أربعة رجال إلى المضيف وهم يترنحون في سيرهم. كان أحدهم عبداً أسود

اللون، ذا جسم ضخم، وكلهم قد أحنوا ظهورهم من نقل ما يحملونه.

رأيتهم يحملون صينية كبيرة، نحاسية، قطرها أربعة أقدام، عليها كومة من الأرز كالتل وفوقها شاة مسلوقة، يتدلى اللسان منها، والعينان مشبعتان بالماء. وكان العرق يتصبب من أنوفهم وأفواههم فوق الأرز عندما كانوا يحملون الصينية. عرفت أنهم كانوا ينقلون الطعام من مسافة (١٠٠) يارد أو أكثر وهم على هذه الحالة، وبعد أن سكبوا قدحاً من الزبد فوق الأرز إلتفت الشيخ نحونا وقال: «أهلاً وسهلاً بضيوفي. اليوم يوم بركة».

ولما جلست أمام الصينية قال لي: «الآن يا صاحب. إذا تحبني كثير لازم تأكل كثير!».



٩ ـ في قلب الأهوار

عدنا إلى بيت مضيّفنا أنا وصدام بعد مغيب الشمس بقليل. وجدنا صحين يؤدي صلاة المغرب. والشيء الذي لاحظته هو أن الذين يصلّون بانتظام بين المعدان بعض المسنين ويطلق عليهم إسم الزائر. ووجدت عدداً قليلاً من المعدان مثل صحين من يصلي صلاة الفجر والمغرب غير أن الأكثرية من الرجال لا يصلون مطلقاً.

ولاحظت أيضاً أنهم يضعون أمامهم حين إقامة الصلاة قطعة مستطيلة الشكل من تربة مقدسة يأتون بها من كربلاء حتى تلامس جباههم عند



حصران للتصدير بين عشيرة بني أسد

السجود. ووجدتهم يحتفظون دوماً بمثل هذه التربة في سلة صغيرة معلقة على الحائط.

بعد أن انتهى صحين من أداء صلاته، أعاد التربة إلى السلة ثم أشعل النار من الروث اليابس وطلب مني أن أقترب منها لأتدفأ.

جلب أحد الصبية فانوساً وهو عبارة عن قنينة نصف ملآنة بالنفط الأبيض وفي داخلها فتيلة، أو قطعة من القماش الممزق، تبرز من عنق القنينة ومثبتة بواسطة قطعة من التمر.

كنت أسمع وأنا في مكاني صوت رجلين يتحدثان فيما بينهما في بيت مجاور وكنت أسمع بوضوح كل كلمة يقولانها لأن الجدار الذي يفصل البيتين قطعة من الحصير ولا تبعد عن جدار البيت الآخر أكثر من قدمين.

وجدت أنّ السرّية معدومة بين هؤلاء القوم في حياتهم، ولا يتوقعون أبداً السرّية لدى غيرهم. وهم يعتبرون أنّ ما يهمّ أحدهم إنما يهم جميعهم. فإذا كانت العائلة الواحدة تتشاجر فيما بينها، ترى الجيران يهرعون بسرعة ويتدخلون منحازين إلى الطرفين وبعملهم هذا يحولون الضجيج والصياح إلى ضجيج فعلي.

لاحظت أن الطريقة الوحيدة لإجراء حديث خاص هو الابتعاد بالمشحوف مع الشخص الذي تريد التحدث معه. وحتى في مثل هذه الحالة، سرعان ما يصبح الحديث معروفاً بشكل عام، لأنهم جميعاً يتصفون بحب الفضول ولا يتحملون حفظ السر.

وبعد العشاء، بدأ الناس يتوافدون إلى المضيف حتى اكتظت بهم الغرفة ولم يبق أي مجال يتسع للآخرين. ولكن، حتى في مثل هذه الحالة، يفسح الجالسون في المجال إذا ما دخل رجال آخرون إلى المضيف فيجدون لهم المكان المناسب بين هذا الحشد الكبير.



دكان في دلتا نهر الكحلا

ترى الجدران المصنوعة من الحصران ناتئة قليلاً وهذا من شأنه أن يفسح في المجال لجلوس الآخرين. وهنالك فسحة متروكة فقط بالقرب من الموقد.

بدأ مضيفنا بتوزيع السيكاير على الجالسين ووجدته يعطي السيكاره حتى إلى الطفل الصغير بينهما كان صاحبنا الجذاف يغني والآخرون يصغون إليه ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم أحياناً. ثم بدأوا بتوزيع الشاي، وبتأجيج النار بصب النفط فوقها وبدأ الدخان يتصاعد إلى عنان المضيف وينجرف إزاء الحصران في السقف. كل شيء بدائي ومزعج، لكنني كنت أشعر بالارتياح والرضا.

وبعد أن نهض الجميع ليغادروا المضيف، حشرت نفسي في الزاوية وكان النعاس يداعب جفوني، لكن الرجال تجمهروا خارج المضيف مروا بإمرأة كانت جالسة بالقرب من جمرة نار آخذة بالخمود وهي تُرضع طفلها.

جلب مضيّفنا الفرش من الطرف الآخر من الغرفة ثم قمنا بترتيب الحصران وفرشنا الزوالي الممزقة على الأرض ثم سحبت البطانية من الخرج واضطجع كل منا في مكانه لننام والتصق بعضنا ببعض بينما جلس مضيفنا بجانبنا ليحرسنا.

سقطت قطعة صلبة من الطين بجانبي، وحاول البعوض أن يجد له مكاناً على وجهي، ودخلت براغيث عديدة داخل قميصي.

نبحت الكلاب، وتحركت الجواميس عن بعد بضع ياردات من رأسي ثم أخذتني سنة من النوم ولم أستيقظ إلى أن نهض رفاقي وقت الفجر.

سكن الريح خلال الليل وأصبح النهار صافياً ومشمساً في ذلك الصباح. وبدأت الجواميس تغادر إلى مراعيها دون أن يرعاها أحد.

وإذا قارنا بين المعدان المستوطنين والبدو نجد المعدان لا يخصصون لقطعانهم بل يتركونها لوحدها طليقة، تروح وتغدو حسبما تشاء.

وفي داخل الغرفة، كان صدام وصحين يتجادلان حول طريق السفر. وينصبُّ جدالهم على وجوب التوجه إلى (زكرى) أو تجنبه. والحث عليهم بوجوب الذهاب إلى (زكرى) حيث كنت أرغب أن أزورها. فقال صدام: «لن تحصل على أمنيتك إذا صادفتنا الرياح هناك. هذه البحيرات الكبيرة هي خطرة جداً. ففي العام الماضي، بينما كانت جماعة العرس عائدة إلى قرية القبور، باغتتها الزوبعة عند مكان يسمى الدما. فغرق في هذا المكان زورقان مع ثمانية أشخاص. وأنا شاهدت الدما. إنها صغيرة لا تشبه زكري».

واشترك صحين بالحديث فقال: «نعم. صاحب. هي خطرة جداً. نحن نسكن هنا ونعرف كل شيء. وقبل أربع سنوات، وفي هذا الوقت من السنة، غرق شخصان أما الثالث فقد زحف نحو جزيرة صغيرة من القصب عائمة. بقي عليها مدة خمسة أيام قبل أن يعثروا عليه. وشاهد مرتين الزوارق وهي تمخر في عباب الماء، لكنهم ما كانوا يسمعون صوته. كاد يموت من الجوع ومن البرد».



رجل من عشيرة البو دارج

وبعد أن تناولنا الفطور، راقبنا مضيفنا وإبنه فرآنا نحمل أمتعتنا إلى المشحوف ولم ينهضا من مكانهما لإبداء المساعدة.

وعلقت على هذا العمل فيما بعد لأنني حسبته عملاً غير مناسب. غير أن صدام قال بأنّ المضيف يساعد دوماً الضيوف ويحمل أمتعتهم ويدخلها إلى البيت ولكن لا يساعدهم عند إخراجها حيث تبدو كأنما نسرّع في التخلص منه. وقال: «سنتوجه إلى زكري طالما تريد أن تراها. وسوف نمضي الليل مع بني عمير في الرملة. ولكن إذا ازداد هبوب الرياح شدة فإننا سوف نسلك الطريق الأطول».

وبعد مسيرة ساعتين وصلنا البحيرة بعد أن سرنا على امتداد قنوات صغيرة عديدة غير واضحة المجرى من خلال القصب العالي.

وعندما شاهدت المياه المفتوحة أمامنا وهي تلمع تحت أشعة الشمس

الوهاجة أثبطت همتي أولاً لأن البحيرة بدت لعيني بأنها ليست أكبر من (الدما) والتي عبرناها قبل يوم.

وشاهدت خلف المياه المفتوحة جداراً من القصب. وأدركت ونحن في منتصف الطريق بأن القصب ينمو فوق عدة جزر صغيرة عائمة والكثير منها على مسافة غير بعيدة عنا.

ووراء هذه الحافة من الجزر تقع بحيرة زكري نفسها. ولم أستطع وأنا واقف على لوح المشحوف أن أقدّر بعدها عنّا ولست أدري هل أنها على بعد ثلاثة أميال أم ستة أميال.

كان النسيم يهب خفيفاً جداً وتوقف الجذافون عن الجذف، ويبدو أنهم كانوا قلقين. وأما أنا فقد تضايقت لأنني لا أدرك مقدار خدعة ذلك الهدوء.

وبعد أربع سنوات، وحينما كان الفيضان في أقصى ذروته، صادف أن كنت أعبر مسافة كبيرة من مياه الفيضان عرضها (١٢) ميلاً وعمقها ستة أقدام، تلك المياه التي غطت الصحراء الممتدة على الحافة الغربية من الأهوار.

بدأنا العبور وقت الفجر. كانت البحيرة ساكنة ولا أثر للنسيم. وعند ذاك ركبت الطرادة الخاصة بي. وعندما وصلنا منتصف الطريق عبر العمارة، صاح أحد الجذافين الأربعة فجأة في صوت ديني: «الله! هل تسمع ذلك؟».

أصغيت وسمعت صوت الرياح وهي قادمة نحونا من الشمال عبر المياه التي ما زالت ساكنة.

رأيت أمامي صفاً من أشجار النخيل الباسقة، ربما تبعد عني مقدار ستة أميال. إنها تشير إلى وجود قرية، تلك القرية التي نتجه إليها. أما

وراءنا فكنا لا نزال نرى منابت القصب.

وفي هذه الأثناء صاح أحد الصبية وهو في حالة من الهياج: «أنظروا. هناك قارب شراعي. الحمد لله!. أسرعوا ـ صاحب، أطلق النار حتى ينتبهوا».

وجدت مشحوفنا قد غطس إلى النصف حينما وصل القارب إلى



جلب حمولة من القصب اليابس إلى البيت

المكان الذي نحن فيه. فحمل الرجال الذين معي صناديقي من المشحوف إلى القارب وربطنا مشحوفي الفارغ بالقارب حتى نسحبه إلى أن وصلنا القرية في الوقت المناسب.

شاهدت الأمواج الكبيرة تضرب الساحل وأشجار النخيل قد مالت بسبب الرياح الشديدة.

والآن، بينما كنت أنظر إلى المياه التي ما زالت ساكنة في بحيرة زكري، ألححت على الآخرين بعبور هذه البحيرة. وقال أخيراً صدام: «زين. لكن راح أنروح من حول الحافة. نكدر ندخل داخل القصب إذا بدأت الرياح بالهبوب ولو راح يصير الطريق بعيد لكن أسلم لنا».

كنت أظن بأن زكري هي مثل (دما) لها جوانب محدودة تماماً من منابت القصب القائمة. ولكن لما جذفنا من إحدى المجموعات من الجزر العائمة إلى الأخرى أدركت بأن ما كان يبدو لنا بأنه حدود إنما هو في الحقيقة سلسلة أخرى من الجزر تخفي وراءها مياهاً كثيرة متصلة بجزر أخرى كثيرة.

المياه هي بعمق (٨ ـ ١٠) أقدام، صافية تماماً، تغطي قصرها نباتات مطاطية زاهية فتجعلها تظهر داكنة مثل أعشاب البحر وتتمايل باتجاه التيار.

هذه هي حورية الماء والتي يسميها المعدان بـ (سويكة)، ويقولون بأن مثل هذه الطبقات هي الأماكن المفضلة لتفقيس بيوض السمك.

رأينا مقدار (٢٠) طيراً من طيور البجع، بيضاء، زاهية، نظيفة تحت أشعة الشمس وهي تبتعد عنّا عمداً، وتدير مناقيرها الكبيرة الصفراء عندما كانت تراقبنا. وطلب مني صدام بأن أصيد إحداها طالما يستعمل المعدان جرابها كجلد لطبولهم. غير أنني وجدتها كأنها ساخطة علينا وهذا أمر مثير للضحك لذلك رأيت أن نصرف النظر عنها. وقلت له بأن البط سيخاف من الطلقة لأنني لاحظت عدداً منها قابعاً في الظلام فوق سطح الماء في الخلف.

وفي هذه الأثناء طار مالك الحزين وأحدث ضجيجاً بين القصب البعيد وأخذ يرفرف بأجنحته على شكل ضربات بطيئة ثقيلة وهو يجر ساقيه الطيولتين خلفه.

فقال أحدهم: «لو كنت قد أطلقت النار على ذلك لكنا نأكله جميعنا. له لحم كثير كالشاة وطعمه جيد أيضاً».

كانت النسور تحوم فوقنا وهي لا تحرك أجنحتها. وفي الأهوار تجد دائماً النسور، تحوم في السماء كما تحوم النسور في أفريقيا.

وفي الطرف البعيد من بحيرة زكري، وفي خليج صغير، وصلنا مكاناً وجدنا فيه ثلاثة مشاحيف يجذف كل واحد منه صبي وبالقرب منهم رأينا بوضوح سرباً من السمك الميت يطفو فوق سطح الماء. واقترح أحد رجال صحين أن نلتقطها، غير أن صحين أجابهم بغضب «لا تصيرون أغبياء، ما نعرف هذوله الناس. ما نريد أنزعلهم. خلّي نسألهم. وأنا متأكد راح يعطونا عدد من السمك». فأخبرنا هؤلاء الصبية بأنهم من المرملة وهي واقعة على نهر الفرات وقريبة منّا وأعطونا ست سمكات، تزن الواحدة منها رطلين. ويسمّون هذه الأسماك (بنّي)، لونها ذهبي ولا تشبه الأسماك الأخرى هنا وليس لها مجسّات. والمعدان يسممون السمك في فصل الشتاء وتظهر في المياه قبل دخولها إلى الأهوار وذلك في فصل الربيع. وهم يستعملون نبات الداثورا والتي يشترونها من الحوانيت المحلية ثم يخلطونها بالطحين وفضلات الدجاج على شكل كرات صغيرة أو يدخلونها في الروبيان في المياه العذبة. فالداثورا يخدر السمك فتظهر طافية على سطح المياه فيتم



ابنة شيخ البو محمد

جمعها بسهولة. وكان هؤلاء الصبية يستعملون الروبيان. وعندما سألت صدام عما إذا كان المعدان يصطادون السمك بواسطة الشبكات قال لي: «لا. أبداً. البربر فقط يستعملون الشبكات في الصيد أمّا رجال العشائر فيستعملون الرمح في الصيد».

«من هم البربر؟».

«أفٍ لهم. إنهم مجرد بربر. طبقة واطئة من الناس الذين يصطادون السمك بالشبكات. وهم يعيشون بين القبائل. وهناك الكثير منهم بين البومحمد». وأسمعنا بيتين من الشعر بصدد البربر وهم أمثال الحائكين والباعة المتجولين والحدادين وزراع الخضراوات والصابئة وكلهم خارج نطاق العشائر غير لائقين لينضموا إلى رجال العشائر لأنهم مشغولون بالتجارة. والثراء الذي يأتي عن هذا الطريق ليس له وزن بين المعدان كما ليس له وزن أيضاً بين القبائل العربية والتجارة بنظرهم في الأساس عمل يحتقرونه.



وتتوقف حالة الإنسان كلية على مزاياه وعلى خلقه وفضائله وسلالته.

وبعدما غادرنا بحيرة زكري أصبحنا ثانية بين منابت القصب الكثيفة. وكانت المياه قبل وصولنا إلى الرملة بمسافة طويلة ضحلة، فكنا نلاقي صعوبة في الجذف، وكانت المرادي قابلة للكسر، لأنني حاولت استخدام إحداها لدفع المشحوف فانكسرت عند أول دفعة. ويبدو أن المعدان يتبعون أسلوباً معيناً في دفع المشحوف فتراهم يحنون أجسامهم ويضعون كل ثقلهم عليها حينما يدفعون المشحوف إلى الأمام مقدارقدم واحد في كل مرة.

والمرادي هي عبارة عن عصيّ بطول (٢٥) قدماً وهي من القصب. أي من نفس القصب الذي يستخدمه الشيخ في بناء مضيفه. ويمكن العثور على القصب في بعض الأجزاء من الأهوار فقط. ويحمل المعدان دوماً عدداً قليلاً من المرادي كاحتياط. ولكن بإمكان المرء الاحتفاظ بنفس المرادي لمدة عدة أشهر.

وفي إحدى المرات، خطوت داخل المشحوف دون أن أعلم بوجود المرادي في بطنه فكسرت ثلاثة مرادي منها بدون قصد.

وصلنا الرملة أخيراً فوجدنا أشجار النخيل تنتشر بين البيوت كما وجدنا سهلاً مفتوحاً خلف القرية ورأينا القصب والأعشاب المائية تنمو في أماكن قريبة من القرية والناس يروحون ويغدون في مشاحيفهم في مياه الأهوار.

توقفنا في المضيف. وأخذني مضيفي لنتمشى حول القرية التي كانت محاطة بسواقي عميقة مملوءة بالمياه وعليها قناطر من جذوع النخيل.

مررنا بالدكان الذي كان مخفياً وراء أكوام من الحصران المصنوعة من القصب ثم توقفنا لنراقب إحدى العوائل وهي تصنع الحصران.

رأيت رجلاً عجوزاً جالساً على الأرض وبجانبه كوم من القصب اليابس. وكل قصبة بطول ثمانية أقدام تقريباً وبسمك يساوي طول إصبعي الوسطى. رأيته يقسم هذه القصبة إلى نصفين بسكين مقوسة قبل أن يقذفها إلى إمرأة حتى تدقها بمدقة خشبية لتجعلها ليّنة مطواعة مستخدمة الطرف الثقيل مع قطعتها القصيرة المتعارضة والثقيلة. تدق القصبة مقدار عشرين مرة ثم نضعها جانباً، ثم يقوم صبي بحياكتها بواسطة عظم سمك. والحصران هي بمساحة ٨ × ٤ أقدام تقريباً ثم قال لي مضيفي بأن كل قطعة تأخذ مقدار ساعتين من الوقت ويتقاضى مقدار خمسين فلساً عن كل قطعة حصيرة وهذا يعادل شلناً إنكليزياً.

ثم سرنا عبر أرض منبسطة. والحقيقة، أن الأرض هنا مغطاة بالبردي المتساقط مثل القش من محصول متروك. ويظهر أنها كانت مغمورة بالمياه. وأما الآن فإنها صلبة كالحديد وعليها آثار حوافر الخيل كأنها أشكال قوالب. وفي هذه الأثناء طارت طيور الزرازير محدثة صخباً في الجو ثم استدارت وحطت مرة أخرى. ولما اقتربنا أكثر طارت طيور مالك الحزين

وعدد كثير من البلشون الأبيض (طائر مائي يشبه اللقلق) واندفع كلب باهت اللون وهو ينبح ويثب أثناء عدوه ويرتفع مقدار بضعة أقدام فوق سطح الأرض.

ورأينا من بعيد أشجار النخيل الداكنة مما يشير إلى وجود قرى على امتداد نهر الفرات. وأشار رفيقي إلى رابية صغيرة بعيدة عنا وقال: «كان للأتراك مدفع هناك حينما كانوا يقاتلوننا. رموا قريتنا بوابل من قنابل المدفعية وقتلوا عدداً كبيراً من الناس».

ربما حدث ما قاله رفيقي خلال الحملة التأديبية التي تحركت من البصرة لأن الأتراك كانوا على الدوام يلاقون القلاقل من هذه العشائر.

عدنا إلى المضيف مع غروب الشمس ثم غادر الضيوف بعد فترة وجيزة جداً حيث حسبوا بأنه لا بدّ أننا متعبون من جراء هذه الجولة لذلك آوينا إلى منامنا للراحة.

وبينما نحن في هذه الحالة إذا بصوت امرأة يصل مسامعنا من مكان بعيد في القرية وهي تندب فقيدها الطفل، استمرت على هذه الحال دون توقف ساعات طويلة وهي تعيد وتكرر الكلمات «آه يا وليدي. يا وليدي». كلمات تنم عن الأسى والحزن تخرج في جوف الليل من فم هذه الثكلى التي لا تجد ما يريحها.

وفي اليوم التالي سيتركني رفاقي الذين جاءوا معي إلى هذا المكان وسأبقى وحيداً أدبر أموري بنفسي.

١٠ ـ الخلفية التاريخية للأهوار

ظهر تاريخ البشر في العراق على حافات الأهوار. فلو عدنا إلى الوراء كثيراً، إلى قديم الزمان، إلى عصر الظلمات، لوجدنا الناس الذين تقدموا الآن حضارياً واجتماعياً قد انحدروا من هضبات إيران واستوطنوا في دلتا نهر الفرات، حيث بنوا لهم في الألف الخامس قبل الميلاد بيوتاً من القصب وصنعوا لهم القوارب والرماح وشباك الصيد. عاشوا هناك كما يعيش الناس في الوقت الحاضر، في محيط لم يتغيّر إلاّ قليلاً.

وبعد فترة من الزمن، أي بعد ألف وخمسمائة سنة جاء جنس آخر وحلّ محلهم أو امتصهم الجنس الذي جاء إلى العراق من الأناضول. وجلب هؤلاء الوافدون الجدد معهم الجواميس الأليفة وعلوم الصناعات المعدنية وفن الكتابة. وترك كل جنس في أدوات فخارية مميزة سجلاً عن رحلاتهم.

ثم غمرت مياه الفيضان حوالي سنة (٣٠٠٠) ق.م. سطح الأرض، فبقي عدد قليل من الناس على قيد الحياة.

وأسس السومريون مدنهم على مواقع القرى القديمة المدفونة تحت الطمى وطوروا ما كان يُعرف بحضارة العالم الأولي.

مضت القرون، فظهرت حضارة البابليين، وسقط السومريون. وفي سنة ٧٢٨ ق.م. اكتسح الأشوريون العموريين اكتساحاً رهيباً بمركباتهم التي

تجرها الخيول وأسلحتهم الحديدية ومحوا البابليين من الوجود.

وأنهكت الحروب والانتصارات هؤلاء القوم فتمكن الميديون من التغلب عليهم وإطاحتهم. وفي سنة ٦٠٦ ق.م.، اقتُحمت المدينة الآشورية العظيمة نينوى و(أصبحت قفراء وخرائب ومكاناً تقبع فيه الحيوانات المتوحشة والبهائم).



صبيان من عشيرة ألبو محمد من بعد اجراء عملية الختان

ثم ظهر البابليون مرة أخرى باسم الكلدان، صمدوا في نينوى مقدار سبعين سنة، إلى أن دُمّرت من قبل كورش الذي أحرق جنائن نبوخذ نصر المعلقة.

وغزت أجناس أخرى أيضاً العراق خلال الألفي سنة نفسها. فالكوثيون المتوحشون الخارجون على القانون دمّروا سومر والكاشيين

والحيثيين والذين سلبوا مرة البابليين. وجلب الحيثيون معهم آلهة غريبة من الهند وسكان عيلام.

وبعد أن احتل كورش بابل في سنة ٥٣٩ ق.م. بقي العراق يرزح تحت الحكم الأجنبي، لمدة ألف سنة تقريباً. فتصبح أحياناً كولاية مهمة من الإمبراطورية وأحياناً أخرى كساحة قتال للدول الكبرى المتنافسة.

سار الإيرانيون واليونانيون والسلوقيون والبارتيون والرومان ثم الإيرانيون مرة أخرى بجيوشهم عبر الأرض ينشدون احتلالها أو يغتصبونها من الآخرين.

وعندما اندفع العرب في بداية القرن السابع ميلادي من الصحراء على شكل موجات من الفتوحات واحتلوا العراق أضافوا عندها إسماً آخر إلى قائمة الغرباء المنتصرين.

والباعث لكل هذا هو السلب والنهب، والرابط الذي شدّ القبائل البدوية بعضها ببعض هو الانضواء تحت راية الإسلام، دينهم الجديد.

ولقد رحّب السكان المحليون بالدولة الجديدة أو استقبلوها بدون مبالاة. إلاّ أن الحكومة الجديدة استولت على أراضي الدولة وتركت كل من يعترف بنظامها يتمتع بما في حوزته من الأرض.

ابتعدوا عن التعصب، وعزموا على هدى الناس جميعاً، واعتبر العرب الإسلام كحق مقتصر على جنسهم ولم يسمحوا في البداية لغير العرب بأن يهتدوا للإسلام ما لم يكن ينتسب إلى إحدى العشائر العربية. وكان يُعرف مثل هؤلاء العرب غير الحقيقيين باسم الماولية. وكان غير المسلمين يدفعون الجزية وما كانوا يشجعون على الاهتداء للدين على شكل جماعات كبيرة. وكان العراق لمدة (١١٦) سنة التالية ولاية من ولايات الإمبراطورية العربية. وكانت تحكم أولاً من المدينة المنورة الواقعة في الحجاز ومن ثم من دمشق، ما عدا في حكم الإمام علي، الخليفة الرابع،

لفترة قصيرة في الكوفة. شكل العرب خلال هذه السنوات مجموعة صغيرة من المحاربين قاعدتهم في المدن وأُستخدم معظمهم كجنود أو موظفين حكوميين.

ولكونهم متعجرفين وظلاماً فقد عاملوا السكان المحليين بازدراء وإحتقار. وعندما ولد المذهب الشيعي من بعد مذبحة الحسين في كربلاء في سنة ٦٨١ ميلادي، راق هذا المذهب بشكل خاص للماولية في العراق لأنها تعبّر في نصوصها الدينية عن سخطهم على النظام القائم.

وفي الوقت الذي أسس فيه العباسيون حكمهم في العراق وبنى الخليفة عاصمته الجديدة في بغداد في سنة ٧٥٠ ميلادي، لم تعد امبراطورية مقتصرة على العرب بكل ما في الكلمة من معنى، على الرغم من أن الإمبراطورية هي إمبراطورية إسلامية.

وإنّ حياة البلاط الفخم الذي أحاط هارون الرشيد نفسه بها، وارتداءه الرداء الزاهي، وآداب التشريفات المتقنة، والاحتفالات التي تقام، واستخدام الغلمان المخصيين، وجلادي البلاط كلها لا تشبه تماماً البساطة الواضحة للعيان التي عاش فيها الخلفاء الأوائل في الحجاز.

دام حكم الخلافة العباسية مدة (٥٠٠) سنة، وعرفت الاستقرار في بداية حكمها، ومن ثم إلى حكم سادته الفوضى والتشويش في الأيام التالية. ولقد أعدم هولاكو بعد أن احتل بغداد آخر الخلفاء العباسيين وذلك في سنة ١٢٥٨ ميلادي. وموته أضاف رقماً آخر على (٨٠٠,٠٠٠) شخص ذبحهم المغول حينما اكتسحوا المدينة.

وفي سنة ١٤٠١ ميلادي، أُكتسحت بغداد مرة أخرى. هذه المرة من قبل تيمورلنك، آخر الفاتحين العظام من المغول. وإذا كان عدد المذوبحين هذه المرة أقل من سابقتها فسبب ذلك هو وجود العدد القليل منهم في المدينة.

ثم جاء من بعدهم التركمان، دولة الخروف الأبيض أولاً ثم دولة الخروف الأسود ثم جاء من بعدهم في سنة ١٥٠٩ ميلادي الفرس ثم أعقبهم الأتراك في سنة ١٥٣٤ ميلادي. وبقوا في البلاد إلى أن طردتهم بريطانيا في الحرب العالمية الأولى.

ولكن هبطت مصائر العراق بعدئذٍ إلى الحضيض. ولقد حاول موظفو الأتراك إدخال ما يشبه السلطة على العشائر الصعبة المراس في هذه الولاية المعدمة من الإمبراطورية المتداعية.

وكان العراق طوال آلاف السنين، من عهد السومريين أرضاً ذات مدن مستقرة وذات زراعة راسخة. ولكن الفاتحين اكتسحوا المدن وذبحوا السكان ولكنهم كانوا، حتى مجيء المغول، يجددون دوماً بناء مدنهم ويسهمون في بناء المدينة بأسلوبهم الخاص بهم، تلك المدينة التي كانت قد زالت.



نَوْل للحياكة من الأهوار

وفوق كل ذلك، إنصبّ اهتمامهم كثيراً على شق القنوات التي جعلوا المياه تجري فيها. وجاءت الأقوام الصفراء على ظهور خيولها تحت قيادة زعيمهم جنيكزخان من صحارى آسيا الخارجية وانقضّت على العالم ذبحاً وقتلاً وهي تستمتع بعملها هذا. وترى نصبها عبارة عن أهرام من الجماجم البشرية.

وعندما هبت هذه الزوبعة من الدمار أخيراً نحو العراق قضت على الأعمال المنجزة خلال عدة قرون ودمّرت نظام الري الذي يعتمد عليه رخاء البلد وقضت عليه.

وكان معظم هذا التخريب على شكل متعمد. غير أن هذا الدمار كان ناجماً على أكثر احتمال عن تأثير تراكم الإهمال. وينبغي وجود منظمة وعددها هائل من العمال حتى يقوموا بتنظيف القنوات وتقوية السدود لكي تعود إلى حالتها الأولى. كما ينبغي بناء السدود لتنظيم مياه الفيضانات.

وبعد أن ولّت قبائل المغول، بقي عدد قليل جداً من الناس على قيد الحياة، وكانوا محطمين نفسياً، لا يرجى منهم الخير في إصلاح الضرر. فانقلبت الحقول الصالحة للزراعة إلى صحارى، والمياه الثمينة تبددت في المستنقعات. ولا يزال الناس يزرعون على امتداد سواحل النهر ولكن توقفوا عن تسمية العراق بلداً زراعياً وأصبح بلداً يهتم بتربية المواشي.

والمدن التي كانت من بين المدن العظمى في العالم انحلّت وتفسخت حتى أصبحت على شكل قرى صغيرة.

فالعرب البدو، المتواجدون في الصحراء الكائنة وراء نهر الفرات، اندفعوا إلى البلد وأخذوا يرعون قطعانهم على سفوح الهضاب التي كانت في يوم ما قصوراً للملوك. وبينما استوطن العرب الأصليون نرى هؤلاء المهاجرين الجدد، مع خيامهم السود ومع قطعانهم المؤلفة من الإبل والغنم والماعز تقسّم هذه الأرض إلى أراضي رعي.

ثم حل قانون العشائر المطبق على سكان الخيام محل نظام حكومة تستند على الحياة المدنية. وبموجب هذه الأحوال، يمكن أن نجد الأمان تحت ظل العشائر، وفي النتيجة، ربط المروّعون والفلاحون غير المنظمين أنفسهم بما يريده البدو. وبقبولهم حياتهم الاجتماعية الدنيا نراهم قد اتّبعوا في عاداتهم أساليب وعادات تلك الجماعة القادمة من الصحراء ويحث عن مضاهاة أعمالهم.

وبمرور الزمن، أصبحت التمييزات القديمة غير واضحة، واختلط الجنسان مع بعضها البعض فاستوطنت بعض القبائل في الأرض وتخلت الأخرى عن إبلها وحملت خيامها على ظهور الحمير.

فعرب الصحراء الذين هاجروا إلى العراق هم قلّة مقارنة مع السكان الأصليين.

غير أنّ عاداتهم ومعاييرهم هي التي سادت. وقد يفتخر سكان العراق بادعائهم أنهم من سلالة السومريين أو البابليين ومن الآشوريين الذين اكتسحت جيوشهم مصر ومن الفارسيين الذين جاءوا من بعد كورش أو قاتلوا تحت لواء داريوس أو أكسركس Xerxes أو من الپارتيين الذين محوا جيش روما.

وبدلاً من ذلك، نراهم يتفاخرون بأنهم من أصل البدو.

والإسكندر هو الآخر مرّ من هذا الطريق وإسمه السحري لا يزال يتردد في جبال ووديان آسيا الوسطى حيث يقسم الرجال بأنهم ينحدرون من جنوده.

أما في العراق فقد أصبح الإسكندر على كل حال منسياً.

وعندما سمعت رجلاً عجوزاً يحكي الحكايات الأسطورية وهو قابع حول النار، عن الشجاعة والكرم فلم يكن ذلك القول بالتأكيد عن

الإسكندر ذي القرنين ولا عن الخلفاء الذين حكموا، بروعة، في بغداد لكنه كان يعني بقوله الرعاة ذوي الثياب الممزقة في صحاري الجزيرة العربية.

فعرب الصحراء هم أناس خلقوا على الدوام لشظف العيش وقسوته. والراحة بالنسبة لهم لا معنى لها بل إنما هنالك على الدوام إنهاك وتعب من جراء المسيرات الطويلة وكد وجهد عظيمان للوصول إلى آبار المياه. وهم يتفاخرون على الدوام ويقولون «نحن بدو» وينشدون الحرية التي هي حريتهم. يتحلون بالجلد والصبر العظيمين ويتحملون الألم وهم شجعان.

يعيش البدو على شن الغزوات وعلى صدها والتي تجري وفق قواعد موضوعة وبروح الفروسية عادة. ويتباهون بشراسة عند الخطر والمعاناة ولا ينكر أحَدٌ بتفوقهم على أبناء القرى والمدن.

وهم يسمون أنفسهم بالأصيليين، ويستعملون كلمة الأصيل عند وصف أصل دمهم. وهم ينحدرون في الحقيقة من أنقى جنس في العالم، وهم طوال قرون عديدة يتزاوجون بحيث يتزوج ابن العم بنت عمه وهذه هي عادتهم. وبعملهم هذا أنقذوا أنفسهم من الانحلال مما يحيطهم، حيث يبقى الأفضل على قيد الحياة وما سواهم يتم اقتلاعهم من جذورهم بدون رحمة.

وهم يعتادون منذ الطفولة على معاناة الجوع على الدوام. وفعلاً يموتون من الجوع إذا انقطع المطر عن الهطول. وهذا ما يحدث على الغالب.

وهم يدخلون في حساباتهم العطش كقلق اعتيادي من الإزعاجات اليومية. وأحياناً، تكون حساباتهم، على أية حال، مغلوطة فيموتون عند ذاك متحملين الحر الشديد الذي يلفح وجوههم وأجسادهم كأنه تيار هوائي يخرج من باب الفرن طوال أشهر الصيف الطويلة. ثم يلي ذلك وقت يلاقي



سيد شاب من بعد عملية الختان

فيه الرعاة وقتاً مقيتاً ومروعاً ويقاسون الأمرين في فصل الشتاء لأن الرياح القارصة تهب عبر الرمال الجرداء والأمطار الغزيرة تبلل ثيابهم وملابسهم حتى الجلد. ويقضون ليالي الشتاء الطويلة وهم يرقدون على الأرض وقد لفّوا فرشهم على أجسادهم ويستيقظون من نومهم وهم جامدون لا يستطيعون الحراك.

أما طعامهم هو عبارة عن حليب الإبل صباحاً ومساءً إذا أسعفهم الحظ وتيسر الحليب. وهم يعيشون دوماً في قلق، يتوقعون دوماً حدوث الغزو. كما يتوقعون الخوف من الحزازات والعداوة ومن الموت المفاجىء.

ومثل هذه الحياة، حياة البداوة، أتاحت لهم بأن يمتلكوا الشيء القليل لأن كل شيء غير ضروري هو بمثابة عائق لهم. وكل ما يملكونه هو عبارة عن الملابس التي يرتدونها وأسلحة وسروج وعدد قليل من القدور وقرب الماء والخيام المصنوعة من شعر الماعز. وهذه المواد مع الحيوانات التي تنظّم كل التنقلات هي التي في سبيلها يتحملون كل الصعاب ببهجة وفرح. فالتكبّر والفردية والمباهاة كلها أمور تحول دون قبولهم عن رغبة أن يسود عليهم أي فرد. وهم يفضلون الموت على أن

يصيبهم العيب. إنهم أناس ديموقراطيون جداً، ومع ذلك نجدهم يتمنون جداً النسب. وكانوا طوال عدة قرون يصونون نقاوة دمهم بالخنجر. وتراهم يحترمون شيوخهم غاية الاحترام بسبب أصلهم ولكنهم لا يحترمونهم إذا لم يكونوا أصيلين. فالشيخ هو الشخص الأول بين الأشخاص الذين يساوونه في المقام. وهو لا يملك الخدم بل إنما يستخدم أتباعه لتنفيذ رغباته أو لتنفيذ الأحكام التي يصدرها.

يتبعه رجال قبيلته ويطيعونه ما دام ينال احترامهم ويحكمهم فقط ما داموا يطيعونه. فإذا أساء إليهم فإنهم يتبعون غيره من أفراد أسرته. وتبقى خيمته التي يستقبل فيها الضيوف خالية من الأشخاص.

وهم يعيشون مزدحمين سوية في الصحراء المفتوحة والتي يكون الاختفاء فيها أمراً غير ممكن.

وهم يلاحظون كل عمل ويسترقون السمع لكل كلمة، والقال والقيل متأصلة فيهم ويعرفون كل شيء عن الأحداث التي مضت وولت. وتراهم دوماً يرددون السؤال «شنو الأخبار؟» بعد التحايا.

إذا أبلى أحد الأشخاص بلاءً حسناً، يقوم أتباعه بنشر مآثره في طول المخيم وعرضه وهم على ظهور الإبل، يصيحون بأعلى صوت «الله يبيض وجه فلان بن فلان!» وإذا أخزى أحد الأشخاص نفسه من جراء عمل مشين فيدفعونه إلى الأمام وهم يصيحون بأعلى صوتهم «الله يسود وجه فلان بن فلان!» ويصبح عند ذلك شخصاً منبوذاً.

والبدو تواقون إلى التصفيق ويبذلون كل الجهود في سبيل الحصول على التصفيق ولذلك ترى بأن جميع أعمالهم على شكل مسرحية.

وهم على الرغم من أنهم يغارون من الآخرين إلاّ أنهم مخلصون جداً لأتباعهم من رجال القبائل، وإن خيانة الرفيق تعتبر إثماً شديداً جداً أكثر من إثم القتل بالنسبة للناس الذين يستخفّون بحياة البشر الذين ساعدوهم في

تسوية عداوة الدم حينما يطعن بالمدية راعي غنم أعزل.

ولكن، في الوقت الذي لا يبالون فيه بما يصيبهم ويصيب الآخرين من عذاب وآلام فإنهم ليسوا عديمي الشفقه عن عمد أبداً.

من السهل مَسُّ شرفهم بسوء، غير أنهم يردون على الإساءة بسرعة سواءً أكانت حقيقية أو وهمية. وهم يتصفون بروح المرح والخلو من الهموم. وهناك سجايا عكس هذا الشيء. فهم ثرثارون بالطبيعة، حريصون دائماً على عزتهم وكرامتهم. وبإمكانهم الجلوس ساكتين، لا ينبسون ببنت شفه، لمدة ساعة في المناسبات الرسمية، لا يبالون بالجمال الطبيعي، يحبون الشعر كثيراً.

وهم على الغالب كرماء جداً أكثر من اللزوم، وبإمكانهم إعطاء ثوبهم الوحيد إلى أي فرد يطلبه منهم.

ضيافاتهم أسطورية - لا يبالي الرجل بذبح أثمن ما لديه من الإبل في سبيل إطعام الغريب الذي يحل في خيمته عن طريق الصدفة. ولكنهم جشعون في الواقع، يحبون المال حباً جماً.

والبدو متدينون جداً، ويرون فضل الله عليهم في كل مكان، وإن إنكار وجود الباري وسبّه أمر لا يمكن تصديقه. ومع ذلك، فإنهم بطبيعة الحال غير متعصبين ولا متشائمين ولا ذلولين.

يكافحون في الحياة القاسية مهما كانت شديدة وموجعة ثم يرضون بمصيرهم بنفس عزيزة وكبرياء شديد لأنهم يحسبونها من مشيئة الله.

والأهوار نفسها، مع ما فيها من عوائق محيرة من منابت القصب بحيث يتمكن الإنسان أن يتنقل فيها بالقارب فقط فإنها ستكون حتماً ملاذاً لبقية الناس الهاربين، وتصبح مركزاً يتجمع فيه، منذ قديم الزمان، العصاة والمتمردون. فالملك سرجون، ملك الآشوريين العظيم كان قد اندحر إزاء

الكلدانيين الذين عاشوا هناك.

وبعد عشر سنوات، ومن بعد إخضاع مصر والتغلب على الإسرائيليين، عاد ليربح المعركة في الأهوار في سنة ٧١٠ ق.م. تقريباً، وسطّر انتصاراته على طنوف قصره في خرسباد. وقام بأعمال انتقامية فظيعة ونقل أخيراً الكلدانيين إلى سوريا واستبدلهم بالحيثيين الأسرى من أماكنهم في الجبال الشمالية. وبعد ستة عشر قرناً من الزمن أصبحت الأهوار معقلاً للزنوج الذين هددت ثورتهم الخلافة العباسية القائمة حقيقة. ولقد استخدموا عدداً لا يحصى من العبيد، معظمهم من السلالات الإفريقية لتصريف مياه الأهوار المحيطة بالبصرة.

ولما كانوا قد عوملوا معاملة فظة لا يصح ذكرها، لذلك ثاروا وقتلوا حراسهم وأدخلوا الرعب في قلوب الناس الساكنين بجوارهم.

وكان لا بدّ أن يتم قمعهم بسفك دمائهم لو لم يجدوا لهم قائداً شهيراً، ماهراً. وبقيادة علي بن محمد، الإيراني، سادوا في الحكم مدة أربع عشرة سنة، من سنة ٨٦٩ ميلادي إلى سنة ٨٨٤ ميلادي وكانوا يدحرون الجيوش الواحدة بعد الأخرى التي كان الخليفة يرسلها لقمعهم.

انقضّوا على البصرة ونهبوها واستولوا على الأهواز الواقعة في الجنوب الغربي من إيران.

نهبوا المدن الواقعة إلى مسافة (٢٠) ميلاً عن بغداد نفسها. ولكن، في النهاية أصبحت الخلافات كبيرة جداً، ورفض علي بن محمد الاستسلام واندحر جيشه في الأخير وقُتل ثم حمل المنتصرون رأسه إلى بغداد.

وبحلول القرن السابع عشر بدأت أنماط القبائل في الأهوار وحولها تأخذ شكلها الحالي. ونشأت هناك المنتفك، ذلك الاتحاد العشائري العظيم الذي هيمن على منطقة الفرات الأسفل مدة تزيد على (٣٠٠) سنة وذلك حينما أصبح أحد اللاجئين من مكة المكرمة حكماً لفض النزاع وقُتل

كمكافأة له. وهربت عشيرة بني مالك الذي عرّف نفسه بأنه منها إلى داخل الصحراء واصطحبت معها ولده الطفل. فنما وترعرع الطفل فتمكن بعد أن اشتد عوده من قيادتهم فعادوا إلى الفرات لكي يدحروا أعداءهم. ولما انتشر صيته ونفوذه، اعترفت العشائر الأخرى بزعامته. وكان بعضها من البدو الأرستقراطيين من الصحراء وبعضها الآخر من الرعاة من سلالة مجهولة. وتحتقر عشائر كثيرة المعدان، وأصبحت المنتفك في أقصى قوتها دولة مستقلة فعلاً قادرة على مقاتلة الحكومة التركية وفق شروط متساوية.

وفي مكان آخر إلى الأسفل من نهر الفرات، رسّخت عشيرة بني أسد نفسها في موطنها الحالي حول الكبيش. وسَبَّبَ هؤلاء القلاقل للأتراك في أوج قوتهم.

وفي نفس الفترة استوطنت عشيرة بني عمير في غرب القرنة وكانت عشيرة بني كعب مهيمنة من قبل في القسم الشرقي من الأهوار.

وعلى نهر دجلة، رسّخ محمد وولده اللذان يشكل كل واحد منهما نصف عشيرة الفريجات حكمهم على خليط من العشائر التي تسمي نفسها الآن بإسم البومحمد. وإلى الشمال بمسافة أكثر، أسس أحد أحفاد (لام) عشيرة بني لام أو أولاد لام، وهي عشيرة تربي المواشي وتزاول الرعي. وهي عشيرة قوية جداً يبلغ تعدادها الآن مقدار (١٠٠,٠٠٠) نسمة.

ولقد بقيت دمار أجناس كثيرة ممن احتل العراق لآلاف السنين حيّة بسبب كون الأهوار أماكن نائية. ولكن، كانت قوانين عرب الصحراء المثالية التي سيطرت على حياة المعدان وصاغت نمط سلوكهم الكلي، اعتباراً من حزازات الدماء إلى أساليب طعامهم.



١١ ـ الفوز بكسب الصداقة

تقع قرية كبيش على الجانب الشمالي من نهر الفرات، حيث تكون المياه هنا عميقة، بطيئة الجريان، عرضها مائه يارد. تمتد على نفس الساحل بساتين كثيفة من النخيل، طولها عدة أميال، بينما تتواجد عبر النهر منابت القصب والمستنقعات. وفي الخلف نجد أرضاً مبلطة بالإسمنت، عليها أعمدة المصابيح. وعلى هذه الأرض صف من البيوت المبنية بالآجر لكنه غير جميل.



والكبيش هي مركز الناحية وفيها مركز للشرطة ومستوصف صغير ومدرسة للأولاد ونادٍ للموظفين ومساكن الموظفين.

وجدت بعضُ هذه الأبنية حديثة العهد ولكنها كلها تبدو لعين الناظر كأنها مهجورة. وهذا المظهر غير المناسب قد يبرر عما إذا كان الساكنون فيها ينالون قسطاً كبيراً من الراحة ويستعملون فيها مواد منزلية أكثر يسراً مما قد يجدونه في القرى المجاورة. ولأنها مشيّدة بين المروج باحات الزهور فقد كنت أتوقع أن أجد فيها حماماً.

كانت الدور محاطة بحواجز من القصب المهشم وبقناني محطمة وتنك يعلوه الصدأ، وبقطع من الجرائد، فكانت تبدو كأنها مصدر لروائح كريهة.

والسوق يتألف من صف واحد من الدكاكين، وهو أفضل بقليل من

الأكشاك، وهي مشيدة على الطرف الآخر من الأرض، وفيها جسر صغير من الإسمنت يزين الطرف الآخر ولكن الغرض منه كما بدا لي غامضاً لأنه يؤدي على شكل خط مستقيم إلى بحيرة واسعة وعميقة. وكان مدير الناحية قد أشرف بنفسه على بنائه، وكان قبل أن يصبح موظفاً حكومياً يمتهن مهنة النجارة.

ولو تركنا واجهتها المائية جانباً لوجدنا الكبيش مكاناً جذاباً، فواجهة الأبنية الحكومية تخفي عدداً من الجزر الصغيرة، تظللها أشجار النخيل الباسقة، مرتبة بين القنوات المكسوة بطبقة من النباتات المائية، وبزهور صغيرة بيضاء في وسطها بقعة صفراء شبيهة برائحة العسل. وتحت ظلال النخيل تجد البيوت المصنوعة من القصب وعدداً من المضايف حيث مكثت في إحداها.

زرت مدير ناحية الكبيش بعد بضعة أيام من مغادرة صدام، كما زرت موظفين آخرين في الرحلة حتى أري مدير الناحية كتاباً من وزير الداخلية يسمح لي فيه بالتنقل حيثما أشاء.

وفي العراق، يدير المتصرف (المحافظ حالياً) شؤون اللواء (المحافظة) الذي يتألف من قضاءين أو أكثر، ويدير شؤون القضاء القائمقام. ويتألف القضاء من عدد من النواحي، ويدير شؤون الناحية مدير ناحية.

كانت الكبيش ناحية تابعة لقضاء سوق الشيوخ من لواء المنتفك ومركز اللواء هو مدينة الناصرية.

زرت المدير حالما وصلت الكبيش، فدعاني لتناول العشاء معه في النادي. وبدا لعيني أن هذا البناء متكون من آجر رديء بحيث يكون في الصيف حاراً وفي الشتاء بارداً مع رطوبة شديدة.

والنادي قائم خلف حاجز من الحصير، تجد تحته بعض أنواع

النباتات الزينية التي ذبلت لحاجتها إلى الماء. فيه كراسي حديدية مصبوغة باللون الأخضر وعدد قليل من المناضد الحديدية الدائرية الشكل موضوعة فوق قطعة من الأرض المعشبة المتلوفة.

وحينما دخلت النادي وجدت فيه شخصين أو ثلاثة من الموظفين ثم بدأ الآخرون يتقاطرون على فترات. وكنت قد التقيت أكثرهم في الصباح.

جلسنا جميعاً حول المناضد، فجلبوا لنا الشاي. جلبه رجل كبير السن، منهوك القوى، يرتدي بنطلوناً خاكياً ممزقاً جداً وسترة ضيّقة جداً.

جلب أحد المعلمين راديو من داخل البناية ثم ثبت الهوائي وأمضى الساعات الأربعة أو الخمسة التالية وهو يدير أزرار الراديو، فاستمعنا إلى الموسيقى والأغاني والأحاديث المختلفة من جميع محطات العالم الإذاعية، كما كنا نسمع أصواتاً عريضة تنبعث من حولنا. وكوّن عدد آخر من الموظفين حلقة أخرى بدأوا يتحادثون فيما بينهم بالأمور التي تخصهم كالمخصصات وفي الأمور السياسية العربية وفي الفضيحة التي كانت قد حدثت أخيراً في الدوائر الرسمية في الناصرية. وبما أنني لا أشرب الخمر فقد تناولت أقداحاً لا حد لها من الشاي وهو الشراب الوحيد الذي يتواجد ما عدا الخمر.

ومضيّفي الذي لم يشاركني في الرأي بدأ يشرب العرق باستمرار، وبدأ يتناقش بحرارة أكثر. ويظهر أنهم نسوا أنهم قد دعوني للعشاء.

ورأيت في مكان ما خلف الحاجز الحصيري مولداً كهربائياً كأنه مصاب بمرض الربو، يجهزنا بمصباح واحد معلق فوق رؤوسنا، فجذب إليه أعداداً كثيرة جداً من الحشرات الضارة والمؤذية فكانت تسقط كالمطر فوق المنضدة.

كنت أجلس على كرسي حديدي غير مريح وبدأت أشعر بالضيق والكدر مما أضاف كدراً وإزعاجاً. ثم تذكر المدير، حوالي منتصف الليل،

بأنني ضيف عليه، فأمر بإعداد العشاء وكان يتألف من الكباب والأرز ولم يكن لذيذاً رغم هذا الانتظار الطويل.

إن معظم هؤلاء الموظفين قد ولدوا في هذه المنطقة، ضمن مسافة لا تزيد على مائة ميل عن كبيش. وبما أنهم متعلمون لا يشعرون بالراحة إلاّ حينما يسكنون المدن. لذلك يرون أنفسهم في هذا المكان غير المريح والذي يكتنفه جو عشائري كأنهم في المنفى. فكانوا يأملون دوماً بأن يتم نقلهم من هذا المكان ويقضون الساعات الطويلة في بحث هذه القضية ويخططون لها. كما وجدتهم لا يبرحون هذه المنطقة ليرفهوا عن أنفسهم بل إنما يبقون محصورين ضمن هذه البقعة الضيقة التي تضم بيوتهم ودوائرهم وناديهم.

وخلال بقائي في العراق، لا أتذكر أنني صادفت موظفاً يهتم كثيراً بأمور الناس أو يظهر الود والمحبة لأبناء العشائر الذين يديرون شؤونهم. وسألني أكثر من شخص واحد، كيف أتحمل هنا الحياة في هذا المكان بين المعدان الذين هم ليسوا سوى حيوانات مفترسة. كما أنهم لا يهتمون بالريف. ففي كردستان، في الصيف الماضي، أمضيت نهاراً كاملاً مع ضابط شرطة عراقي شاب في إحدى أهم الأماكن اللطيفة والجميلة التي شاهدتها.

كان قد تعين في هذا المكان الذي تقطنه عشيرة كبيرة رحالة قبل شهرين.

فالجبال الشاهقة بعلو ثمانية آلاف قدم أو تسعة آلاف قدم تبرز من بين غابات البلوط شامخة إزاء المنحدرات الخضراء الظاهرة للعيان. وينحدر من الجبال جدول يجري فيه الماء الرقراق، بارد كالثلج، ينساب في الوادي متجهاً نحو سلاسل جبلية أخرى بعيدة أقحوانية اللون.

هنالك الدببة بين الغابات، والوعول في قمم الجبال، والجو في هذا

المكان ممتاز. وعندما زرت المعاون الشاب في خيمته، وجدته جالساً وبجانبه جهاز راديو وأمامه منفضة سيكاير مملوءة بأعقاب السكاير، قلت له بغاية الحماس «أنت سعيد جداً أيها الشاب لأنك تعيش هنا في هذا المكان الجميل». وبدلاً من أن يسرّه كلامي هذا رأيته ينفجر في الكلام ويقول: «سعيد! والله، لولا جهاز الراديو لأصبحت من عداد المجانين. ماذا يفعل رجل متمدن في هذا المكان الموحش؟، فالشخص الذي كان هنا قبلي لم يبق سوى أسبوع واحد. دفع لهم المال فنقلوه. أما أنا فإنني فقير الحال، لا أستطيع أن أقدم أي شيء لأدفع المال، لذلك تجدني أجلس وأصغي إلى إذاعة بغداد».

يسكن منطقة الكبيش والقرى المجاورة لها على امتداد نهر الفرات عشيرة بني أسد وهي عشيرة عربية إنسحبت إلى الأهوار قبل ثلاثة قرون وذلك من جراء المعارك التي دارت فيما بينها عبر التأريخ من الغلبة والاندحار. وفي أوج أيامها إمتصت هذه العشيرة كثيراً من الناس الضعفاء وأكثرهم ليسوا عرباً في الأصل، كانوا يلتمسون الحماية منهم وبهذا العمل ازدادت قوة.

ومن الأهوار خاضت حروباً متقطعة وناجحة مع الأتراك. وهي لا تزال مصدر القلاقل بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن دحرهما الإنكليز وأزاح شيوخهما في سنة ١٩٢٤ وإنحلّ الكيان العشائري منذ ذلك الوقت.

الزراعة في الكبيش أمر لا يمكن التنبؤ به دوماً، وفي السنوات الأخيرة، أخذت العشيرة التي يبلغ تعدادها الآن مقار (١٠,٠٠٠) نسمة، تعتمد على حياكة الحصران اعتماداً متزايداً. وهي مع مضي ثلاثة قرون من حياتها في الأهوار تعتبر نفسها متميزة عن المعدان. فهي تعتني بتربية الأبقار لكنها تحتقر العناية بتربية الجواميس.

وبإمكان المرء أن يتجول حول الكبيش لذلك سررت حينما غادرتها

فتوجهت شرقاً حتى أتيت إلى حافة الصحراء في الخميسية ثم عدت أدراجي مرة أخرى.

وحينما كنت أصل إلى قرية ما عند الصباح، يقدّم لي الغداء ثم يأخذني مضيفي من بعد الظهر إلى بيت آخر.

كانوا يكرمون وفادتي بسخاء أينما أحلّ حتى وإن كان صاحب البيت فقير الحال، وقد وجدت بعضهم معدماً فعلاً ولكنهم كانوا يراقبونني بهدوء ويتغرسون في وجهي وبقيت على هذه الصورة من التقييدات طوال عدة أشهر. لا توجد سرّية في كل مكان، فكل حركاتي كانت مراقبة حتى حينما أذهب إلى مكان أرتاح فيه فأشعر أن أحد الصبية يتعقبني فيسير ورائي بحجة أنه يحميني من الكلاب.

وبإمكاني أن أتصور ما يدور بينهم من نميمة حينما أغادر الغرفة فمثلاً يقولون «ماذا يريد هذا الشخص؟ ولماذا قدم إلى هذا المكان؟. من الواضح أنه لو لم يكن لديه سبب معقول لما قدم إلينا لأنه لا يرضى أي شخص من سكان المدن أن يلسعه البعوض وأن يأكل من طعامنا. لا بدّ وأن الحكومة أرسلته حتى يتجسس علينا، وليحصي عدد شبابنا أو ليفتش عن جواميسنا».

وجدت الأشخاص الذين استضافوني لطفاء ولكنهم كانوا على ما يبدو تواقين للتخلص مني، فعاملوني كشخص نجس.

والشيعة تعتبر الطهارة الشعائرية واجباً دينياً المتشددون منهم لا يشربون من نفس الكوب الذي أشرب منه لأنهم يعتبرونني كافراً.

وبما أن هؤلاء الناس غير متزمتين حسبما ألاحظ في شعائرهم الدينية الأخرى فإن هذا التفاضل الخاص إنما يبدو طفيفاً. ولا أدري ما إذا كنت أستطيع أن أقيم معهم علائق ودّية إلى الأبد كشخص مسيحي أو كشخص أوروبي حيث كنت أتوق إلى ذلك.

حان موعد تكوين مثل هذه العلاقة الودية حينما توقفت عن المسير في (ربعة) إحدى القرى الكبيرة من منطقة العميره وأنا في طريقي شمالاً قاصداً عشيرة الفرطوس.

لم يكن صاحب الدار موجوداً. غير أن شاباً طويل القامة، ذا هيئة حسنة رحّب بنا. ثم عاد الرجال الذين جاؤوا معي إلى هذا المكان إلى قراهم بعدما تناولوا الشاي مباشرة.

كان إسم مضيّفي «عبد» وهو مختصر (عبد الله) وصل مع غروب الشمس.

سألني من بعد تناول العشاء: «شكو بهاي صناديقك؟».

«أدوية».



«هل أنت طبيب؟».

«أعرف الشيء الكثير عن الأدوية».

«هل تستطيع أن تقوم بعملية الختان؟».

لم أجر مثل هذه العملية أبداً، لكنني كنت أراقب مثل هذه العمليات في المستشفى وبين العشائر. لذلك انتهزت الفرصة وأجبته قائلاً: «نعم».

«تكدر تسوى عملية ختان لولدي ضريبط؟ مضت سنين طويلة حينما جاء أحد الأشخاص اللي يعرف يسوي عملية ختان وأريد أن تسويها أنت بنفسك حتى أزوجه». وأشار بيده إلى صبي وهو الذي كان قد استقبلني. أما الآن فإنه كان منهمكاً بصب القهوة.

كنت خائفاً ولكن مع ذلك وافقت على إجراء عملية الختان في الصباح.

ولو أن عملية الختان لم تذكر في أي مكان من القرآن الكريم إلاّ أنه

يعتبر بشكل عام أمراً ضرورياً على جميع المسلمين. وهم في ذلك يقتفون إثر الرسول الكريم محمد ﷺ نفسه الذي أجريت له عملية الختان طبقاً لعادة العرب، ولا يحق لأي شخص لم يختن أن يحج شرعاً إلى مكة المكرمة.

تؤجل عملية الختان بين العشائر القاطنة في جنوب العراق سواء أكانوا معداناً أو رعاة الغنم إلى حين بلوغ الطفل سن الرشد، كما هي في هذه الحالة مع خريبط. ومن النادر أن تتم عملية الختان قبل بلوغ سن الرشد. وتجري عملية الختان من قبل شخص اختصاصي بهذا العمل، يتنقل من قرية إلى أخرى في فصل الصيف. وأتعابهم التقليدية هي إعطاؤه ديكاً ولكن الغالبية كانت تعطيه ربع دينار (خمس شلنات).

وقد شاهدت نتائج تلك العمليات فرأيتها مرعبة. كانوا يستخدمون أمواس الحلاقة المتصدئة والقذرة وقطعة من الخيط ولا يستعملون المطهرات.

وبعد العمليات ينثرون على الجروح مسحوقاً خاصاً معمولاً من قلفة يابسة لأولئك الذين أجريت لهم عملية الختان في السابق ثم يلفونه بقوة بقطعة من الخرق.

والناس الذين يعيشون في مثل هذه الأحوال يكتسبون من غير شك مناعة ملحوظة بالنسبة إلى العدوى أو التلوث وتراهم لا يستطيعون مقاومة هذه الطريقة. وقد يمضي شهران على العملية حتى يتشافى الصبي بعد أن يعاني طوال هذه المدة من الآلام الشديدة.

جاءني شاب بعد أن مضت مدة عشرة أيام على عملية ختانه حتى أعالجه. وإنني وإن كنت قد تعودت تماماً على رؤية المناظر والروائح الكريهة إلاّ أنني كدت أن أتقيأ من شدة الروائح النتنة المنبعثة من هذا الشاب.

وجدت قضيبه كله متقيحاً وينزّ منه ومن خصيتيه أيضاً القيح في مثل هذه الحالة. ووجدت القيح ينز أيضاً من بين أفخاذه واللحم ينسلخ منها والقيح يتساقط على ساقيه. فعالجته بالأدوية والمضادات حتى شفى في النهاية.

وعلى الرغم من أن الشخص يصاب بوصمة العار إذا لم يجر عملية الختان فإن بعض الصبية لا يرفضون الختان بشكل غير طبيعي، غير أن آباء بعضهم هم الذين لا يسمحون لأولادهم بالختان لأنهم لا يجدون أحداً يرعى جواميسهم.

يؤكد عدد من الصبية بالدليل القاطع بأنهم يولدون والملائكة قد ختنتهم وهذه خرافة جارية في مصر أيضاً.

وبعدئذٍ زرت قرى تقع بين السويد وقولابا Kaulaba بصورة خاصة، لأنني سمعت بأن عملية الختان هي نادرة الوجود هناك ـ وهذا شيء لا يمكن تصديقه تقريباً بين المسلمين.

وفي الصباح الباكر، حسب الموعد الذي أعطيته، تهيأت لإجراء العملية.

اقترح (عبد) وجوب إجراء العملية خارج البيت حتى لا يتلوث البيت بالدماء. فأجتمع جمع صغير بين الجواميس وهم ينتظرون عملية الختان التي لم تكن عملية جراحية مثالية. وحضر عدد من الناس من معاصري خريبط حتى يشجعوه ويزيدوا من معنوياته حسبما أعتقد.

اخترت صبياً تظهر عليه علامات الذكاء مساعداً لي. أما خريبط فإنه جاء بهاون خشبي كبير فقلبه رأساً على عقب ثم جلس عليه.

كنت أرغب أن أجري عمليتي الأولى ببساطة، وأظهرت فحوصاتي الأولية بأنه يملك قرفة متصلة. فهيأت سرنجاً مع مخدر محلي، غير أن خريبط قال لي في الحال:

«لويش هل شيء؟» فقلت له بأن هذه الحقنة تجعله لا يشعر بالألم.

«لا. لا. ما أريد أنضرب أبره. بس إقطع القرفة». ولا أظن أن أي شيء آخر سيغيّر من فكره. وعندئذٍ كنت أتعجب بما إذا كان عصبي المزاج مثلي على الرغم من أنه لم يُظهر أية علامة من هذا القبيل.

وبينما كنت أقوم بعملية الختان والتي استغرقت في هذه الحالة بعض الوقت، كان خريبط يجلس بدون حراك تماماً ثم قال لي من بعد انتهائي من العملية «أشكرك» ثم نهض.

أما مساعدي الذي كان يمسك بيده أنواعاً مختلفة من معدات العملية فإنه ألقاها على الأرض ودفع الآخرين من طريقه وجلس على الهاون وقال: «هسه دوري أنا». وأدركت الآن بأن أصدقاء خريبط التسعة قد جاؤا جميعاً حتى أجري لهم عملية الختان. وكان أصغرهم بعمر (١٥) سنة وأكبرهم بعمر (٢٤) سنة وعلمت فيما بعد بأنهم جميعاً قد شُفوا بعد عدة أيام. ومن الواضح أن مسحوق السلفونمايد والپنسلين هما أكثر تأثيراً وفاعلية من مسحوق القرفة اليابس.

وصلت الأخبار إلى القرية المجاورة عن عملية الختان. فلما وصلت تلك القرية وجدت (٢٠) صبياً بانتظاري.

وفي هذا الوقت كان قد استعدّ عدد قليل من هؤلاء الناس لكي يُجرى لهم الختّان المحلي الاختصاصي لكنهم فضّلوا الانتظار إلى أن أزور قريتهم أو يشدوا الرحال إلى القرية التي أنا فيها.

وفي إحدى المناسبات المتعبة والمضنية، حضر (١١٥) شخصاً، قمت بعمل شاق ابتداءً من الفجر حتى منتصف الليل.

وهؤلاء الناس يعتقدون أن رائحة الخبز أو أية رائحة أخرى من بعد الختان سوف تسبب حدوث التهابات في الجرح. وكنتيجة لذلك، إعتادوا

حينما يصابون بالالتهاب أن يضعوا قطعة من الصوف أو قطعة من القماش في الأنف أو يعلّقون بصلة حول الرقبة إن أمكنهم العثور على البصل عند البقّال. كما أن هؤلاء لا يأكلون السمك أو اللبن الخاثر أو الرقي أو يشربون الماء بكثرة إلى أن يشفوا من جروحهم.

ويتمسك الختّانون المحليون بهذه الخرافات كعذر على عدم كفاءتهم، ويفسرون حالة بعض الشباب المصابين بالهزال عندما يقاسون الآلام المبرحة وسيقانهم متباعدة لأنهم لم يتمسكوا بتعليماتهم ويتجنبوا تحذيراتهم ويقولون: «طبعاً. ما أخذ هذا الصبي الحذر واحتاط لنفسه بحيث يسد ثقوب أنفه. لازم شمّ رائحة الخبز. أو لازم شرب ماي كثير».

لا يزور الأطباء أماكن المعدان أبداً. وإذا ذهب المريض إلى الصيدلية في الكبيش لشراء الدواء على حسابه الخاص فإنه لا يزال يعتقد بعدم جدواه وأنه لا ينفع.

وأينما أحلّ، يزداد عدد الشباب الذين أقوم بعملية ختانهم يومياً. وعلى هذا الأساس، لا يمضي يوم دون أن أعالج فيه الناس في الأهوار. ويتفاوت عدد القادمين فيكون أحياناً قليلاً ويزداد أحياناً أخرى بحيث يتجاوز المائة شخص.

وأكون راقداً في فراشي حينما يصل أول مريض، فأنهض بعد أن ينحني أحد المسنين الكبار ليقول لي بأنه يشكو من السعال وأسمع صفير صدره حينما يتنفس. ووجدت الأكثرية تعاني من آلام الزكام الشديد والصداع والإمساك أو من الجروح الطفيفة أو من الكدمات. ويمكن معالجة مثل هذه الأمراض بسهولة ولو أنها تتطلب وقتاً أطول. كما وجدت أشخاصاً آخرين هم مرضى فعلاً وبشكل خطير أو مميت. فكنت أداوي بعضهم ممن بوسعي إسعافهم وأترك الآخرين الذين لا أستطيع معالجتهم. وأهتم كثيراً في مثل هذه الحالات بالمعالجة الطبية الصحيحة.

كما وجدت أناساً يعانون من مرض التراخوما ومن بعض أمراض

العيون الأخرى ومن الجرب والبواسير ومن وجود الحصى في الكلية ومن أنواع مختلفة من الديدان المعوية ومن الديزانطريا من كلا النوعين أميبي وعضوي ومن أمراض البلهريزيا والبجل. وسوف أعدد بعض الأمراض التي يشتكون منها.

فمرض البجل هو من أكثر الأمراض شيوعاً وربما من أكثر الأمراض المزعجة، وهو مرض يشبه السفلس ولكنه ليس بمرض تناسلي. إنه نوع من مرض جلدي ومعدي جداً. فالقرح الذي يحدث في مكان ما من الجسم يكون شديداً على الغالب نتناً أحياناً بدرجة مخيفة. وكنت أشعر بألم وأتأثر حينما أجد بعض المرضى من هذا النوع.

كانت بعض الحالات من مثل هذه الأعراض سفلساً من غير شك وكنت أعتقد أنها بجل. وكنت أستعمل حقن البنسلين فأجدها ذات مفعول جيد لكلا النوعين من المرض.

أما مرض السيلان فإنه غير معروف تقريباً. لكنني عالجت ثلاث حالات فقط كانت مصادرها من العمارة. وأما إزاء البهريزيا فما كنت أستطيع أن أفعل أي شيء وهو مرض واسع الانتشار في منطقة الأهوار والسبب هو أن دورة الحقن بالإبر تدوم مدة شهر واحد وما كنت أمكث هذه المدة في مكان واحد.

وقد عالجت جماعتي الجذافين ولكنهم كانوا دائماً يصابون ثانية. وهنالك أمراض أخرى وبائية مثل الحصبة وجدري الماء والنكاف والسعال الديكي.

وفي سنة ١٩٥٨ انتشر وباء الأنفلونزا الآسيوي حيث أُصيب به معظم المعدان. وأنقذت أدويتي كثيراً من المصابين بأمراض ذات الرئة كنتيجة لإصابتهم بمرض الأنفلونزا. ولقد كنت ورفاقي محاطين يومياً بالمرضى الذي يطلبون الدواء لكننا كنا نهرب أحياناً لنروّح عن أنفسنا ونبتعد عن هذا

الزحام. وكثيراً ما كنت أخشى أن أصاب بالمرض في فصل الصيف في مثل هذه الظروف.

ومن الأمور المذهلة، أنني واجهت عدداً قليلاً من المصابين بأمراض الملاريا علماً بأن هذا المرض قد تقلص كثيراً خارج الأهوار. ومن جهة أخرى، كان معظم المعدان يعانون من الحمى الواطئة المتكررة. ويعاني عدد كبير من الأطفال من تضخم الطحال.

البعوض السائد هو من نوع الأنوفيلوس Anopheles Pulcherrimus وهو ناقل الملاريا بشكل ضعيف أما النوع المؤذي جداً فهو الأنوفيلوس إستفينسي Anopheles Stephensi وهو نادر الوجود في الأهوار نسبياً.

ثم هناك إصابات ناجمة عن الحوادث. فبعض الضحايا يصابون بالحروق المرعبة من جراء احتراق أكواخهم. وهناك الأطفال الذين يصابون بالحروق من جراء انسكاب القدور أو الكتالي وفيها الماء المغلي.

ويراجعني رجال أصيبوا بجروح من جراء هجمات الخنازير البرية. ويصاب بعضهم أحياناً حينما يقوم بالصيد فتهاجمه الخنازير ولكن أكثرية الإصابات ناجمة من مهاجمة الخنازير وهم يقطعون القصب أو يحصدون محاصيلهم.

شاهدت مرة شخصاً مصاباً بالجروح في ذراعه وفخذيه وجرح عميق بمدار ثلاثة عقد في معدته بحيث برزت الأمعاء. ومن حسن حظه أنها لم تكن مثقبة، فأعدت الأمعاء إلى مكانها ثم خيطت الجرح. ومن الأمور التي تبعث على الدهشة هي أنهم يبقون أحياء بعد هذه الحالات. وفي إحدى الحالات استدعيت إلى بيت لأفحص صبياً كانت بندقيته المصنوعة محلياً قد انطلقت وفجرت نصف يده. وكل ما استطعت عمله هو بتر ثلاثة أصابع من أصابعه المتطايرة.

وفي حالة أخرى، أيقظني صبيان من النوم ليلاً وذهبت معهما في

مشحوفهما إلى قريتهما التي وصلناها بعد ثلاث ساعات. وصلنا القرية وقت الفجر، ووجدت أباهم يتلوى على الأرض وقد وضع يديه فوق عينه. وقالوا لي بأنه فقد إحدى عينيه نتيجة انفجار قبل سنتين. والآن، يبدو أن نوعاً من الضغط الداخلي يؤثر في العين المفقودة ويدفعها من محجرها.

فكل ما استطعت عمله هو قلع العين حتى يرتاح من الألم. وكنت أعرف شيئاً من المعلومات عن تركيب العين من غشية جلود الحيوانات حتى تبقى كتذكار.

حقنت هذا المريض بإبرة من المورفين ثم أجريت عملية قلع العين بينما كان ولداه يمسكانه بقوة وهو ممدد على الأرض.

ولما استفاق واسترد وعيه قال بأن الأمة الآن هي أحسن بكثير مما كان يعانيه سابقاً. مكثت بجانبه يومين حتى أطمئن على صحته. شاهدته بعد ستة أشهر فوجدته قد تشافى.

وهنالك أمراض كثيرة لا أقدر على القيام بأي عمل تجاهها. وكنت كثيراً ما أفشل في معالجة حالات أخرى.

ولا أزال أحمل في مخيلتي صورة وجه صبي صغير يكاد يموت مما يعانيه من الديزانطريا. وكثيراً ما كنت أواجه مصاعب كثيرة حتى أقنعهم بأنني لا أستطيع شيئاً إزاء بعض الحالات؛ جاءني مرة رجال من مسافة بعيدة ومعهم شيخ عجوز يعاني من آلام شديدة من مرض السرطان. وجاؤا مرة أخرى بفتاة تسعل سعالاً شديداً من جراء مرض السل والكل يثق في أنني سأشفيهم من أمراضهم. لذلك يواصلون الالتماس والرجاء إلى درجة يثيرون فيها الشفقة فيقولون:

«أعطنا فقط الأدوية. صاحب! أعطينا أدوية».

وهناك حالات من المرض قد يتشافى منها المرضى إذا ما راجعوا

المستشفى في العمارة أو في الناصرية ولكنهم كانوا يخشون مراجعة المستشفى. ومن النادر أن يقتنعوا بوجوب المراجعة.

كان الأطباء في المجر وفي الكبيش والعمارة يستاؤون مني لنقص مؤهلاتي، لكنهم لم يكونوا يُظهرون استياءهم أبداً، بل على العكس من ذلك، ساعدني عدد منهم في إبداء المشورة والأدوية.

وافق وزير الداخلية في بغداد على الأعمال التي أقوم بها فيما يتعلق بالطبابة في الأهوار ولكنه حذرني قائلاً بأنه إذا ما مات أحدهم نتيجة لخطأ في الإسعاف تسبب له أسرته مشاكل فلن ينقذك أي شيء عن المقاضاة الجرمية.

كانت أعمالي هذه مجازفة مني وأنا راغب في ذلك. وعالجت كثيراً من الناس الذين كانوا يعانون من سكرات الموت ولم يتفوه أي شخص فيما بعد بما يشير إلى أنني قد قتلت مرضاهم.



١٢ ـ بين عشيرة الفرطوس

بعد أن غادرت قرية عبد، مكثت في بيت صغير في قرية كباشة. وكنت أعالج عدداً كبيراً من المرضى إلى درجة غاصت فيه أرضية الغرفة في الماء حتى بلغ ارتفاعه إلى مستوى كعب القدم. وأكّد لي مضيّفي بأن هذا ليس بالأمر المهم ولكنني مع ذلك انتقلت إلى مكان آخر فارتاح لعملي هذا.

وفي قرية أخرى، اسمها مبرد، فيها من (٤٠ إلى ٥٠) بيتاً، مشيّدة على امتداد الساقية فوق عدة طبقات من الأوضية الخاصة. وتتخلل البيوت طرق مائية ضحلة، تجمع أيضاً جمع كبير من الناس وبدأت أعالجهم حتى حلّ الظلام. وكان مختار القرية يلازمني طوال عملي هذا.

والمختار رجل عجوز، اسمه محسن، له أولاد، طلبت منهم إبداء المساعدة، لكنهم فضلوا اللعب على الاستجابة لطلبي. ومع ذلك كانوا يضايقونني من كثرة طلباتهم للأدوية التي لا يحتاجون إليها.

كان الأولاد صغاراً، يشبهون أباهم تماماً. لهم أنف طويل كأنف أبيهم، وعيون ضيقة وصوتهم أشبه بالعواء. وأخيراً لنت لهم من كثرة الإلحاح في طلب الدواء، فأعطيت أحدهم حبتي كنين حتى يمضغهما. فسمعته بعدئذٍ يحاول التقيؤ خلف الباب. تضايقت كثيراً من طول انتظاري لتناول عشائي. ولما جاؤا به وجدته عبارة عن صحن فيه كومة من الأرز

البارد وقدح فيه زبد كثير قذر. وعليّ أن أنتظر مرة أخرى حتى يُعدّوا لي الشاي ولكنني لم أجد أية علامة على إعداده.


رجل من عشيرة القرطوس

وفي هذه الأثناء، التفت أحد الأولاد فجأة وإذا به يصيح قائلاً: «هلو! ما هذا؟» ثم اندفع نحو الباب وسمعته يصيح «حريق! حريق».

تجمهرنا خلفه ونحن نبعد الجواميس من طريقنا. وشاهدت النيران تلتهم سقف البيت المجاور الذي يقع أسفل البيت الذي نحن فيه وباتجاه الريح وسرعان ما قضى عليه تماماً. رأيت اللهب البرتقالي اللون يرتفع إلى عنان السماء والشرارات تتطاير في الظلام. تجمعنا في المشاحيف وتوجهنا نحو البيت المحترق. وقبل أن نصله، كانت النار قد وصلت إلى بيت آخر يجاوره. ورأيت الشرارات تتطاير من كلا البيتين وتحملها الرياح القوية إلى بيوت أخرى.

شاهدت قوارب عديدة، تروح وتغدو فوق سطح الماء المضاء من وهج النيران. وشاهدت أصحاب البيوت يندفعون إلى داخل بيوتهم ثم يخرجون منها وهم يقذفون ما تحمله أيديهم إلى المشاحيف المنتظرة ثم يسرعون بالدخول مرة أخرى لينقذوا ما بوسعهم إنقاذه. ورأيت النساء يولولن ويصرخن والرجال يصيحون بأعلى أصواتهم والكلاب تنبح والجواميس هائجة لأنها خائفة فتولّي هاربة في الظلام الدامس.

كنا نسمع عبر هذا الضجيج العام أصوات قرقعة تكسر القصب المشتعل الذي التهمته النيران ثم سرت النار إلى بيت ثالث في الوقت الذي نزلنا فيه من المشحوف جوار أحد البيوت.

شاهدت امرأة خائفة جداً، تندفع بسرعة وهي تمرّ من جانبنا، تحمل طفلها على ذراعيها تمسكه بقوة وهو متعلق بها يصرخ ويصيح. أخذت الطفل منها وناولته لفتاة في المشحوف، فوضعته بجانبها وهو لا يزال يصرخ. ثم اندفعت الأم مرة أخرى إلى البيت حتى تنقذ ما بوسعها إنقاذه من أثاث البيت. فرأيتها تحمل معها البسط.

وفي مجاز البيت، اصطدمت برجل عجوز وصبي وهما يبذلان جهديهما لسحب كيس من الدقيق فساعدتهما في سحبه إلى القارب ثم بدأنا نُخرج الأكياس الواحدة بعد الآخر حتى لم يبقَ إلاّ كيس واحد لم نستطع إخراجه لأن النيران بدأت تلتهم البيت.

وفي هذا الوقت قضت النار على البيت المجاور قضاءً تاماً.

شاهدت شبح امرأة وهي تنظر نحو اللهب الذي يلتهم السقف وتضرب صدرها بيدها. إنهار السقف وتطايرت الشرارات إلى الأعلى واندفع الرجال من خلال المياه التي تتخلل البيوت لينقذوا الحاجيات التي فيها.

وصاح أحدهم وهو يقول «البيت يشتعل». فنظرت ورأيت السقف فوقنا آخذاً بالاشتعال، وأصبحت الحرارة لا تطاق واللهب يندفع نحونا وعندها صاح الرجل العجوز «أخرجوا وأنقذوا أنفسكم» فقفزنا إلى داخل الساقية وخضنا الماء وعبرنا إلى بيت آخر.

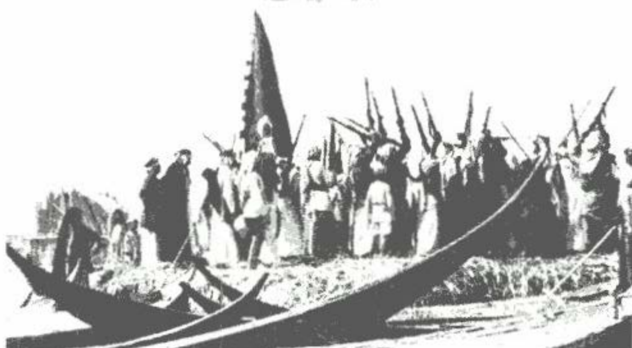
ولكن نحول دون التهام النار لهذا البيت، بدأنا برش السقف بالماء لكننا لم نستطع إنقاذه.

التهمت النيران في تلك الليلة (١٢) بيتاً في قرية مبرد. وشاهدت البيت الأخير ورأيته كأنه محرقة يخرج منها اللهب. وأصبحت المياه المعتمة تُرى كأنها ملونة بلون أحمر وذهبي.

عبرنا إلى الجانب الآخر لنراقب الحريق. وكان الليل شديد الظلام والنجوم تسطع في السماء الصافية والهواء بارداً من بعد حرارة اللهيب. وترى من كل مكان كوماً من الرماد المتوهج والرياح تحركها فيظهر اللهب من جديد.

رأيت الرجال الذين بذلوا جهداً كبيراً في معركتهم مع النار، يتحدثون فيما بينهم بصخب ويحدثون الضوضاء والضجيج. أما النساء فكن من بعيد يولولن ويندبن حظهن على فقدهن بيوتهن وما يملكن من متاع.

وفي هذه الأثناء اقترب منا أحد الغرباء وقال «تعال واشرب الشاي معنا صاحب». عدت إلى دار محسن وشاهدت فيها أفراد العائلة المنكوبة



رقصة الحرب بين عشيرة الفرطوس

من الدار الأولى. فالأب فقد كوفيته، والدشداشة تضررت من النيران. كما وجدت رجلاً آخر صغير الجسم، عصبي المزاج، ذا وجه متجعد وشعر خطه الشيب، سنّه الأمامي مكسور وهو جالس بجانب الموقد ومعه أولاده.

الولد الأكبر الذي عمره (١٧) سنة مصاب بحروق بليغة في كتفه. وشاهدت في الطرف الآخر من البيت امرأة عجوزاً، شمطاء، جالسة تولول وتصرخ بصوت مسموع وربما هي جدّة الأولاد.

كما شاهدت امرأة أخرى شابة جالسة لا تنبس ببنت شفة وقد احتضنت طفلاً بين ذراعيها وطفلين آخرين بجانبها.

قال محسن الذي أعدّ الشاي «من حسن الحظ، ما اشتعلت النيران ونحن نيام مثل ما حدث في قرية سعده في الشهر الماضي وماتت زوجة السيد مع طفلها بسبب الحريق». وأخبرني الأب بأنه هو وأولاده كانوا في البيت المجاور حينما بدأ الحريق «أنقذنا الأطفال وأردت أجيب البندقية التي كانت تحت الفراش فما وجدتها. أما ابني علي فاحترق. فقدت كل شيء ـ البندقية وثمانية دنانير كانت في الصندوق والمنام والملابس وكل شيء آخر داخل البيت. أما هذه الليل فاحترق اثنا عشر بيتاً. ومع ذلك نحمد الله على سلامتنا». قال ذلك وهو مستسلم للقدر.

كانت الجدّة تنتحب طوال الليل بأسره ولا أحد يهتم بها أو يلتفت إليها. نام الرجل بالقرب من ولديه الصغيرين بجانبي وشاركني أحدهما بغطائي. نجت جواميسه ومشحوفه من النار، وتلك هي التي تهمه حقيقة.

شيّدت الأسرة لها بيتاً جديداً بعدما بردت الأرض وذلك بتوفر القصب المكدس بالقرب منهم. ساعده الناس من أهل القرية بتزويده بكمية من الدقيق وفرش النوم. وكانوا، كما بينت سابقاً، قد أنقذوا بعض القدور والكتالي. أما الشيء المهم الذي فقده فهي البندقية. وفي الصباح أعطيتهم بعض النقود كمساعدة تعويض عن بندقيته.

غادرت القرية متوجهاً إلى قرية العويدية وهي قرية صغيرة من قرى عشيرة الفرطوس والتي سبق لي وزميلي دوكالد ستيوارت أن زرناها قبل سنة فوصلتها بعد ساعتين. وإلى أن وصلنا القرية، كنّا نجذف المشحوف عبر بحيرة صغيرة محاطة بقصب عالٍ ومن ثم ندفع المشحوف بالمردي على امتداد مجرى ماء عريض.

وقبل الوصول إلى القرية ومشاهدة أول بيت من بيوتها من فوق القصب، كنا نسمع أصواتاً صادرة من قرى الأهوار عبر المياه وهي همهمة أصوات كثيرة، والضرب الممل لنساء القرية وهن يدققن القمح، وأصوات الجواميس ونباح الكلاب والشيء الواضح جداً هو صياح الديكة.

وتنتشر بيوت القرية بين منابت القصب. وكان مضيف جاسم الفارس الصغير يقع في الطرف البعيد منها، وهو يرتفع شامخاً فوق الدبن عن سطح الماء، والهيكل بأسره يميل نحو الباب. وأما جاسم نفسه، فهو رجل طويل القامة، نحيف الجسم، يرتدي دشداشة بيضاء، كان يقف في المدخل.

أحببته من أول نظرة. وجهه ذو تجاعيد عميقة، وأنف مستقيم وفم ثابت وعينين تنمان عن العطف والحنان، أسرع فالح، الابن الأصغر، والذي ضيّفنا قبل سنة، ودخل الغرفة وجلب البسط والوسائد.

قدّرت عمره بخمسة عشر عاماً وهو جميل المحيّا ولكنه ذو طباع رديئة. يعاني من مرض الفطريات في الرأس. وفروة رأسه كلها عبارة عن قطعة من القشرة اليابسة وهو يخفيها دائماً وبعناية بالكوفية التي يضعها على رأسه. ورأيت فروة رأسه مرة حينما طلب مني معالجته.

إن هذا المرض شائع بين الأطفال. ويظهر أنهم يتخلصون منه بالتدريج حينما يبلغ الشاب من العمر (١٤) سنة. ولكن الأكثرية تفقد شعرها بصورة دائمة نتيجة لهذا المرض.

مكثت عند جاسم الفارس مدة أسبوع، وسرعان ما شعرت كأنني في



شخصان من عشيرة الفرطوس يصيدان السمك من بحيرة أم النبي

بيتي وأنا أعيش بين عشيرة الفرطوس، وعاملوني كفرد من أفرادهم. وهنا في هذا البيت، كنا نشرب منذ البداية من قدح واحد. وكنا نخرج من الزورق صباحاً ومساءً ونذهب إلى البحيرة المجاورة ومعنا فالح لنصطاد البط. كان البط البري حذراً جداً لذلك وجب علينا أن نصطاد طائر الغراء، ومالك الحزين والغاق وكلها طيور مائية يأكلها المعدان.

حاولت مرة أكل الغاق، لأنهم أكدوا لي بأن لحمة لذيذ، يشبه لحم السمك، لكنني لم أستسغه عندما تناولت لقمة واحدة فقط وبقي طعمها في فمي طوال عدة ساعات.

وفي أحد الأيام، دفع فالح وابن عمه المدعو داود الزورق وسرنا نحو البر الرئيسي؛ وسرعان ما تركنا القصب ودخلنا في منطقة يغطيها مساحة أميال مربعة نبات البردي المتساقط. وشاهدنا النبات الجديد ينمو من خلال عشبة البرك للعام الماضي، لكنها لم تكن عالية بحيث تحجب نظرنا حتى وإن كنا في بطن الزورق. كان المكان مليئاً بالطيور، فطائر البكاسين (طائر طويل المنقار) يقفز ويطير من جانبنا وهو يرتفع على شكل خط متعرج. ورأيت عدداً كبيراً من الطائر المخوض الصغير الحجم يمر من

حولنا. ورأيت طيوراً كثيرة من الطيور المائية ذات الأطواق من الريش والطير المخوض (شبيهة بطيور الكروان) وطيور الكروان والطيور المائية ذات القوائم الحمراء وطيور النكات (طيور مائية طويلة الساقين) من بين الطيور المائية الأخرى التي لم أستطع تمييزها، تقتات من أرض موحلة مكشوفة. وهناك طيور مائية أمثال الطائر أبو ملعقة (طائر مائي منقاره على شكل ملعقة) وطائر الحارس (طائر مائي طويل الساقين والمنقار) وطائر البلشون الأبيض ومالك الحزين. بعضها رمادية اللون، وبعضها الآخر أرجوانية اللون. ولما سمعنا من بعيد صياح الوز، أطلقنا كلاب الصيد، فاصطادت لنا عدداً من الوز الذي كان بارتفاع واطىء جداً فوق نباتات الأسل. ورأينا النسور العادية تحوم فوقنا.

بدأ فالح وداود بدفع المشحوف بواسطة المرادي من خلال نباتات الأسل بعد أن نزعا ثيابهما ولفّاها حول خصرهما.

كنا نأمل الوصول إلى البر الرئيسي، غير أن الطين اليابس الممتد لعدة أميال جعلنا ننفصل عن البر الرئيسي الذي يتكون من أرض مفتوحة واسعة يعيش عليها رعاة الأغنام من عشائر المنتفك في خيامهم السوداء. وسماهم فالح بـ «العرب».

ووعدني أن يأخذني إليهم مرّة في فرصة أخرى فقال «راح نزور محسن بدر، فهو أعظمهم شأناً. وهو صديق والدي. أخفاه والدي لما كان الإنكليز يبحثون عنه. ألم تسمع عن بدر؟».

لا يزال العرب يرددون القول «كريم مثل بدر». وابنه محسن مثل أبيه، عد إلينا لما يرتفع منسوب المياه، وقت الفيضان. راح نروح عنده». وعند العودة، أطلقت عدة عيارات نارية على طائر السحنون (طائر مائي) أرجواني اللون والذي أكّد لي فالح بأن لحمها جيد للأكل. وهذه الطيور تشبه طائر الغاق من حيث الشكل والحجم.


جاسم الفارس من عشيرة الفرطوس

طارت هذه الطيور من بين القصب، وكانت سيقانها الطويلة تتأرجح تحتها.

وفي فصل الصيف، تكون هذه الطيور مع طيور البط الرخامية اللون الوحيدة الملائمة للأكل.

وداود، الذي كان قليل الكلام، سألني باستحياء عما إذا يمكن أخذه معي إلى مدينة العمارة حيث يقبع أبوه في سجنها. قال لي «خدم والدي شيخ آل عيسى في سيكال. بعثه في أحد الأيام ليوقف ثلاثة أشخاص من عشيرة الأزيرج من الذين يسببون القلاقل. جاء والدي بهم إلى الشيخ الذي بدأ يجلدهم بالسياط. وبعد مدة، هاجم هؤلاء الناس والدي فأصابوه حيث ضربه أحدهم على رأسه بالهراوة فسقط على الأرض مغمًى عليه.

ولما تشافى والدي حمل بندقيته وأخذ يبحث عنهم. فلما لقي الشخص الذي ضربه أطلق عليه النار فأرداه قتيلاً. وبدلاً من أن يحميه الشيخ ـ الله يلعنه، نراه يسلّمه إلى الحكومة. حكموا عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. ورجعت أنا ووالدتي عند خالي جاسم حتى نعيش عنده. حدث هذا قبل ست سنوات. والآن أريد أن أشوف والدي».

كان داود صبياً غريب الأطوار، بشوشاً اعتيادياً وثرثاراً، يبقى صامتاً من حين لآخر ويتأمل في هدوء. ولما علم بأن جاسماً سيأتي معي ليرى أباه في سجن العمارة سرّه ذلك وقال لي: «أنه يحب والده كثيراً ولم يشاهده منذ أن سجن. وانقطع عن الكلام منذ يوم سجن والده كما انقطع

عن الطعام أيضاً لعدة أيام. وأخذ يتصرف في السنة الثانية تصرفاً غريباً لم يستطع أحد من الوقوف على كنه هذا التصرف، وأخذ يردد قائلاً (داود ميت) كان علينا أن نأخذه إلى مزار فواده Fuwada قبل أن يتشافى».

وكل مساء، يجذف الرجال والشبان بمشاحيفهم قاصدين مضيف جاسم فيتركون المشاحيف في المدخل ويأخذون أماكنهم حول جدار الغرفة. وكنا نمضي وقتنا في المرات الأولى في أحاديث شتى. في أحد الأيام اقترح جاسم بأن نمضي وقتنا بالغناء. «إي والله. بالغناء والرقص» قال الآخرون كلهم بصوت واحد. «خلونا نتونس هل اليوم. وين خيّال؟ اليوم رجع من مبرد. وين الدنابك؟. اليوم نشوّف الإنكليزي شلون المعدان يتونسون، روح فالح جيب الدنابك والطنبورة. داود. روح شوف خيّال».

عاد فالح ومعه دربكتان وجلب الآخرون طنبورتين. فالدرابك مصنوعة من الطين المفخور، شكلها كالزهرية، طولها مقدار (١٨) عقدة وقطرها (٨) عقد في الطرف العريض، مغطاة بجلد رقيق. أما الطرف الثاني فهو مفتوح.

وخيّال هذا، الذي وصل لتوه، هو بعمر فالح وداود، غنّى عدة أغاني وكان فالح يدق على الدربكة.

انجذب الآخرون نحو الصوت، فجاءوا وهم يجذفون بمشاحيفهم قاصدين المضيف.

وكانت الغرفة مكتظة، في هذا الوقت، بالناس فازدادت امتلاءً كان صوت خيّال رخيماً جداً ويملك ذخيرة من الغناء، بعضها أغاني حقيقة تبعث على المرح والحبور وبعضها الآخر أغاني حزينة.

ثم شكّل خيال وفالح وداود مع ستة أشخاص آخرين من الصبيان حلقة دائرية صغيرة. ودافعوا إلى داخل الحلقة صبيين نحيفين، عفريتي المنظر وهما يمانعان ويحتجان على هذا التصرف لأنه طلب منهما أن يرقصا.

كان هذان الصبيان أخويين فالأكبر بعمر (١٣) سنة تقريباً. وأخذ خيّال أحد الدرابك وأخذ فالح الآخر وبدءا يدقان برؤوس أصابعهما دقات سريعة وبإيقاع مثير. وبدأ صبيان آخران يعزفان على الطنبورة. أما البقية فبدأ كل واحد منهم بدق الأصبع ويضرب بكعب قدمه الأيمن على الأرض.

بدأ الأخوان في البداية بالدوران ببطء وبشكل متراخ، كانت جسماهما يتمايلان وأياديهما مرفوعتين إلى المرافق بمستوى الكتف. ولما بدأ الإيقاع سريعاً، تدلت أذرعهما إلى الأسفل وبدأ جسماهما يتلويان ويدوران وأقدامهما تتحرك إلى الأمام بشكل سريع. يتحركان جانباً وإلى الخلف. أما الآخرون، فكانوا يغنون بدون تحفظ.

وصل الرقص إلى ذروته. ووقف الصبية فجأة. كانت أقدامهم متباعدة وأجسامهم تهتز نحو الأمام ونحو الخلف بحركات سريعة متواصلة من حضورهم. ثم بدأت الحركات تقل سرعة وأجسامهم تهتز عندما يمرر أحدهما عضلاته المتشنجة على عضلات الآخر. ثم توقف الصبيان عن الرقص وابتسما للحضور ثم جلسا.

ولكن الحاضرين لم يتركوهما جالسين بل إنما طلبوا منهما أن يرقصا مرات عديدة. وكانوا يغيّرون الرقصة من شكل إلى آخر.

وفي المساء، بينما كان الحاضرون يرتلون تراتيل دينية، بدأوا يقلدون المسلمين في تأدية الصلاة بحيث قام أحد الصبية بحركات غريبة غير مؤدبة خلف الشخص الذي يقلد الصلاة.

نظرت نحو سيّد كان قد اصطحب ولديه الكبيرين حتى أجرى لهما عملية الختان في الصباح، وكان الثلاثة يرتلون أفضل من غيرهم وكنت اعتدت على ملاحظة الناس الأكثر تديناً بين المسلمين.



١٣ ـ العداوة في الأهوار

في مساء اليوم التالي، وبعد أن خيم الظلام، جلست أنا وداود في المضيف مع ستة أشخاص مرضى جاؤا إلينا حتى يأخذوا العلاج ثم يعودوا إلى بيوتهم دون أن يبيتوا هنا في هذه القرية. وبوسعي أن أرى من خلال المدخل، النيران التي يشعلونها لوقاية جواميسهم من البعوض.

كانت أعمدة الدخان كثيفة ومنخفضة، تندفع فوق سطح الماء. وبدأ البعوض بالظهور. وبإمكاني أن أتخيل، مع كون منابت القصب قريبة، بأن البعوض قد يجعل هذا المكان خالياً من الساكنين فيه في فصل الصيف حتى وإن كانوا معداناً. كنت أسمع نقيق الضفادع من بعيد بإيقاع لطيف وما كنت أصغي إليه إلى هذا الوقت، غير أنه لما تغيّرت النغمة وأصبحت على وتيرة واحدة أنتبهت عند ذلك إلى هذا النقيق. ولما أحسّ الآخرون بأنني أصغي إلى نقيق الضفادع قال داود «الحيّة اختطفت إحدى الضفادع، توجد أفاعي كثيرة حوالينا. قتلنا احداها من سقف الغرفة آخر مرة». واستمرّ النقيق على هذه النغمة الجديدة لفترة طويلة.

وبعد سنتين، كنت في نفس المضيف خلال الصيف، وحاولت أن أحرك الهواء قليلاً بمهفّة من القصب كانت بيدي لكنني شعرت بشيء ما خلفي. كنت على وشك أن أضع يدي على الأرض، غير أن شيئاً غريزياً حذرني بأن لا أفعل ذلك. فانحنيت إلى الأمام ونظرت إلى الأسفل

وشاهدت حيّة، لونها باهت، طولها قدمان فضربتها بالمهفّة على رأسها فأرديتها قتيلة. تكثر الأفاعي في فصل الصيف، ويؤكد المعدان أن أكثرها سموماً الأنواع التي يسمونها بالعربيد وهو بطول أربعة أقدام تقريباً وله جسم ثخين، لونه أسود يميل إلى اللون الأحمر القاتم.

صادفت مرة حادثة لسع الحية حينما كنت في جنوب العراق. حدث هذا في شهر رمضان، شهر الصيام الذي حل في فصل الصيف. وكنت قد وصلت القرية تواً. كان أحد الرجال قد نوى على الذهاب إلى الكبيش ومعه إبنته البالغة من العمر (١٤) سنة لبيع الجبن الذي يصنعونه محلياً. ولكي يتجنبوا الحرارة نهاراً أرادوا الذهاب قبيل الفجر، وحينما همت الفتاة بوضع قدمها داخل المشحوف داست على الحية التي كانت نائمة في المشحوف فلدغتها في الحال. ماتت الفتاة خلال نصف ساعة ورأيت لون وجهها قد تغيّر إلى السواد تقريباً. ولما نقلوا الجثة تدفق الدم الأسود من فمها وأنفها.



ويعتقد المعدان اعتقاداً جازماً بوجود وحشين مخيفين، هما، الحنفيش والآفة كما لو أنه لا توجد أفاعي حقيقية كافية. فالوحش الأول، يشتهر بأن له جلداً يكسوه الشعر والآخر له ساقان. ويقال بأن كلا الوحشين يسكنان في أعماق الأهوار وهما وحشان قاتلان.

وبعد أن رفع فالح طعام العشاء، دخل المضيف رجل ذو وجه نحيف، طويل القامة، يده اليسرى ملفوفة بخرقة مبللة بالدم. وكان قد جرح يده جرحاً عميقاً حينما كان يجمع القصب.

كانت عيناه بلون الكهرمان الأسود، ينم مظهره عن هيئة شرير، جاء إلى هذه القرية من قبيبة وهي قرية كبيرة من قرى عشيرة الفرطوس، تبعد مقدار مسيرة ساعتين عن سيكال.

كانت عشيرة آل عيسى، تلك العشيرة التي تربي الأغنام والتي مكثت

أنا وزميلي المستر دوكالد ستيوارت في خيامهم المنصوبة على حافة الصحراء، المسيطرة على قرية سيكال من قبل. وهي قرية واسعة، حولها أراضٍ غنية، واسعة، تشتهر بزراعة الشلب.

ومن هذا المكان احتلت عشيرة آل عيسى قرية قبيبة وبَنَتْ فيها حصناً صغيراً من الطين وضعت فيها قوة بقيت إلى أن ثارت عليها عشيرة الفرطوس الساكنة في قبيبة وأستردت القرية منها.

وتشاء الصدف أن أمرّ أنا وزميلي دوكالد في هذه القرية بسرعة بعد مضي سنة على ثورتهم ضد تلك العشيرة. وكان الجذافون من آل عيسى، يحملون بنادقهم وهي جاهزة للاستعمال ولا يتبادلون التحايا مع القرويين لأن هناك عداوة دم معهم.

ولما عرفت أن الرجل الذي ضمدت جروحه في مضيف جاسم هو أحد رؤساء المتمردين بدأت أسأله حول المعركة التي دارت بينهم فأجابني وهو في غاية الحماس «آل عيسى ما لهم حق بهل المكان. ما هم معدان بل رعاة أغنام من الصحراء. قبيبة هي قرية في الأهوار تعود إلى عشيرة الفرطوس. آباؤنا بنوا الدبن فيها. ومن اليوم اللّي استولى فيه شيوخ آل عيسى على قبيبة ما خلت من القلاقل. معظمنا ترك القرية وشيدنا دورنا في مكان آخر. ليش نُطرد من بيوتنا؟».

فقال أحد الأشخاص الحاضرين «إي والله. ليش نُطرد من مكاننا؟. الله يلعن آل عيسى».

ثم استطرد قائلاً [ولهذا السبب قررنا أن نقاتلهم. طوقنا الحصن ليلة الثاني عشر من شهر قُصير Qusair، وبعد ثلاث ساعات من مغيب الشمس بزغ القمر فأنار بأنواره الفضية المنطقة بأسرها. كنا نعرف أن في الحصن ستة أشخاص وفيها رئيسهم المدعو فليح. أرسلنا إليهم الزائر علي العجوز ليخبرهم بأن يستسلموا، لكنهم أبوا وصاحوا قائلين لنا أنتم المعدان،

كلاب أولاد كلاب، إذا تقربتم سوف نقتلكم. وعند ذاك هجمنا عليهم من جميع الجهات بمشاحيفنا ونحن نصيح صرخة المعركة (أنا أخو عليا)].

ونظرت في هذا الوقت إلى المستمعين فوجدتهم قد أمالوا أجسامهم إلى الأمام مأخوذين بسحر حكاية الحرب العشائرية، ولا بدّ أن معظمهم قد سمعها عشرات المرات.

وواصل سرد المعركة فقال [كان عندهم رشاشه. أخذت الإطلاقات تتساقط كالمطر وتقطّع القصب. والحمد لله. كان العبد الذي يطلق النار رامي غير جيد وإلاّ كان الكثير منا سيقتل في تلك الليلة. قفزنا من مشاحيفنا وهجمنا على الحصن. وكنا قد قتلنا منهم رجلين ببنادقنا قبل دخولنا الحصن. ثم قتلنا رجلين آخرين بخناجرنا. أصبحنا مزدحمين داخل الحصن عندما أطلق الرجلان الباقيان من آل عيسى إطلاقات من خلال أرضية الغرفة التحتانية وأصاب أنف أحد رجالنا. صاح المجروح «أصابوني من فوق»، أطلقنا النار نحو السقف وقتلنا الآخر. بقي فليح وحده حياً. صحنا عليه بأن يستسلم. لكنه رفض، إنه رجل شجاع في الحقيقة. تسلق بعض الرجال من أتباعنا الدرج فرماهم وقتل شخصين منهم وكانا أخوة، ثم صاح صيحة المعركة وقفز من السقف، لكنه سقط على الأرض بعد أن أصبح جسمه كالغربال من رصاصاتنا، كان ابنه الصغير معه فطلب منا الرحمة فمنحناها له، إنه لا يستحق الموت، إنه الآن في سيكال مع شيوخ آل عيسى. قُتل اثنا عشر رجلاً من عشيرة الفرطوس في هذه المعركة].

ولما توقف عن سرد الحكاية، قفز فالح من بين الجلوس وأخذ يضرب الأرض بقدميه وينشد ويقول:

«يا أم كريّم لا تنوحي كريّم وكع بعز المعركة»

وما هي إلاّ لحظات حتى نهض الجميع وأخذوا يدورون على شكل حلقة ويضربون الأرض بأقدامهم ويرددون تلك الكلمات التي قالها فالح.

خرج فالح ثم عاد ومعه بندقية وبدأ بإطلاق عدة عيارات نارية متقطعة باتجاه السقف فشاركتهم في حماسهم هذا وأطلقت عشر اطلاقات من بندقيتي. واندفع أناس آخرون إلى الغرفة فازداد هدير الأصوات وعلا الصراخ. وأخيراً، توقفوا بعد أن أعياهم التعب وأنهك قواهم.

سألتهم من هو كريّم. فأجابوا بأنه هو الشخص الذي قُتل أثناء قيادة الهجوم على الحصن. وبعد ثلاث سنوات، ذهبت إلى البر الرئيس ومكثت لدى آل عيسى. وعند غروب الشمس شاهدت الهلال، وهذا معناه بداية شهر جديد بطول شهر رمضان.

وفي اليوم التالي، تجمّع أفراد العشيرة المبعثرون ليعلنوا ولاءهم لشيخهم ويتناولوا طعام الوليمة في خيمة الضيوف الكبيرة.

بدأ الرجال يتقاطرون منذ وقت الفجر من السهل عبر الصحراء. بعضهم على ظهور الخيل وبعضهم الآخر راجل. وكل جماعة لها علم قرمزي خاص بها.

وبعد أن تجمعوا، بدأوا بالألعاب على ظهور الخيل. فبعضهم يهجم والآخرون يصدون الهجوم. بينما كان المشاة قد شكلوا حلقة وبدأوا يدورون ويضربون الأرض بأقدامهم ويطلقون النار من بنادقهم وهم ينشدون:

"راح نرجع للماي المكشوف   راح نروح ونجيب ويانا فليح"

وتذكرت هذه الليلة قصة موت فليح على يد أحد رجال عشيرة الفرطوس.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم الثاني ودعت جاسماً. جاء معي داود ومعه شخصان من إتباع جاسم، يحملان البندقية، سلكنا طريقاً ضيقاً بين القصب العالي، لأن المياه مسدودة بسبب النباتات المائية والأعشاب الأخرى المتشابكة والتي كانت تبدو للعيان كأنه طريق مكسو بالطحلب.

لقي الجذافون صعوبة ومشقة حتى يضعوا المرادي على المشحوف ويدفعوه من خلال هذه النباتات المتشابكة.

وفي هذا الوقت مررنا بقرية قبيبة فوجدتها قرية واسعة تحتوي على (٣٠٠) بيت ثم وصلنا إلى المجرى الصغير للبحيرة. وتقع خلفها حقول الشلب على الضواحي الغربية لقرية سيكال. وتقع البحيرة على شرق القرية وهي بعرض (٣ ـ ٤) ميل وتفصل الأهوار عن البر الرئيسي.

وفي هذا الوقت من السنة، تمتد البحيرة إلى مسافة (١٥) ميلاً تقريباً نحو أراضي عشيرة الأزيرج. وتتصل هذه البحيرة بعدئذٍ عند ارتفاع منسوب المياه بسبب الفيضان بالأراضي المغمورة بالمياه فتغطي معظم أجزاء الصحراء.

وجدت قرية سيكال أكبر القرى التي شاهدتها إلى الآن. يمر من بينها مجرى ماء عريض فيقسمها إلى قسمين. وعلى كل الجانبين من كل قسم شريط ضيق من أرض يابسة عليها عدد من المضايف والدكاكين علاوة على (٤٠٠ ـ ٥٠٠) بيت مبنى على طراز بيوت المعدان فوق الدبن. وهناك حصن مبني من الطابوق يسيطر على المدخل الشرقي للقرية.

أقام هذا الحصن آل عيسى على عجل حينما أخذت عشيرة البومحمد تهدد القرية. وبإمكانك أن ترى الشقوق على أسواره. وعلى الجهة المقابلة، على الساحل الجنوبي، بناية ذات سطحٍ مستوي مبني بالطابوق، غايتهم منها الدفاع عن القرية عند نشوب القتال. وترى عدداً من الغرف مبنية حول ساحة صغيرة. وعلى بعد (٣٠) ياردا، فوق لسان الأرض اليابسة الممتدة نحو البحيرة ينتصب مضيف فاخر فيه (١١) قوساً. وكلاهما يعودان إلى عبد الله عم الشيخ فريد وممثله في سيكال. أما الشيخ فريد نفسه فإنه يعيش في البر الرئيس مع أسرته وأتباعه. وأما بقية المساكن في القرية فإنها تعود إلى بعض أفراد أسرة الشيخ فريد وأتباعهم ومعهم أفراد ينتسبون إلى

عشيرة الفرطوس وعشيرة الشغابنا كما يتواجد فيها عدد قليل من عشيرة البومحمد والأزيرج. كان عبد الله خارج القرية في هذا الوقت، ولكن إبنه طاهر كان في البيت، وهو صبي ميّال إلى الصداقة، يبلغ من العمر (١٦) سنة ويتحلى بصفات عرب الصحراء الحسنة.

أخذني إلى المضيف، فوجدت فيه عدداً من الرجال المسلحين وهم جلوس وقد لفّوا العباءات السوداء حول أنفسهم. وهؤلاء من أتباع آل عيسى جاءوا لفرض الزيارة من البر الرئيس من الصحراء. وبعد أن شرب الشخصان اللذان من أتباع جاسم الرشفات المعهودة من القهوة عادا إلى قريتهما العويدية لأنهما من عشيرة الفرطوس ويكرهان آل عيسى كرهاً شديداً.

أما داود فإنه كان في مأمن بما فيه الكفاية في «ميكال»، طالما والده المدعو هاشم لا ينتمي إلى عشيرة الفرطوس بل إنما ينتمي إلى عشيرة الجاره Jara، وهي عشيرة صغيرة، ضعيفة، موزعة على شكل مثنى وثلاث من قرى الأهوار. أما إذا عبر عشيرة الأزيرج فإنه سيكون في خطر لأن أباه هاشم قد قتل أحد أفرادها.

والآن، وبعد أن شعر عبد الله بأنه يقوم مقام والده، جلس ساكناً لا ينبس ببنت شفة يعبث بحبات المسبحة ولا يستجيب إلى محاولات طاهر الذي يحثّه بأن ينهج نهجاً ينم عن الصداقة.

أنهى هاشم محكوميته وأطلق سراحه من السجن وعاد إلى قرية العويدية ليستقر فيها. وبدأت أتعرف إليه. فوجدته من أهم الشخصيات الجذابة التي صادفتها بين المعدان. عمره (٤٠) سنة، إلا أنه يبدو أكبر من هذا العمر بكثير، لأن السنوات العشرة التي أمضاها في السجن قد وخطت الشيب في رأسه وجعّدت وجهه. وهو على الرغم من كونه فقير الحال ومعدماً فإنه كان يلح كثيراً على أن يضيّفني. أعلمني بالشيء الكثير عن المعدان، وعن عاداتهم.

كان لا يزال متورطاً في العداوة مع الأزيرج، لأن المدة التي يقضيها المرء في السجن لا تجعله يقلع عن القيام بالقتل كما يرى ذلك كل فرد من أفراد العشيرة بل إنما يرون أن القتل لا يمكن تسويته إلاّ بقتل آخر أو بدفع الديّة.

كانت العشيرة التي ينتمي إليها هاشم قليلة العدد جداً ومنتشرة في أماكن عديدة يصعب جمع المالَ منها لدفعها كديّة إذا ما أرادت عشيرة الأزيرج قبولها.

وعلى أية حال، إنه في أمان تماماً من الانتقام ما دام يعيش الآن بين عشيرة الفرطوس في قرية العويدية. ولكن، من سوء حظه حثوه على ترك القرية. وفي الوقت الذي كان فيه هاشم يمضي محكوميته في السجن كان أخو زوجته المدعو جاسم قد زوّج ابنة هاشم إلى أحد أفراد عشيرة البومحمد وأخذ مهراً قدره (٧٥) ديناراً. وصرف جاسم، كما هي العادة المتبعة بينهم، قسماً من النقود لشراء مستلزمات العرس لتحملها العروس إلى بيتها الجديد. ولما خرج هاشم من السجن طلب بقية المبلغ من جاسم الذي ادعى أنه صرفه لاعاشة عائلته عندما عاشت في داره.

وفي هذه الحالة، وفقاً للعرف العشائري، بإمكان الوالد أن يعيد ابنته المتزوجة إلى بيته حتى إن كان ذلك ضد رغبات ابنته وحتى إنْ رزقت طفلاً من زوجها. وعلى الوالد، في مثل هذه الحالة، أن يعيد المهر كاملاً إلى الزوج.

مارس هاشم هذا الحق على الرغم من أن إبنته قد رزقت بطفل. وجاء الزوج إلى هاشم يطالبه بالمهر فأجابه بأن يأخذها من جاسم. ولما لم يحصل الزوج على أي شيء من جاسم أقام الدعوى ضد هاشم في الدوائر الحكومية.

بعثت الحكومة بشرطيين لجلب هاشم إلى مدينة العمارة لإجراء التحقيق معه. وكان هذان الشرطيان من عشيرة الأزيرج ـ ولا ندري إذا كان

هذا من سوء حظه أم أن الأمر مدبر، وخصوصاً أن أسرة القتيل حكّمت بأن يكون طريقه من أراضيهم.

وحينما علم هاشم بالطريق الذي سيسلكه احتج بشدة ورفض سلوك هذا الطريق، لكنه استسلم للأمر الواقع بعد أن أكد له الشرطيان بأن لهما واجباً يجب إنجازه في هذا الطريق وأنه سيكون في مأمَن تماماً طالما هو في معيتهما.

توقفوا في السوق الطويل، ونزلوا من الزورق وتناولوا الغذاء في مركز الشرطة، ولما خرجوا حتى يواصلوا السير وجدوا الجماهير قد احتشدت أمام مركز الشرطة.

تقدم في هذه الأثناء أخو القتيل نحو هاشم حاملاً مسدسه الذي استعاره من الشيخ وأطلق النار عليه فأصابه في صدره. وسحب هاشم خنجره ليهجم على من أطلق النار إلاّ أن قواه انهارت وسقط على الأرض. وبعد أن أطلق القاتل رصاصتين ولّى هارباً. وتظاهرت الشرطة بالمطاردة وتعقب الجاني. أما هاشم فبقي ممدداً على الأرض، تنزف منه الدماء إلى أن مات ولم يقترب منه أحد.

عادت الشرطة بعد ساعة ونقلته إلى المركز وكان لا يزال يحتفظ بوعيه فاتهمهم بقتله وفارق الحياة بعد ذلك.

رأيت داود بعد ستة أشهر من مقتل والده. وجدته قد اشترى مسدساً. كان ينطلق لوحده إلى أراضي الأزيرج حتى يجد غريمه الذي قتل والده.

كان داود شخصاً موفوراً، ويبدو أن الصدمة قد أثرت عليه فأصبح مرتبكاً، وحاولت أن أثنيه عن عزمه، وأمنعه من الذهاب وحيداً إلا أنه كان عنيداً يرفض محاولاتي ويقول كلمات لا معنى لها مثل «داود مات قبل عشر سنوات».

لم أشاهده مرة أخرى أبداً.



١٤ ـ العودة إلى قباب

أخذني طاهر بطرادة إلى البحيرة عند العصر، فتجولنا بين المناطق المحيطة بنا وتمتعنا بمناظر خلابة، تدخل البهجة والسرور إلى النفس، وبعمله هذا برهن طاهر على أنه رفيق قابل للانسجام.

كان يصطحب معه صبياً صغير السن، هادىء الطباع، عاداته حسنة، يرتدي عباءة مطرزة بخيوط ذهبية. وحسبت في البداية أنه من أقارب طاهر، ولكن عرفت فيما بعد بأنه ابن فليح. وهذا الصبي هو نفسه الذي كان مع والده حينما قُتل في المعركة في قرية قبيبة.

عدنا إلى المضيف عند الغسق، ولما دخلته، شاهدت مجموعة من الخفافيش (الوطواط) تطير وهي خارجة من القرية باتجاه الأهوار. يبدو أن هذه الخفافيش تختفي في سقف المضيف فتتوسخ الغرفة من فضلاتها المتساقطة. وأن وجود العصافير داخل السقف يسبب ازعاجاً ويحدث أضراراً لأنها تمزق رباطات القصب حول الأطواق. لكنني، ما اكتشفت أبداً لماذا وكيف تفعل هذا.

وفي السنة الثانية، حينما جئت إلى هذه القرية، جلبت معي بندقية هواء مضغوط من إنكلترا وهي من الأسلحة المستعملة للتسلية واللعب. وأريتهم كيف أنها لعبة مفيدة مع الأشخاص الغرباء الذين اعتادوا المجيء إلى المضيف. ولما أخرجتها تجمع حولي الرجال وبينهم المسنون ليجربوا



مساكن المعدان من قرية قباب

الرمي بها. وبوسع المرء أن يحصل على علاقة طيبة مع غيره إذا ساعدهم على قتل شيء ما.

وفي الصباح الباكر من اليوم الثاني خرجت مع داود لنذهب إلى قرية العكار. ولما بدأنا نجذف عبر البحيرة ذات المياه الفضية، شاهدنا طيوراً مائية رمادية اللون، تشبه العصافير تقذف نفسها على المياه اللمّاعة. كما شاهدنا عدداً من البط، تجمعت حتى تبدأ بالهجرة الربيعية فطارت عندما اقتربنا منها.

ووراءنا، في قرية سيكال، كانت المشاحيف تسير ببطء وبدون أن تحدث أي صوت بين البيوت التي أستيقظ ساكنوها. وكلما ابتعدنا كنا نشعر وكأن القرية تغوص في الأفق.

واصلنا السير إلى أن لاح لعيننا مضيف عبد الله وعرفنا مكانه. إذاً، نحن خلف عالم الأهوار المسدود حيث تنمو نباتات القصب الجديدة، ترتفع في نموها خلال الأيام القليلة القادمة فتصبح عالية بين النباتات القديمة.

وبعد مضي ساعتين وصلنا فجأة إلى مياه مفتوحة، رأينا في وسطها

جزيرتين تابعتين لقرية العكار. فالجزيرة الكبيرة تعود إلى الشغابنا. فيها ما يقرب من (٢٥٠) بيتاً، متراصة ومتقاربة بعضنها من بعض بحيث لا يمكن رؤية أي جزء من الجزيرة.

أما الجزيرة الصغيرة فإنها تبعد مقدار (١٠٠) يارد، فيها ثلاثون بيتاً وهي تعود إلى بعض أهالي البومحمد. وتدين كلتا الجزيرتين بالولاء للشيخ مجيد الخليفة. نزلنا إلى الشاطىء، وواصلنا سيرنا، فاجتزنا حاجزاً واطىء الارتفاع مؤلفاً من كومة من الأسل المشبّع بالماء. ثم دخلنا الربعة فرحّب بنا رجل يدعى يونس.

كانت الربعة واسعة. وأما يونس فإنه رجل نحيل الجسم، ذكي، ذو وجه نقي، تظهر عليه علامات الصداقة ولو أنه متحفظ الطبيعة.

كانت الغرفة مزدحمة بالجالسين. يجلس في صدر الغرفة رجل سيّد جاء من القرنة. فانتهز الفرصة حينما بدء بجمع المال لفرض بناء جامع في القرنة على ما يبدو ظاهرياً فأخذ يحذر مستمعيه ويذكّرهم بيوم القيامة، يوم الحساب وأنه يوم قريب. وإنه يخشى عليهم من أنهم لن يستطيعوا أن ينقذوا أنفسهم من الذنوب التي ارتكبوها بسماحهم لشخص كافر يدخل بيوتهم ويدنسها. كنت أشعر أنه مستاء من وجودي هنا، أما يونس الذي كان يعدّ القهوة فإنه بقي صامتاً. وعندما أصبحت القهوة جاهزة، نهض والدلّة بيده والتفت نحو السيّد وقال: «أنا شخص معيدي بسيط، ما أعرف من أمور الدين شيء، لكن، دائماً أشوف الإنكليز هم ناس أصفى منا قلباً بكثير. بعض الناس إلتقوا وياهم. وكلنا سمعنا عنهم من اليوم اللي حكموا هذه الأرض من بعد طرد الأتراك. هم ناس ما يكذبون، ولا يأخذون الرشوة، ولا يضطهدون الفقراء. ونحن المسلمون، كما تعرفون، نفعل كل هذه الأشياء. وهل حجي ماله علاقة بالموضوع. فهذا الإنكليزي هو ضيفي. مرحباً يا صاحب موجهاً كلامه إليّ ثم واصل حديثه قائلاً «في بيتي يشرب الضيوف من نفس الفنجان. هاي هي عادتي، وكلمن ما يعجبه مثل

هذا العمل خلّي يبتعد عني ثم جاء نحو المكان الذي أجلس فيه وأعطاني فنجان قهوة في الفنجان الوحيد الذي بيده. ولما اكتفيتُ صَبَّ القهوة في الفنجان وأعطاه إلى الشخص الثاني وهكذا حتى شرب الجميع ما عدا السيّد.

ومن بعد هذه الحادثة، جاء سيّد من العكار ودخل الغرفة. وهو رجل مسكين، أمضى معظم حياته في قطع القصب علفاً لجواميسه القليلة العدد، وهو يشبه المعدان الآخرين المعدمين، لكنه يتميز عنهم بوجود قطعة خضراء من القماش على رأسه.

جلس بجانبي، واستفسر عن أحوالي عدة مرات. وأظن أنه كان قد سمع عن تصرّف زميله السيّد الآخر ويريد باشتياق أن يصلح ذلك التصرف.

وبعد تناول العشاء قال ليونس «أسمع بأن الصاحب يحب الغناء والرقص، اسمحوا لي أن أراويه شلون يرقص الناس في الحجاز، أرض أجدادي». فأدى رقصة فاخرة كان يدور فيها على قدم واحدة. وهذه الرقصة تختلف تماماً عن رقصة المعدان.

إنني معجب جداً ومغرم بالإيماءة، لذلك كنت أجد متعة ولذة حينما يرقصون. وأعتقد أن ذلك السيّد هو الشخص الوحيد الذي كان فظاً معي، على الرغم من أنني كنت ألتقي بأناس كثيرين فأجد أكثرهم متحفظين حينما ألتقي بهم لأول مرة ولكنه يتخلون عن هذا التحفظ بمرور الوقت حتى أصبح عدد منهم منم أقرب أصدقائي. وكثيراً ما كنت أعالج نساء بعض الشخصيات البارزة وأولادهم كما كنت أجري عملية الختان. وكانوا يتمنون أن يجريها لهم شخص مسلم.

وفي صباح اليوم التالي، إقترح يونس بأن نتفرج على حفلة العرس في ربعة واسعة تقع بالرقص، جاءوا به من المجر. وكنا نسمع في بعض الأوقات من مكان بعيد أصوات الغناء والضرب على الدرابك.

كان هذا الصبي يرتدي ثوباً نسائياً قرمزي اللون، فيه خيوط تحاكي اللآلىء، يضع في أذنيه أقراصاً ذهبية، مشّط شعره وعطره ورتّبه بحيث جعله يتدلى على كتفيه. أما صدره فقد حشا بحيث يظهر كالنهدين وزيّن وجهه بالمكياج، فظهر كأنه فتاة فتانة الحسن وأخذ يتصرف بتكلّف بأسلوب المرأة. ووجدته يجيد الرقص تماماً. استعمل زوجان من الصنج في كل يد، وهذه هي علامة الراقص المحترف، لأنني لم أرَ أيّ شَخص آخر في القرية يستخدم الصنج. والغريب أن إيماءاته كانت غير مثيرة. على عكس إيماءات الصبية الآخرين في قرية العويدية، وكانت أكثر رقصاتهم أشبه بعرض جنائزي من نوع راقٍ. والتعليقات التي سمعتها كثيراً عنه جعلتني على يقين من أنه ينزع نزعة أخرى.





قرية قباب ـ الجواميس تهجع من وقت الظهيرة

لا توجد بين العشائر نساء متحررات أو من نوع آخر. ولا يحتاج المرء إلاّ لشيء قليل من الإثبات حتى يدين الفتاة بتهمة تبقى تلازمها. أو أن مجرد إشاعة هي كافية لهذا الغرض وتناول القتل على يد أسرتها بدون رحمة أو شفقة وذلك حتى تسترد تلك الأسرة شرفها بمحوها العار الذي

لحق بها، وينتقل واجب تنفيذ القتل إلى أخيها والذي لا يمكنه تخلصيها إذا ما أراد البقاء بين عشيرته.

لا يستطيع الصبي أن ينام مع الفتاة أو حتى لا يستطيع ملاطفتها إلى أن يتزوجها.

فالصبي الذي يتزيا بزي فتاة هو السيء المحترف في المدينة. والمعدان يصفونه بذلك. ولكنني ما سمعتهم أبداً يتباحثون باللواط، لا نظرياً ولا بإشارة خاصة لأي رجل أو ولد في مجتمعهم.

وبعد انتهاء الرقص أخذني يونس إلى ساحة حيث تجديد زورقه. ولا تدوم عملية التجديد ووضع الغار طويلاً بحيث لا تتجاوز السنة الواحدة. ثم تبدأ الشقوق بالظهور على هيكل الزورق لذلك يسحبونها إلى خارج الماء.

يمكن سّد هذه الشقوق بصورة مؤقتة بتسخين القير بالقصب. ويؤكد لنا المعدان على الدوام من أن الطبقة القيرية التي توضع في جو بارد لا تدوم طويلاً بقدر ما تدوم الطبقة القيرية التي توضع في فصل الصيف.

رأيت داخل السياج أو الحاجز القصبي عدداً من الزوارق سُحبت من المياه لتجديدها. فكانت إحداها مقلوبة وقد انتهى الصبيان الصغار وربعة من عملية وضع القار في القعر والجوانب.

رأيت الساحة كلها مفروشة بقطع من ألواح الخشب وبزوارق مهمشة تفوح منها رائحة القار الحار.

صاح أحد الصبيان قائلاً: «علي. يونس هنا». فخرج رجل عجوز، يرتدي دشداشة قذرة، من أحد البيوت. فسأله يونس: «هل انتهيت من عمل زورقي؟». فأجاب علي قائلاً: «لا. لم أنتهِ بعد من العمل. راح يخلص بعد شوية الفروخ على وشك أن يقشروها». ثم فرش حصيرة قبالة جدار

بيته وقال: «اجلسوا. ارتاحوا إلى أن ننتهي من العمل». ثم نادى على أحد الصبية وقال له «حسن. إبني. روح وقل لهم خلّي يسوون شاي». قلت له بأننا شربنا الشاي لتونا في بيت يونس وشربنا منه الكثير عند مشاهدتنا للرقص. لكنه أصرّ وقال «ما يخالف. إشربوا بعد». ثم ذهب ليفحص الزورق.

كانت الألواح الخشبية المكشوفة مليئة بالثقوب والشقوق. فأخذ يختار من القطع الصغيرة المبعثرة على الأرض قطعاً يرقّع بها بحيث يجعلها تتلاءم مع الثقوب والشقوق ثم يثبتها بالمسمار. ثم سكب الصبي الأكبر القار المغلي بواسطة المجرفة في قعر الزورق ثم أخذ علي يفرشها بسمك ربع عقدة. ولما انتهى من عمله، بدا الزورق للعيان كأنه زورق جديد، أسود اللون، ناعم الملمس ولمّاع.

جاء علي وجلس بجانبنا وأشعل سيكارة وقال «انتظر شويه حتى تأخذ الزورق معك». ثم بعث حسن ليأتي بالمجاذيف. وكنت قد لاحظت أن جميع الزوارق ترسو ليلاً بعيداً عن البيوت، وعلى بعد مائة يارد في الهور. فسألت عن السبب فقيل لي حتى تبقى سالمة لعدم وصول الجواميس إليها وتأكل القار ـ هذه عادة تتبع في بعض القرى وليس في كل قرية.

ولهذا السبب، يستفسر المعدان حينما يصلون إلى قرية غريبة عما إذا كانت الجواميس تأكل القار أم لا. كانت سمعة جواميس العكار سيئة من هذه الناحية. وكما قال لي من أن القار يأتيهم من مدينة هيت الواقعة على نهر الفرات والقريبة من بغداد. ولما كنت في هذه المدينة في إحدى المرات، شاهدت البرك الصغيرة من القير حيث تظهر الفقاعات المذابة منه لتخرج إلى الأرض. وبعد أن تبرد، تُرسل على شكل قطع صلبة إلى المكان المطلوب وهي أشبه بقطع الحصى المتكسرة المفروشة على سطح الطريق.



صبي من عشيرة الفريجات من قرية قباب

لا توجد أخشاب صالحة للزوارق في جنوب العراق. ويفضل صانعو الزوارق خشب شجر التوت يجلبونها من كردستان ليصنعوا منها أضلاع الزورق. وأما الألواح الخشبية المستعملة في صناعة الزورق فهي من الخشب المستورد من خارج الوطن. وهنالك صنّاع محترفون، مهرة، مثل علي في كثير من القرى الكبيرة في الأهوار وحولها. وفي الهوير الواقعة على نهر الفرات، والتي تبعد عدة أميال أسفل قرية الكبيش، يولي الناس كلهم اهتمامهم لهذه الصناعة فلا يصنعون الزوارق فقط بل إنما يصنعون القوارب الكبيرة ذات الصاريين. فالحاج حميد الذي يسكن هناك أكثرهم شهرة في هذه الصناعة.

وطراداته التي يصنعها هي أشهر من نار على علم في كل هذا الجزء من القسم الجنوبي من العراق ولكن هناك عدد قليل من الناس ذوو صناعة جيدة تقريباً ومشهورة. وبإمكان المعدان معرفة الشخص الذي صنع هذه الطرادة حالما ينظرون إليها.

إن سكان الهوير هم جميعاً مسلمون، ولكن في أماكن أخرى تجد معظم صانعي الزوارق من الصابئة.

ولو أن الصابئة جاء ذكرهم ثلاث مرات في القرآن مع النصارى واليهود بأنهم من أهل الكتاب فإنهم يُعرفون باسم الصبّة. وهم محتقرون بشكل عام. ولا يأكل أي مسلم أو يشرب معهم. ودينهم يمنعهم من بتر أي عضو من جسمهم، ولذلك فهم لا يجرون عملية الختان. ويمكن تمييزهم من لحاهم الكبيرة ومن كوفيتهم ذات الترابيع الحمراء والبيضاء.

هنالك عدة آلاف من الصابئة، معظمهم يسكنون بغداد والبصرة وسوق الشيوخ والعمارة حيث يشتهرون في هذه الأماكن بالصناعات الفضية. وتعيش أسر منعزلة في قرى إسلامية تقع حول الأهوار. وأن البط الذي يتواجد في المزارع علامة على وجودهم، لأن المسلمين، لأسباب لا تحصى، يأكلون البط البري ولا يأكلون البط الداجن.

يمارس الصابئة التعميد، فيغطسون في الماء كل يوم أحد وعندما يصبهم الدنس وإلاّ فإنهم يخرقون قوانين طهارتهم الدينية. ولهذا السبب يعرّفهم الأوروبيون الذين لا يجهلونهم بأنهم مثل مسيحيي سانت جون.

وفي الحقيقة هم وثنيون ولو أنهم يعبدون الله. ويشتمل دينهم، كما أفهمه، على مبادىء من المذهب الآلي وليس على مبادىء إسلامية وإن لغتهم الشعائرية هي اللغة الآرامية.

وفي الأهوار، يضع الأطفال الأطواق الصغيرة في حزم من نبات مائي يسمى عشبة البرك ويحولونها أحياناً إلى شكل سفينة ويجذفون حول القرية بمثل هذه الصناعات البدائية (راجع الألواح من ٤٦ ـ ٤٩).

وشاهدت مرة نوعاً من قارب صغير ممتع يسمى زيمة على فرع من نهر الفرات تحت سوق الشيوخ. وهذا القارب مصنوع من القصب ومطلي من الخارج بالقير، طوله (١٠) أقدام تقريباً وعرضه في أوسع مكان قدمان ونصف وقال لي صاحب القارب بأنّ الزيمة تدوم لمدة سنة فقط لأنه لا يمكن تجديد طبقة القير وبيّن لي كيف يصنعون هذا القارب. عمل أولاً ست رزمات محكمة الربط من القصب، كل رزمة مؤلفة من (٥ ـ ٦) قصبات. وطول كل قصبة أطول من القارب المزمع صنعه. ثم يربطها بأحكام سوية بحيث يصنع الواحدة بجانب الأخرى حتى تشكّل عارضة القارب الرئيسة. ويترك مقدار (١٨) عقدة سائبة من كلا الطرفين حيث يثنيها إلى الأعلى. ثم ثنى خمسة عيدان طويلة من القصب على شكل الحرف

(U) في مكان يقع بعد منتصف القارب وبين النهايات السائبة من العارضة ثم ربطها مرة أخرى بالعارضة نفسها. يكرر هذه العملية من كلا النهايتين بالتعاقب إلى أن يبنى جوانب ونهايات هيكل القارب.

ويقوّي هذا الهيكل بربط عدد من الأضلاع المعمولة من غصنين أو ثلاثة من شجر الصفصاف. ثم يضع على طول بطن القارب حزماً من عدد قليل من القصب، يثبت الواحدة تحت الأخرى. ويغطي النصف العلوي للأضلاع ويشكل الألواح الداخلية.

وأخيراً يُدخل ثلاث عصي قوية عبر القارب بالعرض ويضبط نهاياتها في مكان ويضع عليها مقداراً كبيراً من القير. تصبح الزيمة الآن جاهزة للطلاب من الخارج بالقير. وفي الوقت الحاضر، يملك حتى أفقر المعدان قوارب خشبية. ولكن في الماضي كانت المواصلات محفوفة بالأخطار ومن الصعب الحصول على الخشب لذلك استخدم الكثيرون مثل هذا النوع من القارب. ويسمون القارب المدور الشكل بـ (القفة) وهي شائعة الاستعمال حول مدينة بغداد، وشاهدت إحداها من أبعد مكان تحت مدينة الكوت، بالقرب من شيخ سعد.

ومن قرية العكار قررت العودة إلى قباب، حيث يمكنني منها أن أبعث داود حتى يخبر عماره بقدومي.

رافقنا اثنان من أبناء أخوة يونس. أحدهم يجرف القارب بطريقة غير متقنة كلما يدفعها بحيث يتدفق الماء من الجوانب. وسرني حينما سمعت الآخر يسأله باستهزاء «هل أنت عربي؟. هل أنت كردي؟» يقصد ضمناً أنه ليس بالتأكيد معيدياً.

وكان طريقنا يقع بين منابت القصب الكثيفة طوال سيرنا إلى «أبومفيفات». وبعد أن شرعنا بالحركة صادفنا عائلة كانت بكاملها في حالة تنقل. فشاهدت صبيّين يحثّان ستة جواميس على السير، وهما يسيران وراء

البلم الذي كان يجذفه رجل أكبر منهما ومعه صبي آخر ويصيح صيحات حتى يحث الحيوانات السابحة على الحركة. وكانت تجلس في مؤخرة القارب امرأة ومعها ثلاثة أطفال، أحدهم عاري الجسم وحول رقبته باقة فضية ومعهم عجلان من عجول الجاموس وهرّة صغيرة وعدد من الدجاج.

أما في الطرف الأمامي، فكانت حاجياتهم مكدسة فيه إلى ارتفاع عال بما في ذلك هياكل بيوتهم وحصران من القصب وجرار ماء وقدور الطبخ وأكياس من الدقيق وكومة من البسط. وفوق هذه الكومة يجثم كلب بين دعامتين خشبيتين لمخضة اللبن، وكان ينبح علينا حينما مررنا من جانبه.



فتاتين من عشيرة الفريجات

ولما سمع صدام بوصولي إلى قرية الكار، بقي ينتظر قدومي ليرحب بمجيئي إلى قرية قباب. ولما وصلت القرية، استفسرت عن صحة عوده وعن صحة ابنه فأجابني قائلاً: «يقبّل أياديك. راح إلى الدكان ويرجع بعد شوية». وحالما نزلت من القارب وصل أول مريض من مرضاي، وهو شاب يئن يتلوى في بطن القارب، كان الألم فوق كليته وجاء وهو يتعذب عذاباً شديداً من الألم الناجم من تشنج العضلات. إنصبت شكوكي بأن ألمه هذا ناجم من وجود الحصى في كليته. فحاولت إسعافه. إذ بدأت أدلك جنبه بمرهم الفلفل. ولما زال التشنج العضلي قال لي بأنني أنا الذي شفيته. فشعرت بأنني دجّال أكثر من المعتاد.

وعلى أية حال، أصبح (دوائي المحرق) أكثر شيوعاً بين المعدان الذين يعانون في كثير من الأحيان من هذه الآلام والتي يسمونها (وجع الخاصرة).

وقد أراني مرّة صبي يبلغ من العمر (١٢) سنة بعض الحصى، أكبرها بحجم حبة الحمص كانت قد نزلت مع الأدرار البولي لتوها. وفي مناسبة أخرى، جاءني سيّد ذو شأن، شاب، طلب مني الدواء المحرق حيث قال لي بأنه يعاني سنوياً من آلام الخاصرة. فوضعت له شيئاً قليلاً من هذا الدواء في علبة كبريت فارغة وحذرته بأن لا يقربها من عينيه وأن يغسل يديه بعد الاستعمال. لكنه عاد بعد مضي عشر دقائق وهو يهذي هذياناً شديداً وقد فقد رشده تقريباً. والسبب هو أنه لبعض الأسباب التي يعرفها جيداً فرك قضيبه بهذا الدواء فبدأ يتألم ويقفز، وأقسم أغلظ الأيمان من أن الألم كاد أن يقتله. فاقترحت عليه بأن يغتسل بالماء والصابون بشكل جيد. ولما رأى أحد نوتية زورقي حالة السيد التي لا تطاق قال مازحاً بأنه يتوجب من السيّد أن يبرّد نفسه بمضاجعة زوجته.

وفي اليوم التالي، وقبل أن يشق الفجر، أيقظني داود قائلاً بأن بعض الناس جاءوا بصبي مجروح. ولما دخل الصبي البالغ من العمر (١٢) سنة بصحبة رجل وامرأة ليساعداه رأيت دشداشته المقلمة باللون الأزرق والأبيض ممزقة ومخضبة بالدماء، وغطى النصف الأسفل من وجهه بخرقة مخضبة أيضاً بالدماء. ولما فحصته رأيت بأنّ له عينين سوداويتين ووجهاً ذا بشرة بيضاء وأخذ يحدّق بي.

سألته عما حدث له فقال وهو يرتجف: «الكلب عضني» وضعت البطانية العائدة لي حول جسمه ثم أوقدنا النار حتى نغلي شيئاً من الماء ثم بلَّلتُ الضمادة ومسحت بها وجهه ورأيت خدّه ممزقاً تتدلى منه قطعة بحيث أمكنني رؤية أسنانه الخلفية. كما رأيت عدة عضّات في ذراعه وكتفه. وأخذ يراقبني حينما بدأت بتنظيف الجرح وتعقيمه ثم وضعت مسحوق السلفونمايد ثم خيطت القطعة المتدلاة بعناية في مكانها ورأيته يلوي عينيه لكنه لم يئن ولم يتذمر أبداً. ولما انتهيت قال الصبي «أشكرك، صاحب». ثم حقنته بالبنسلين حتى يرتاح وهو قريب من النار.

جاء صدام وشاركنا في شرب الشاي فقال لنا أبو الصبي الذي جاء من دوب Daub وهي قرية من قرى الأهوار تقع إلى الشرق، بأن ابنه خرج من الغرفة قبل أن ينام «كلبنا ـ أنت تعرفه صدام، كلب كبير جداً ومتوحش ـ قفز عليه ومسكه من يده. وهاي هي أسنان الكلب على خده.

«سحبه الكلب ورماه على الأرض ثم أراد أن يمسك من بلعومه. والحمد لله أخطأ في ذلك وإلاّ كان قد قتله. لكنه نهش قطعة من اللحم من خده. ولم يصرخ الصبي. حقاً يا صدام، خرجت حتى أشوف شنو اللي يزعج الجواميس. شفت ابني يكافح حتى يخلص نفسه من الكلب. الله سبحانه وتعالى رحيم. كنا قد سمعنا بأن الإنكليزي هو في قرية قباب. فجبناه معانه ووصلنا قبيل الفجر. أطلقت النار على الكلب قبل ما نجي».

كنت قلقاً أخشى أن يكون الكلب مصاباً بداء الكلب. ولكن الأب أكّد لي بأن الكلب لم يغادر دبنهم المنعزل.

عادوا إلى قريتهم وقت العصر بعد أن وضعت في يده ديناراً عراقياً حتى يشتري له ثوباً جديداً. التأم الجرح بشكل جيد. ولو أن الجرح ترك ندبة على شكل هلال كبير على خده إلا أنه لم يشوه فمه فبقي كما كان في السابق. ولقد أكّد لي المعدان بأن الكلاب لا تعض النساء ولا البنات وأنا أقول عن ثقة بأنني ما صادفت أية حالة من هذا النوع لدى النساء أو البنات. وبعدما عرفوا بأنني أستمتع برقصاتهم، عزم صدام بأن يقيم حفلة رقص بحيث أبقى أتذكرهم على الدوام.

وبعد أن تناولنا الطعام، هُيئت الدرابك والطنبورات وحميت بالنار حتى يتوتر الجلد. ولما سمع الناس ضربات الدرابك والطنبورة أثناء التجريب قدم الرجال من القرية.

جاء عجرم مع والده وجاء الشاب حلو مع أخويه وهما أصغر منه وأكثر سمنة. كانت أصواتهم ذات نغمة عالية بحيث بدأوا يصاحبونه في

الغناء فغنّوا أغنية (عرفتك ظالم من أول يوم)، كما حضر أيضاً صحين مختار قرية بومفيفات ومعه أخوه حافظ ومجموعة كبيرة من رجال قريتهم بما في ذلك صبيّان وهما ياسين وحسن اللذان أصبحا فيما بعد نوتية زورقي.

وكان هناك شاب من عشيرة الفرطوس، إسمه داخل، وهو يتيم ومعدم تماماً، كان يتشاجر مع كل فرد بالتناوب. ولنتيجة لذلك كان يتنقل من قرية إلى أخرى يبحث عن عمل كراعي. وكان جميل المحيا لذلك كان الناس يتكلمون عنه بشكل يثير الغضب. وكان يحب أخت وادي حباً جماً وهو صبي بشوش يبلغ من العمر (١٤) سنة، وكان يجلس بجانبه.

وبشيء من التشجيع نهض داخل وبدأ يرقص. كانت حركاته ووجهه تنقل انطباعاً هزلياً تنم على أنه حزين وساخط، لكنه كان الشخص الناجح في هذه الأمسية.

ورقص عدد آخر من الصبيان ومن بينهم عجرم، ولكن، كان الحاضرون يهتفون كثيراً لداخل ومرات عديدة أيضاً. ثم أصرّ والد عجرم المدعو حسين على الرقص لأنه كان قد إشتهر به حينما كان صبياً، أما الآن فكان يقوم بطفرات مضحكة أشبه بحركات الفيل عندما يؤدي دوره في السيرك. واستمر بالرقص إلى أن صاح به صدام قائلاً: «إجلس يا حسين، خلّي داخل يرقص مرة ثانية».

وفي وقت المساء جلس عدد من الأشخاص بجانبي وما كنت أعرفهم وقالوا لي بأنهم مسرورون جداً لأنني عدت بين ظهرانيهم مرة أخرى.

أمضيت هنا في هذه القرية يومين أكثر من المدة التي كنت قد أمضيتها من قبل ومقدارها شهران. عشت معهم بحيث كنت أشعر بأنني أمضيت معهم سنين طويلة.

انتهت الحفلة وقت الفجر تماماً. وعندما خرجت من الغرفة لاح

لعيني خيط رفيع من الضياء الباهت المتسلل من ناحية الشرق. وفي الظلام، وتحتي تماماً، كان بوسعي أن أسمع صوت الجذف وأصوات مناداة بعضهم البعض أثناء عودتهم إلى بيوتهم.

من المستحيل أن لا يتجاوب المرء مع هكذا أناس من أصحاب الصداقة.





١٥ ـ فالح بن مجيد الخليفة

كان مجيد الخليفة شيخاً لعشيرة البومحمد في كل منطقة المجر وهو الحاكم المطلق على معظم منطقة الهور أيضاً. وهو نائب في البرلمان العراقي ويقضي معظم الوقت في بغداد، تاركاً أمور إدارة عقاراته الواسعة بيد ابنه الأكبر فالح.

كنت قد أمضيت سنة ثانية في الأهوار قبل أن ألتقي به. ولما مررنا بقرية قباب، سمعت أنه قدم من بغداد حديثاً وحلّ في داره، وزاره صدام والرجال المسنون في القرية حتى يقدّموا له الطاعة والاحترام.

رأيت أن أفعل مثلما يفعلون، لذلك غادرت باكراً في أحد الأيام لأزوره وبصحبتي الشابان حسن وياسين ليجذفا الزورق وهما من قرية بومفيفات وقد بقيا معي مدة ستة أشهر.

كان الزورق الذي استعمله يعود إلى ياسين وهو شاب عمره (١٦) سنة، طويل القامة، متناسق الجسم كالرياضيين، وله وجه جذاب ينم عن سذاجة وملامحه مغولية. أما حسن فهو في العمر نفسه أيضاً لكنه أقصر منه وأكثر منه سمنة، ماهر في الصيد، يقتني بندقية صيد من صنع محلي، تعمّر من الفوهة، والسبطانة مربوطة بسلك من نحاس.

أكثرت اللحاح عليه بأن يتخلى عن هذه البندقية ويستعمل بندقيتي. وكنت أتوسم في ياسين الشخص الأكثر هيمنة والأفضل في الجذف، وكان

شاباً ماهراً بشكل إستثنائي حتى وإن قارناه بمستويات المعدان على الرغم من كونه مجرد صبي صغير السن.

نهر المجر هو فرع من نهر دجلة، ويتفرع تحت المجر الكبير إلى فرعين هما نهر العدل والوادية. وتتبدد مياههما في الأهوار بعد أن يقطعا ثمانية أميال تقريباً ثم تتبدد هذه المياه في سواقي الري العديدة.

تعقبنا إحدى هذه السواقي إلى أن وصلنا نهر العدل حيث تقع عليه قرية الشيخ مجيد الخليفة.

ولما وصلنا إلى القرية ربط حسن حبلاً بمقعد المجذاف الأمامي وربط الزورق ضد المجرى ثم بدأ ياسين يحرّك الزورق بالمجذاف من مؤخرته. بدأنا بالسير مشياً على الأقدام ومررنا بدور القرية ثم وصلنا في الساعة العاشرة تقريباً إلى الدور الكبيرة والواسعة وذات السقف المسطح والمبنى بالآجر.

ولما وصلنا دار الشيخ، لاحظت جدرانه متشققة وهي تواجه مهب الريح. ورأيت خلف الدار مضيفاً ذا بناء قديم متهدم ومائل إلى الجوانب.

ولم يكن الشيخ مجيد قد بنى إلى الآن مضيفه الجديد على الرغم من وجود كميات كبيرة من القصب بالقرب من الدار.

وشاهدت جمعاً حاشداً خارج المضيف، كلهم جاؤا ليحظوا بمقابلة الشيخ مجيد. ولما اقتربنا أكثر، تقدم أحد الأشخاص نحونا وقادنا إلى داخل المضيف. ولما دخلنا ورآنا الشيخ مجيد نهض من مقعده وأخذ يصافحنا.

بدا الشيخ لي متوسط الطول، بدين الجسم جداً، له أكتاف عريضة. ويظهر أنه كان قوياً جداً في شبابه، إلاّ أنه أصبح الآن يكبر ويشيخ ويضعف، وبدأ بطنه يتدلى على شكل طيات.

أما رقبته فكانت غليظة وقصيرة ووجهه متعرق مغطى بشعر فضي اللون منتصب، وعيناه صغيرتان، جوانبها حمراوان.

لاحظته يتهادى في مشيته وأحسست أنه سريع الاهتياج ومتغطرس، يُخيّل للناظر إليه أنه ناهض من النوم لتوّه.

أمر بإحضار صندوقين على غرار الكرسي ذي اليدة، مصنوعين من ألواح الخشب وفوقها غطاء من قماش المخمل الأزرق. ولما جيء بهما وضع أحدهما مقابل الآخر في الغرفة ودعاني بأن أجلس على أحدهما، وجلس هو على الآخر.

كان المضيف مزدحماً جداً بالحاضرين وأحسست أنني أقل وضوحاً مما لو كنت أجلس على الأرض.

وبعد عدة استفسارات عن الصحة والأحوال، بدأ الشيخ مجيد يُشغل نفسه مرة أخرى في تصريف الأمور اليومية. وكان يعالج كل قضية بمهارة وبسرعة ولا يبدي إلاّ اهتماماً قليلاً بمشاعر الآخرين. وإذا حاول أحدهم أن يعترضه ينظر إليه شزراً وينهره فيسكت في الحال.

كان كاتبه يجلس إلى جانبه وهو شخص متوسط العمر، على وجهه أثر جدري، يذعن له بإذلال، ويسجل قراراته. وكان يرتدي مثل الشيخ مجيد معطفاً ثقيلاً من قماش أسود اللون مع عباءة بنّية. أما عباءة الشيخ مجيد فكانت، على أية حال، محاكة بشكل جيد جداً ورقيقة جداً.

الأراضي كلها تعود إليه ويتصرف بها كيفما يشاء. ونتيجة لذلك كان غير متحيّز في قراراته ويهتم كثيراً بما سيحصل عليه من المحصول.

ويشتهر الشيخ مجيد بجمع المال واكتنازه لأنه من أصحاب الأملاك. وكان يعرف كل زاوية وكل شبر من عقاراته نتيجة للخبرة التي اكتسبها خلال نصف قرن من الزمن في تخمين مستوى المياه الذي يتوقف عليه

ثراؤه. فهو يعرف تماماً أين ومتى يقيم السد حتى يحصر المياه ومتى يقوم بتصريفها ومقدار هذا التصريف.

وكنت أعجب كثيراً من طريقة بناء السد على نهر عميق وعريض بمقدار (٥٠) ياردأ ويجري بشكل فائض بمواد بدائية لا تتعدى عيدان الأشجار المقطوعة والقصب والتراب. ويستخدم الشيخ عدداً كبيراً من العمال لتنظيف القنوات وتقوية السداد مثلما يحتاج إلى عدد كبير من العمال لتنظيف القنوات وتقوية السداد مثلما يحتاج إلى عدد كبير من العمال حين إقامة السد. والفلاحون، شأنهم شأن العرب جميعاً لا يعرفون عن المجتمعات التعاونية إلاّ الشيء اليسير. وإذا ما تُركوا وشأنهم فإنهم يمضون وقتاً طويلاً في جدال ونقاش لا حدّ لها قبل الاتفاق على القيام بعمل مهما كان مهماً.

حضر عدد قليل من الفلاحين في الموعد المعين وهم في عزيمة ضعيفة جداً. فأحسّ الشيخ مجيد بحالهم فعرف ما يلزم عمله.

أصدر أوامره الصارمة وأجبرهم بالقوة على العمل. فإذا ترك أحدهم عمله أو سها عنه فإن جزاءه الجلد.

وبشكل عام، وجدت طبقة الموظفين والمثقفين في المدينة تعادي الشيوخ وتحسدهم على ثرائهم وتحاول تدمير قوتهم السياسية. وعندما يجري الحديث عن مصادرة أراضيهم ووجوب توزيعها على الفلاحين بشكل غير مدروس، تراهم يتغاضون الحقيقة ويجهلون أن العراق لا يملك مصلحة ري مقتدرة على الإحلال محل الشيوخ. وكان كبار شيوخ لواء العمارة عادة من محبي إبتزاز الأموال وطغاة، ولكن معظمهم مثل مجيد الخليفة مزارعون من الطراز الأول، يعرفون جيداً عقاراتهم التي حصلوا عليها منذ الطفولة. والشعور الأفضل هو حبّهم لأراضيهم حباً جماً أكثر من حبّهم لمصلحتهم الشخصية. فإذا أردنا إحلال غيرهم مكانهم بحيث نجلب

الموظفين من أماكن مختلفة مثل الموصل أو بغداد، يتطلب منهم قضاء وقت طويل جداً حتى يكتسبوا الخبرة التي يتحلى بها أولئك الشيوخ كما يتطلب حثّهم وتشجيعهم على البقاء في هذا المكان لأن نجاح أو فشل المحصول الزراعي لا يؤثر فيهم شخصياً. هذا ولا بدّ أنهم يميلون إلى إعطاء المياه إلى من يدفع مالاً أكثر مقابل أخذها بدلاً من إعطائها إلى مستحقيها من المزارعين الذين هم بحاجة إليها. وعلينا أن نتصور المشهد التالي بين المراجعين والموظف المسؤول.

«أنت تريد ماي؟».

«نعم».

«إشكد تعطيني؟».

«نصف دينار».



«ليش تجي هنا وتضيّع وقتي. إطلع بره».

إذاً، لا يكمن الجواب في طرد الشيوخ من أراضيهم بل إنما يكمن في حصول المزارعين العاملين في الأرض على حصة كبيرة من المحصول وعلى قطعة أرض.

أمضيت ثلاث ساعات في المضيف ثم بدأ الحاضرون بالخروج بالتدرج. فشعرت عند ذاك بالضيق كما شعرت بالجوع.

كانت الغرفة نصف ملأى بالرجال حينما جاء الخدم بصينية كبيرة فيها دجاج محمص وسمك مشوي وأرز وخبز ومرق.

وبأمر من الشيخ مجيد وضعت أمامي منضدة غير مستقرة وعليها الصينية. وبعد أن غسلت يدي، دعاني بأن أبدأ بالأكل. وكنت أتوقع أن يأكل معي. ولكن لمّا لم تظهر أية علامة لمشاركته لي في الأكل، طلبت بأن تُرفع الصينية من على المنضدة وتوضع على الأرض بحيث أتناول

طعامي مع ياسين وحسن. إلاّ أن الشيخ أجاب بشكل جاف قائلاً: «لا. لا. تناول الطعام في مكانك. ما يهمهم. هذوله راح يأكلون بعدين». لكنني أصرّيت قائلاً بأنني أفضّل أن توضع الصينية على الأرض لأنه من عادتي أن أتناول الطعام مع رفاقي. «لا. لا. كل. تناول طعامك في مكانك» قال لي ثم التفت إلى ناحية أخرى وأخذ يتحدث مع شخص آخر.

ليست هذه الطريقة التي يُعامل فيها الضيف لذلك تأثرت كثيراً وغضبت تماماً. أكلت لقمة واحدة من التمن ثم نهضت وطلبت الماء حتى أغسل يدي. وأخذ كل فرد من الحاضرين ينظر إلى الشيخ مجيد الذي سألني عن السبب فقلت له «ما يوجد سبب. أشكرك جداً. انتهيت من طعامي».

«أوه. خلّي يأكل طعامه على الأرض إذا يريد» قال الشيخ.

شكرته مرة أخرى وأكدت له بأنني اكتفيت ثم عدت إلى مكاني. أما ياسين وحسن فإنهما استفادا من امتناعي عن الأكل فأدعيا بأنهما غُير جائعين. ثم غادرنا المضيف بعد فترة قصيرة.

لم أقترب من الشيخ مجيد طوال فترة تزيد على السنة. وفي المرة الثانية، استقبلني بطريقة تختلف عن الطريقة الأولى. فأصرّ بأن أمضي الليل بصحبته، أكلنا سوية، وجاملني كثيراً مثلما يفعل العرب مع ضيوفهم. وبعد ذلك كنت أتوقف في مضيفه في عدد من المناسبات. وعلى الرغم من كل ذلك لم أكن أحبّه، لكنني كنت أحترمه.

وفي طريقنا من قرية قباب، في ذلك الصباح، اتفقنا على تمضية الليل مع فالح في مضيفه الواقع على نهر الوادية.

كان فالح رجلاً كريماً جداً حينما حللت في داره في السنة الماضية وألحّ عليّ بأن أعود إليه، إلا أنني لم أفعل ذلك، لأنني كنت متحاملاً على الشيوخ ككل بسبب أولئك الذين التقيت بهم حينما مكثت مع دوكالد

ستيوارت في العمارة، وما كانوا يظهرون هم في دورهم الفاخرة والمشيدة في المدينة بمظهر جيد. لذلك، كنت أشعر بميل قليل لزيارة ولد الشيخ فالح بعد أن لقيت من أبيه في زيارتي الأولى له الإهمال والجفاء وطلبت من رفاقي مواصلة السير رأساً إلى قرية قباب. غير أن ياسين قال لي: «لا. خلينا نقضي الليل مع فالح. فهو شخص ما يشبه هذوله».

ولما وصلنا قرية الشيخ فالح واستقبلني بكل حفاوة وتقدير بحيث شعرت بعد فترة من وصولي بأنني في غاية الارتياح في مضيفه.

وقال لي: «كنت أتمنى أن تعود إلينا بالنهاية. إنني أسمع كثيراً عن أعمالك من المعدان. إنهم يلجأون إليك دائماً كطبيب. وأنا متأكد من أن جميع أهالي قريتي سيحضرون ويطلبون منك الدواء. وهسه شفت الأهوار. ونريد نشوف منك فد شيء. هل قدرت تصيد فد خنزير؟ شنوا! ـ حتى ولا واحدة؟. إنتظر حتى يرتفع منسوب الماء ونروح بعدين نصيد سوية».

كان الشيخ فالح منهمكاً في الإشراف على تنظيف القنوات وفي تقوية السداد قبل حلول الفيضان. بقيت مدة أسبوع في تلك المناسبة وفرحت جداً بأن تتاح لي مثل تلك الفرصة حتى أتعرف فيها إلى أحوال الفلاحين لأقارنها مع أحوال المعدان. وكنا نخرج كل صباح في طراده ونعود بعد الظهر ونتناول طعامنا في بعض القرى الواقعة على الطريق. وكما تنبأ، حضر عدد كبير من المرضى إلى مضيفه. وكنت أعالج في كل يوم عدداً منهم قبل أن نغادر القرية أو عند العودة إليها. وفي قرية الزائر محيسن التقينا برجل اسمه مناتي وهو الشخص الذي كان قد عضه الخنزير. وكان يبدو هزيلاً، منحني الظهر، فتذكرت عند ذاك كلمات الشخص الذي كان قد قال «هذا الخنزير قضى على مناتي».

قال فالح وهو يشير إلى أحد الصبية الذين يساعدون الزائر محيسن في إعداد المائدة: «هذا لا خوش صبي. والده العجوز ثقب ما يكدر يسول

فد شيء. إينه عمارة يهتم بأمور العائلة. هم ناس فقراء تماماً».

ثم وجه سؤاله إلى الولد وقال له «صحيح سموك عماره لأن أمك ولدته في سوق العمارة. موتمام؟».

ابتسم عمارة وقال: «نعم. هذا صحيح. لكن أنا ما رحت إلى العمارة من ذاك اليوم لحد الآن».

وعمارة هذا صبي نحيف الجسم، جميل المحيّا بشكل ملحوظ، أنيق وهادىء. أرستقراطي. وعلى النقيض من ذلك، كان الصبي الآخر أخرق وقبيح الصورة لكن البشاشة لا تفارقه ويسميه فالح سبيتي. وأخبرني بأن والده يملك دكاناً في القرية وهم أغنياء وكرماء. وتظهر على سبيتي علامات السرور والحبور.

وفي صباح اليوم التالي، وجدت عمارة وسبيتي مع عدد آخر من أقرانهما من قراهم التي تبعد مقدار خمسة أميال ينتظرون قدومي في خارج مضيف الشيخ فالح حتى أجرى لهم عملية الختان. وعندما سألتهم كيف يعودون إلى قراهم من بعد الختان. قال لي «نبقى هنا حتى يشفى الألم قليلاً ويتوقف النزيف ثم نعود إلى بيوتنا سيراً على الأقدام». وفعلاً طبقوا ذلك. كان فالح يحاول أن يكون محافظاً على هيبته في المضيف أما في القرى فكان يتصرف كصديق بطبيعته.

كان استقبال القرويين له حاراً وشيئاً مثيراً. فالأطفال يركضون أمامنا وهم يصيحون «فالح جاي طرفكم!». وعندما نصل، يلحّ آباؤهم كثيراً وبإصرار على فالح بأن يكون ضيفهم ويشرّف بيتهم. ومن بعض المناسبات قد يكون فيها قاسياً وحتى عديم الشفقة والرحمة ولكنهم مع ذلك كانوا يحترمونه أكثر لأن أحكامه كانت عادلة ولم أسمع أبداً من أنه يحكم الناس بالجور وغير العدل. فهو يؤدي واجبات الشيخ المثالي وهو كريم المولد، يعجب الناس بزعامته ويثقون به ويخشونه. وكلهم يحسدونه على مهارته في

الرمي وعلى فروسيته كما وجدتهم في غاية السرور لأنه يستطيع استعمال الزورق بكل سهولة خلافاً لعدد كبير من الشيوخ.

ومن بين الشيوخ الآخرين، نرى الشيخ مجيد والشيخ محمد العريبي لا يزالون ذا نفوذ في شيخوختهما وهما الباقيان على قيد الحياة من الأزمنة العسيرة والشديدة جداً. وإن معظم الباقين وخاصة الشباب منهم. كانوا ذوات أجسام سمينة، متراخية، تدل على الكسل. وكانوا على الدوام في قلق شديد عن صحتهم ويتناولون على الدوام العقاقير الطبية المباحة للاستعمال. فجاسم بن محمد العريبي، هو الشخص الوحيد المشهور بأنه كفوء لفالح، لكنه كان قد توفاه الأجل ويقول الناس الآن «بس ظل فالح وحده».

وعندما وصلت قرية قباب بعد أسبوع، ابتعت زورقاً لي، واسعاً ومتيناً. دفعت عشرة دنانير ثمناً له، كان جديداً تقريباً وفي حالة جيدة. وقال ياسين: «أنت هسه واحد منا. في هذا القارب نوديك وين ما تريد تروح. إلى سوق الشيوخ. إلى الكويت. إلى البصرة وإلى أي مكان».

عدنا بهذا الزورق إلى قرية فالح بعد ستة أسابيع ولما نزلت من الزورق سألته باعتزاز «ما رأيك بزورقي الجديد؟».

«مو رديء. لكن إنتظر شوية حتى تشوف إيش حضّرتلك».

أصدر أوامره إلى أحد خدمه فانطلق بسرعة وعاد بزورق يدفعه بالمردى وهو من صنف الطرادة الجديد. لونه أسود، لمّاع، رفيع، وذو مقدمة عالية، ينساب نحونا على سطح الماء فقال الشيخ فالح «وصلتْ البارحة من الهوير. هذه لك. طلبت صنعها لك. ربما تفكر بأنك واحد من المعدان. لكن في الحقيقة أنت شيخ. تستأهل الطرادة».

صاح ياسين متعجباً: «الله! إشكد لطيفه! صنعها الحاج حميد. هذه أحسن وحده صنعها للآن. ماكو وحده تشبهها».

تأثرت جداً، وحاولت أن أعبّر عن شكري غير أن فالحاً وضع يده على كتفي وهو يقول: «صاحب أنت صاحبي».

وفي ذلك المساء إقترح فالح بأن أضمّ إلى نوتيتي صبيين آخرين من أمثال ياسين وحسن حتى يصبح العدد كاملاً. ولاحظت أن الأشخاص المتزوجين والأكبر سناً منهما لا يرغبون بمغادرة أهليهم لعدة أشهر متواصلة. ولما سمع عمارة وسبيتي بأننا نريد شخصين آخرين حضرا في صباح اليوم التالي وعرضا خدماتهما عليّ. وسألتهما عن المدة التي شفيا فيها من عملية الختان فأجاب عمارة قائلاً: «ما دام أنت سويت العملية فماكو خوف منها وما سوينا شيء. كنت أقطع القصب بعد ثلاثة أيام والآخرين هم مثلي».

يتحلى عمارة بسحر هادىء وبجاذبية عظيمة ولكنني كنت أشك فيما إذا كان قوياً لدرجة يستطيع فيها من جذف الطرادة في رحلات طويلة.

وعلى أية حال، أكّد لي حسن وهو من عشيرة الفريجات بأنه شاب قوي أكثر مما يبدو. أما ياسين فإنه ينتمي إلى الشغانبا وسبيتي ينتمي إلى عشيرة غامضة لم أسمع عنها أبداً.

أخبرت عمارة وسبيتي بأنه بإمكانهما الالتحاق بنا وهكذا بقيا معي إلى أن غادرت العراق.

ولو أن عمارة كان أصغر سناً من الآخرين بكثير إلا أنه كان ذا خلق متين. فلحق به سبيتي من دون أي سؤال وأما حسن فإنه نادراً ما كان يعترض على قراراته. أما ياسين فإنه كان يستاء أحياناً من تأمر عماره عليه لأنه يرى نفسه وهو الرجل الكبير أنه لا حول له ولا قوة في الأخير.

تعلّم عمارة بسرعة استعمال الأدوية التي كانت معي وحذا سبيتي حذوه في هذه المهنة فقاما بمساعدتي كما أتقن عمارة حقن الأبر.

لم أكن أدفع لهم أبداً أجوراً عن أعمالهم معي وكنت أقول لهم دوماً بأنني أريد رفاقاً وليس خدماً بأجر. وكنت أزودهم بالكسوة وأمنحهم النقود أكثر مما يتوقعون.

وأخيراً ساعدتهما في مهر الزواج حينما أراد الزواج وبناء حياة زوجية. وكانا يجيبان كل من يسألهما عن مقدار ما يتقاضيان من الإنكليزي باعتزاز «ما نأخذ أجور. نرافق الصاحب ونحن مسرورين. وهو شخص كريم يهتم بنا».

وفي تلك السنة، عبرنا الأهوار الوسطية بطرادتنا وانتقلنا على امتداد نهر الفرات إلى القرنة. ثم عدنا إلى قرية سيكال ومكثنا مرة أخرى مع عشيرة آل عيسى في البر الرئيسي ثم زرنا الأزيرج، ولم نحبهم ولا أحببنا شيوخهم. ثم عدنا وزرنا آل جاسم والفرطوس حيث المكان الذي وجدنا فيه (داخل)، ذلك الصبي الذي يرقص من أجل التسلية في قرية قباب.

كان لا يزال عاطلاً عن العمل وأخذ يضعف بالتدريج. ومن الواضح أنه كان يقاسي الآلام من مرض البلهارزيا ومن الاختلاطات المرضية الأخرى. وبعد الإلحاح والجدل الذي لا حدّ له أقنعته بالذهاب إلى البصرة للمعالجة، كانت الدموع تنهمر من عينيه حينما غادرنا. أرسلته إلى البصرة وزودته برسالة إلى صديقي فرانك ستيل نائب القنصل في البصرة.

حلّ الصيف في الأهوار وفيه يصبح البعوض على شكل سحب معلقة فوق رؤوسنا حتى في أوقات النهار، ونحن ننتقل على امتداد الممرات المائية الساكنة بين منابت القصب العالية.

أما في الليل، فينقضّ البعوض على الأجزاء العارية من أجسامنا أثناء النوم بدون أغطية بسبب حرارة الجو الهائلة. وسررنا حينما تركنا الأهوار وبدأنا نتنقّل بين القرى في منطقة المجر مكونين صداقات جديدة بين الفلاحين. وكنا نعود إلى قرية الشيخ فالح ونبقى في مضيفه مهما طال أمد

سفرنا أو قصر. وحينما يرى أحدهم طرادتنا يخبر فالح عن قدومنا ونراه بانتظارنا حتى يرحب بنا. وكنا أحياناً نعود ليلاً وقد مضى أكثره أو نعود في الساعات المبكرة من الصباح ثم ننام في المضيف الخالي من الناس.

وكان عبد الرضا القهواتي العجوز يجدنا نائمين حينما يأتي وقت الفجر إلى المضيف فيسرع ليخبر فالح عن وجودنا.

وعلى خلاف أكثر الشيوخ، كان الشيخ فالح يكره حياة المدن. ومن النادر أن يزور بغداد أو العمارة. إلا أنه كان يمكث بعض الأحيان ليلة أو ليلتين مع أقاربه بالقرب من المجر وأكثرها لدى عمه محمد، الأخ الأصغر لمجيد وهو سخي جداً على الرغم من كونه فقير الحال من بين أسرته. لذلك كان جديراً بنيل إحترام ومحبة الناس.

كان عباس بن محمد، السيء الطالع، البدين الجسم، البالغ من العمر عشرين سنة إبن الأخ المحبوب لفالح.

وبما أن فالحاً كان يصطحبني في رحلاته فأتيحت لي الفرصة في تمضية عدة أمسيات مسلية مع محمد.

كنا نذهب بعد تناول العشاء في المضيف إلى غرفة خاصة في البيت. وكان أتباعه عبارة عن عدد من الصبيان يتلقون المال بشكل استثنائي عن غنائهم ورقصهم. وإعتاد أحد الصبية بشكل خاص على التمثيل بحركات جسدية تسلّي الموظفين المحليين في أوقات فراغهم إلا أنني وجدت هذه الحركات شيئاً مبالغاً فيه أكثر من المألوف.

وهناك هور بالقرب من دار محمد وهو أفضل مكان لصيد الخنازير في فصول معينة حيث كانت هذه الخنازير تدمر حقول الشلب ليلاً وتتلفها. وقمت أنا وفالح نتعقبها بزورق صغير، نسير به على امتداد السواقي التي تعترض منابت القصب.

ففي أحد الأيام قتلت (٤٧) خنزيراً ثم قتلت (٤٥) أخرى في مناسبة ثانية. وهذه الخنازير من الأصناف الموجودة في أوروبا والهند من ذكور الخنازير الوحشية غير أنها تتميّز بحجم استثنائي. وقست خنزيرين من الحجم المعتاد وبلغ عرض الواحد منها من الكتف إلى الآخر مقدار (٣٧) عقدة. وإنني آسف جداً لأنني ما قست حجم الخنازير الكبيرة أبداً

وفي النهار تأوي هذه الخنازير إلى أوكارها المشبعة بالماء وتكون عادة مبنية على الضفاف المنخفضة التي تحيط بهذه السواقي. ويكون طول الوكر أحياناً مقدار (٦) أقدام. وهي عبارة عن أكوام كبيرة من أشجار الأسل.

ومن الممكن أن تكون الخنازير قد قطعت الأغصان ونقلتها بواسطة خراطيمها إلى مسافة ياردات من الغابة.

وحينما يرتفع منسوب الماء بسبب الفيضان تنتقل هذه الخنازير من الأهوار وتضطجع في بساتين النخيل، وفي الأحراش على الأكثر وهي أشجار نخيل تنمو من دون رعاية وعناية وفي أدغال الشوك البرية النامية بشكل متقارب جداً. وقد رأيت في إحداها ذئباً وثلاثة فروخ صغيرة.

كنت أنا وفالح نتخطى الخنزير الهائج الرابض في مكانه دون أن نتحرش به أو نخرجه من مربضه ونسوقه أمامنا إلى العراء ثم نقوم بمطاردته ونحن على ظهور الخيل، نطلق النار حتى نصطاده.

وأخيراً، يجب أن أغادر الأهوار لأنني خططت بأن أتنقل في ذلك الخريف في جبال باكستان الشمالية. فأمضيت الليلة الأخيرة مع فالح في قريته وبصحبتي كل من عمارة وسبيتي وياسين وحسن الذين عرفوا الآن بأنهم رجالي.

وفي المساء خرجنا جميعاً من المضيف، نلتمس البرودة فجلسنا على الحشيش.

انتهت في هذا الوقت فترة هبوب الرياح الأربعينية التي تهب طوال شهر حزيران وذلك قبل بضعة أيام، لذلك أصبحت الريح ساكنة جداً الآن.

وبعد أن تغيب الشمس ويحل الظلام تبدأ بنات آوي بالنباح من أماكنها خلف النهر المنحدر.

وعندما يبزغ القمر ترى الخفافيش تنحدر وتدور فوق رؤوسنا.

أكلنا البطيخ والعنب من بستان السيّد ثم شربنا الحامض.

جاء عبد الرضا من المضيف يحمل دلّة القهوة بيده وقال لي «ما راح تشرب قهوة مثل هاي وين ما تروح. إشرب شويه زايد إذا تكدر». ثم قال فالح: «لا تطوّل غيبتك عنا كثيراً».



١٦ ـ وفاة الشيخ فالح

حينما عدت إلى مضيف الشيخ فالح بعد غياب طويل دام سبعة أشهر تقريباً حيث كنت قد غادرته في الأسبوع الأخير من شهر حزيران سنة ١٩٥٢، شاهدني ابن عبد الرضا الصغير فاندفع إلى داخل المضيف وأخذ ينهر أحد الأشخاص النائمين قائلاً له: «كَوم. الإنكليزي رجع. روح واخبر فالح. أنا أروح أجيب أبوي» إذ كان عدد من الأشخاص النائمين على الحصران قد بدأوا ينهضون الواحد بعد الآخر ثم أخذوا يرتبون أغطية رؤوسهم وعباءاتهم ثم تقدموا إلى الأمام نحوي ليسلّموا عليّ قائلين وقد تمكنت من تمييزهم جميعاً، فهم من أتباع الشيخ فالح، «مرحباً يا صاحب. مرحباً، هذا أسعد يوم عندنا. بقيت مدة طويلة بعيد عنا».

عدت في الحقيقة أوائل شهر شباط سنة ١٩٥٣ عصراً. وقد غبت عنهم مدة طويلة كنت خلالها قد عبرت مضايق عالية من خلال الثلوج التي تغطي جبال هندوكوش وأنا أتجه نحو بحيرة كورمبار ذات المياه الزرقاء الباردة حيث تظهر الأنهار ذات الألوان البلورية.

نظرت إلى الخارج عبر واكاند Wakand من مضيفه بوركل Borogil ولمحت من مسافة شيئاً يلمع وعرفت أنه نهر أوكسس Oxus. وكنت قد نمت على نهر الجليد الذي يقع أسفل جزء من جبل تيريك مير Tirick Mir. وفي الظلام أويت إلى البيوت القذرة المنتشرة بين بساتين التوت

حيث المكان الذي يعيش فيه الكفار السود على حدود نورشتان Nuristan. والآن أعود مرة أخرى إلى مضيف فالح الواقع على حافة الأهوار وأنا أشعر بأنني قد عدت إلى بيتي.

دخل عبد الرضا مسرعاً إلى الداخل وهو رجل ذو أسنان مفرّقة وظهر محدودب وقال لي «فالح چان يحچي بذكرك ليلة البارحة. ما بعرف أشوكت ترجع. قبل يوم چان صدام هنا. جاء من قباب. واثنينهم جابوا ذكرك. مرحباً. مرحباً. اليوم يوم عيد».

جلسنا حول الموقد الذي تُعدّ فيه القهوة. ولما أتى الشيخ فالح ودخل المضيف نهض الجميع ثم تقدم نحوي وبدأ يحضنني وقبلني في الخدود ثم سألني عن أحوالي ثم قال «ليش طولت الغيبة عنا؟. چنّا نتوقع مجيئك في الشهر الماضي. موش هيچ يا عبد الرضا؟. وعلى كل حال، زين نشوفك راجع إلينا الآن. المعدان يفرحون عندما يسمعون أخبارك. عماره وسبيتي يسألون دائماً أشوكت تعود. راح يجون حالما يسمعون أنك وصلت».

ثم إلتفت نحو أحد رجاله وقال له «أنت جاسم، خذ حوائج الصاحب إلى هناك».

كان بيته بدور واحد، من الطابوق الذي يتم صنعه في الموقع. ولما وصل البيت قال لي: «هذا بيتك. مرحباً. أدخل». دخلنا إحدى الغرف وشاهدت على الجدران صورة الإمام علي وهو على ظهر فرسه وصورة الحسين.

إنهما إماما الشيعة. والصورة تُظهر بأنه يشجّ رأس خصمه إرباً إرباً وسط بركة من الدماء. كما شاهدت صورة كبيرة للشيخ مجيد في إطار ذهبي.

كانت الفرش مغطاة بقماش سلكي أحمر أو أخضر مع وسائد

ومخدات بمختلف الألوان وهي مفروشة على طول جدران الغرفة.

كان المظهر يدل على الثراء والراحة، وهذا يختلف تماماً عن الديوانية والتي فيها بقيت محصوراً لبعض الوقت.

هذه البيوت هي دور ضيوف غير مريحة، مبنية من الطابوق، بناها الشيوخ الأثرياء في السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية حتى يسكنها الموظفون العراقيون والزوار الأوروبيون.

تكون هذه الدور مغلقة حينما لا يسكنها أحد. غرفها مليئة عادة بالغبار. أما أرضية الغرفة فهي مليئة بأعقاب السيكاير، وتجد حول جدران الغرفة كراسي ذات يدات مربعة الشكل وثقيلة الوزن وهي من الطراز الذي يستعمله العراقيون. والكراسي مصفوفة بأغطيتها المخملية السوداء. وهناك فاصلة بين كل زوج من الكراسي توضع فيها منضدة صغيرة. وخلف النوافذ ذات القضبان يتحدث الشيوخ بجدية مع الزوار بينما يبقى كل فرد بعيداً على مسافة ويقف بإجلال واحترام.

كان عباس، ابن عم فالح الذي يحبه كثيراً، موجوداً في داره يمكث معه وكان يتوق للعودة إلى دار أبيه بالقرب من المجر. التفت فالح إليّ وقال: «راح تجي ويّانا باچر للصيد. موش هيچ؟ راح نجرب صيد البط على امتداد حافة الهور. بلكي نشوف عدد من الخنازير. وهسه يا عباس، ما تكدر تروح والإنكليزي عندنا ويريد يطلع للصيد ويّانا. خلي أدز فد واحد للبيت ويجيب وياه بندقيتك. تكدر تروح إلى بيتكم باچر بعد العصر. لويش هل العجلة؟ موش راح تتزوج». ولسوء الحظ، اقتنع عباس بكلامه ورضي بالبقاء.

تناولنا فطورنا المتكون من بيض مقلي وخبز من طحين الأرز وحليب جاموس مغلي ثم خرجنا في ذلك الصباح البارد الصافي وأتينا إلى مربض الخيول وكان فيه ثلاثة أفراس عربية أصيلة رمادية اللون، كل واحدة منها

ملفوفة ببطانية وقوائمها الأربعة مقيّدة. ثم عرجنا إلى المضيف حسب العرف الجاري وبعدها خرجنا إلى المكان الذي ينتظرنا فيه نوتية الزورق الرابضون بالقرب في طرادة الشيخ فالح. وقال حينما وصلنا هذا المكان «زين داير. راح نروح لصيد البط عند مصب الخر!». وداير هذا رجل مسن قد وخط الشيب شعر رأسه وهو أكثر التابعين ثقة. إبتسم ابتسامة عريضة.

«الله يعلم. بلكي نشوف عدد قليل من البط. يظهر أنها راحت من مدة قليلة. منسوب الماي في بدى يرتفع، لازم نشوف عدد كثير من طائر الفرّة المائي». ركبنا الطرادة. أنا وفالح وعباس. بينما ركب عبد الواحد بن فالح في الزورق ثم إنطلقنا وسرنا بجانب المجرى نازلين.

كان عباس يجلس وسط القارب بيني وبين فالح. وكان قد وضع مشط رصاصه في الكيس أمامي، ولاحظت وجود عدد من الخراطيش عليها الحرفان [إل جي] موشاة كيفما اتفق، وقال بأن عبد الواحد كان قد أعطاه إيّاها حتى يملأ الفراغات الموجودة في المشط. قلت له: «هذه الخراطيش تستعمل لصيد الخنازير فقط بالله عليك لا تستعملها لصيد البط وإلاّ ستقتل شخصاً ما». ودسستها لأبرهن أقوالي، فتحت إحدى الخراطيش وأريته الكرات السبعة ثم ألقيتها في جيبي. واقترحت على فالح بأن يحذر ابنه من هذه المسألة، ففعل.

ولما وصلنا حافة الأهوار، انتقل كل واحد منا إلى زورق صغير ومعه رجل يجذف له ثم انطلقنا إلى داخل القصب. أما الآخرون فإنهم ذهبوا في اتجاه واحد للبحث عن البط. وسرت أنا في اتجاه آخر لعلي أجد خنزيراً لاصطاده.

ولأن منسوب الماء مرتفع فمن الواضح أن الخنزير سيترك الهور ويتجه نحو الأرض اليابسة، وبوسعي، من مكان هذا، أن أسمع صوت إطلاق الآخرين، عدت إلى المتابة التي سبق أن عيّناها، فوجدتهم

موجودين هناك. ويظهر أنهم لم يعثروا على البط بل اصطادوا عدداً من طائر مائي آخر يسمونه الفرّة. وسألني فالح عما إذا كنت أرغب في مواصلة الصيد أو أنتظر لتناول وجبة الغداء. فقلت له: لا رأي لي في ذلك، فانظر ماذا ترى. فقال: «عندي تسعة طيور غرّة. أريد أسويهن عشرة. الغدا راح يطوّل فد ساعة، خلّي نستمر بالصيد».

وفي هذه المرة رافقتهم.

إنتظمنا في صف واحد، والمسافة بين زورق وآخر سبعون يارداً. جذفنا ونحن نسير بموازاة الشاطىء من خلال أشجار الأسل المتشابكة والمنتشرة في هذا المكان. وكان فالح وعباس إلى يساري. شاهدت طيور الفرّة عريضاً وهي ترتفع وترفرف بأجنحتها فوق رؤوسنا متجهة مع الريح.

أطلقت النار عليها فسقطت إحداها ثم توقفت حتى التقطها فسمعت صوت إطلاقة باتجاهي. مرّت الإطلاقة من يميني فصحت قائلاً «خاطر الله. شوف المكان اللي ترمي إلهاً». وعلى مسافة بعيدة قليلاً شاهدت زورق فالح ثابتاً وسط المياه المكشوفة وعلى بعد (٥٠) ياراداً عن منابت القصب.

نظر الشخص الذي يجذف زورقي نحو زورق فالح وصرخ قائلاً: «فالحْ مجروح» ثم بدأ يجذف بشكل جنوني نحو الزورق.

ولما وصلنا رأيت فالحاً ملقى إلى الأمام مستنداً إلى داير، عيناه مغلقتان ويبدو أنه فاقد الوعي، وشاهدت بقعتي من الدم في القسم الأمامي من دشداشته البيضاء. فأمرت الشخص الذي يجذف زورقي بأن يجعله بجانب فالح. انحنيت ومسكته من رسغه فوجدت نبضه ضعيفاً جداً. ثم فككت دشداشته فتدفق الدم من فوق حلمة ثديه من خلال ثقب أزرق دائري نتيجة لإطلاقة ذات كرة كبيرة. وفي هذه الأثناء وصل عبد الواحد واستفسر عما حدث فقال له داير «عباس هو اللي رمى» قالها لأول مرة وهو يومىء

برأسه إلى منابت قصبة قريبة. فتشت المكان ولم أجد أثراً لأي شخص. أما الأشخاص الأربعة الآخرون فانفجروا يندبون ويولولون ويكررون القول «أبويا. آه ـ يا بويا». وكانت الزوارق الثلاثة تهتز كأنها أطواق صغيرة تلعب بها الرياح وإلتفتُ إليهم وصحت بغضب «إسكتوا! ماكو فايدة من البقاء هنا وأنتم تولولون. لازم نخرجه على الساحل. أنت داير ـ إمسكه ونحن نجذف من كلا الجانبين ونسحب زورقك». فتوقفوا عن العويل فجأة وانطلقنا نحو الساحل الذي يبعد مقدار (٣٠٠) يارد. ومن هذه المسافة أمكنني مشاهدة قرية صغيرة، وقصّ علينا داير ما حدث فقال: «كنا نحاول الاقتراب من بعض طيور الفرّة. ما شفنا أي شيء. بعدين طار». مالك الحزين من بين القصب. كان عباس في الجانب الآخر من القصب وأطلق النار باتجاهنا وأصيب فالح وسمعته يصيح (عباس قتلني). وبعدين شفت عباس ينهض من بين القصب وصاح (الله! ما كنت أعرف أنت هناك) وبعدين ما شفت عباس للتالي.



كان عمق الماء كبيراً. ولو لم يتمكن داير من إبقاء الزورق منتصباً على الماء حينما أُصيب فالح بطلقة نارية لأصبح عند ذلك من عداد الغرقى بالتأكيد. ولما وصلنا الساحل وجدنا الشخص الذي يجذف زورق عباس فقط وسألناه «وين راح عباس؟».

«طلب مني إنزاله بهل المكان. نزل وراح يركض».

كان فالح لا يزال فاقد الوعي، نبضه ضعيف جداً بالكاد أشعر به، علينا أن نعود بأسرع ما يمكن إلى داره ثم نأخذه إلى المجر ومنها إلى البصرة أو العمارة بالسيارة لكي نجري له عملية نقل الدم.

أرسلت الشخص الذي يجذف زورق عباس بسرعة إلى القرية حتى يُحضر قارباً كبيراً. ثم خطر ببالي أن أُبقي فالح دافئاً، لذا أرسلت شخصاً آخر إلى القرية لجلب الفراش. أما عبد الواحد فقد بقي ساكناً يحدّق إلى

أبيه المغمى عليه، لا يدري ماذا يفعل، ثم سأل مرة أخرى وقال: «هل يموت يا صاحب؟ هل يموت؟».

«إرادة الله. إنه سيعيش، لكنه مجروح جرحاً خطيراً جداً».

واندفع عبد الواحد كالمجنون وهو يصيح «وين راح عباس؟ وين راح؟ والله إذا فالح مات راح أقتله. صاحب. أنت صديق فالح. لازم تساعدني حتى أعثر عليه وأقتله. وين راح هل الملعون؟» ثم بدأ ينتحب ويتشنج. ظهر صبيّان من مكان ما وكانا خائفين بشكل واضح. وقفا سوية على بعد قليل وهما يراقبان. ناديت على الأكبر وقلت له بأن يسرع إلى القرية ويعجّل بمجيء القارب. فركض كلاهما مسرعين.

لم يكن بوسعي أن أفكر بأي شيء آخر أفعله بل إنما نظرت نحو فالح وأنا فاقد الأمل من نجاته ثم نظرت نحو داير الذي كان لا يزال يمسكه، كانت دموعه تنهمر من عينيه وتسيل على وجهه.

بدأ الرجال والنساء يتقاطرون وهم يركضون عبر الحقول ثم وقفوا على مقربة منا على شكل مجموعات صغيرة.

أخبرني أحدهم بأن القارب الكبير قادم من القرية. ولكي نوفر الوقت، اقترحت بأن نأخذ فالح بزورقه إلى مصب المجرى.

وبدأ شخصان يسحبان الزورق وهما يخوضان في المياه الضحلة. وأخيراً التقينا بزورق آخر وإرتحت لرؤيته لأن فيه الفرش والمخاديد بالإضافة إلى وجود سجاد مفروشة في وسطه. وعندما بدأنا نرفع فالحاً فتح عينيه وقال بشكل واضح «شوفوا البندقية محشوة بإطلاقة» ثم أغمض عينيه مرة أخرى واضطجع ساكناً.

نقلناه إلى الزورق الآخر بعناية. جلس داير في الخلف وأسند رأسه ثم لففناه بالسجاد وناولنا عدد من الموجودين عباءاتهم.

تسلق أحد الرجال إلى مؤخرة الزورق حتى يوجهها. وشدّ رجل آخر حبلاً في مقدمة الزورق بينما بدأ رجلان آخران يسحبان الزورق بعكس المجرى. سرنا وراءهم على الساحل وكان معي عبد الواحد نسير بحذر من كثرة الأشجار الشوكية اليابسة والمنخفضة، وكنا قد تركنا أحذيتنا في الطراد وكانت أقدامي لا تزال صلبة بعد سنوات طويلة من السير حافي القدمين في الصحراء، غير أن عبد الواحد الذي لا يسير أبداً بدون حذاء بدأ يعرج ثم أخذ يتخلف عني في المسير.

فتح فالح عينيه وحاول أن يتكلم، وأمرت الرجال بالتوقف وجلست راكعاً بجانبه. وقال هامساً: «وين عبد الواحد؟».

«راح يجي».

«قل له... قل له عن لساني، صاحب. لازم يأخذ عباس ويوديه إلى أبوه. ما لازم يتركه وحده إلى أن يصبح بأمان عند محمد. ما أريد يجري عليه أي شيء. لازم يتأكد بنفسه ما يجري شيء إلى عباس. هاي هي أوامري. قل له خلي يروح هناك».

أغمض عينيه مرة أخرى وأشرت للرجال بأن يواصلوا السير. المفروض أننا سنعثر على عباس أمامنا وهو يركض بشكل بائس متوجهاً إلى بيته.

انتشرت أخبار الحادث عبر الريف في الوقت الذي كنا نسير فيه ببطء بعكس. توجهت نحونا مجموعات صغيرة من الناس من مختلف القرى وهم صامتون. ولما وصلوا اندفعوا إلى الماء ثم بدأوا يصرخون ويولولون ويضعون الطين على رؤوسهم ويسكبون الماء على ثيابهم. أما النساء فبدأن يمزقن ثيابهن ويضربن على صدورهن وهن يُعلن «فالح. أبويا. أبويا» ويواصلن السير خلفنا.

أما فالح فقد كان ممدداً وسط الزورق، بوجهه الشاحب جداً إزاء

دشداشة داير الداكنة. حدث كل هذا الشيء في مدة تقل عن (٢٤) ساعة، وكان قبلها يرحب بمقدمي عندما أتيت إلى داره.

إلى الآن كنت فاقد الحس والوعي ولم أستوعب ما حدث. أخذت أحدّث نفسي قائلاً بأنها حادثة أُصيب فيها فالح بجرح بليغ. أما الآن فإنني مقتنع بأنه سيموت. فإذا بكيت عليه مثلما يبكون فسيعلم الذين هم من حولي إنه سيموت. لذلك، ضبطت نفسي ومنعتها من البكاء، ووجدت، نفسي أنا الذي كنت أشاركهم في السراء والضراء، عاجزاً عن التعبير عما يجيش به صدري من الألم في مثل هذا الموقف الحزين.

أخيراً، وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر، وصلنا إلى قرية فالح. جاءوا بهيكل سرير ورفعناه لنضعه عليه ثم نقلناه إلى داخل البيت وسط الحشد المتجمع اللاواعي.

دخل أكثر ما يمكن من الناس داخل الغرفة وبقوا صامتين. أما في خارج البيت فقد ارتفع العويل وبدأت النسوة يضربن على صدورهن العارية بأيديهن فتسمع صوتاً كأنه صوت الطبول.

فتح فالح عينيه وحدّق في سقف الغرفة، نظرت إلى وجهه الذي استبشرت فيه علامات الحياة فرأيته باهتاً وشاحباً جداً من كثرة النزيف وكأن وجهه قناع من الشمع لا حسّ فيه ولا حراك. ورجاني الناس بأن أعطيه الدواء وأبوا أن يصدقوا بأنه ليس بوسعي أن أفعل أي شيء. تنحيت بعبد الواحد جانباً وقلت له بأن الأمل الوحيد هو أن نأخذ فالح إلى المكان الذي يمكن فيه من إجراء عملية نقل الدم. وأن كل لحظة تمضي تقلل من فرص نجاته. وافقني على رأيي ولكنه لم يفعل أي شيء. ووقف أناس آخرون حول الفراش وهم يقولون بصوت مسموع «راح يموت». «نعم. هو ميت تقريباً». «والله، فالح ما يستحق الموت بهل شكل».

طلب فالح الماء همساً، ولكن حينما جاؤوه به لم يتمكن من بلعه فسال حول ذقنه وتبللت دشداشته.

وفي هذه الأثناء وصل ابن أخيه الآخر المدعو حطاب. ومن حسن الحظ أنه كان شخصية لها وزنها ويطيعه الناس على الدوام. فتولى فوراً المسؤولية، فنقل فالح إلى طرادة وانطلق به إلى قرية أبيه حمود الواقعة في المجر.

تبعته بقارب آخر، لكنه كان ثقيلاً وبطيئاً فابتعد الطراد عنا مسافة كبيرة. وعندما وصلت إلى المجر كان فالح قد نقل إلى الديوانية التي تعود إلى حمود ثم ذهب ليتصل هاتفياً بمجيد الخليفة في بغداد.

التقيت بالطبيب المحلي حيث وجدته بين الحشد في الممر وسألته عن رأيه. هزّ رأسه وقال، أخشى أنه سيموت. واتفق معي في الرأي من أنّ الأمل الوحيد هو نقله مباشرة إلى البصرة، لأنه أقرب مكان لإجراء عملية نقل الدم.

ثم صاح أحدهم قائلاً: «وين هذا الإنكليزي؟». فلما دخلت الغرفة قيل لي بأن فالح قد طلبني فذهبت حيث يرقد. حرّك عينيه ونظر إليّ، لكنه لم ينبس ببنت شفة. وكانت ابنته فقط هناك، فترددت أولاً ثم دخلت وبقيت واقفاً بجانب سريره.

انتظرنا طويلاً، وقد بدأ الظلام يزداد عتمة من الخارج فجلبوا فانوساً ووضعوه في إحدى الزوايا فأضئت الغرفة بضوء خافت.

عاد حمود وبدا لأعيننا كأنه ذاهل، إذاً لا بدّ من إبلاغ الشيخ مجيد بالخبر الذي سيثير أعصابه. «يجب نقل فالح إلى بغداد حالاً. هذه هي أوامر الشيخ مجيد. أرسلت لإحضار ثلاث سيارات».

وكنت موقناً من أن فالح لن يبقى على قيد الحياة أبداً في رحلة كهذه على طريق وعر جداً طوله (٢٥٠) ميلاً في مثل هذا الوقت الذي حل فيه الظلام. قلت لحمود «خذوه إلى البصرة» ثم رجوته كثيراً قائلاً «بإمكانك أن تأخذه بالطائرة من البصرة إلى بغداد من الصباح. وإذا ألحّ مجيد، أتوسل

إليك أن تأخذه إلى البصرة. إنها مجرد ثلاث ساعات من الوقت. يمكن أن يأخذ هناك الدواء الذي يحتاجه. لا تذهبوا حتى إلى العمارة. إذهبوا رأساً إلى البصرة».

لكن حمود أجاب ببساطة «راح نروح إلى العمارة أولاً ثم نتدبر الأمر بعدئذ» وصلت السيارات الثلاثة فنُقل فالح مرة أخرى إلى المقعد الخلفي لإحدى السيارات. دُسَّ جميع أفراد أسرته ممن وجد له مكاناً في السيارة نساءً ورجالاً. ثم انطلقت السيارات. أما أنا وداير فقد عدنا نجذف الزورق نازلين مع النهر في الظلام إلى قرية فالح.

تكلمنا قليلاً، ولكنني أتذكره يقول: «حدث هذا الشيء بكل بساطة، راد يرمي دجاجة ماي أخرى. حياة فالح من شان دجاجه ماي أخرى». توقف داير عن الكلام لفترة ثم استطرد وقال «هاي مكتوبه يا صاحب».

وبالنسبة لي، بدا لي أيضاً أن الحادث مدبّر، وليست الصدفة وحدها، وإلاّ، لماذا يخلط عباس الخراطيش ويملأ بندقيته بخرطوشة ذات كرات كبيرة تُستعمل لصيد الطرائد الكبيرة ويطلق النار في المناسبة الوحيدة باتجاه فالح؟. وإلاّ، لماذا تصيبه الرصاصة في المكان الذي أصابته وهو على بعد سبعين ياردا؟.

ولما نزعت ملابسي في دار فالح، رقدت في الغرفة نفسها التي كنت فيها قبل ليلة، في الصباح وأنا أرتدي ملابسي وجدت في جيبي الخرطوشة التي قطعتها وفيها سبع كرات كبيرة.

خرجت مبكراً وتوجهت إلى المجر، واستأجرت سيارة إلى البصرة، وهناك سمعت بأن فالح قد نُقل بالطائرة إلى بغداد. وسمعت الناس يقولون عنه بأنه أحسن حالاً وأن لهم الأمل في شفائه. فأبرقت برقية إلى صديقي في بغداد بأن ينتظرني في الصباح في محطة القطار. ولما حان موعد حركة القطار كنت في المحطة وأخذت مكاني في إحدى صالاتها.

ولما وصلت بغداد، التقيت بصديقي في المحطة وركبنا السيارة قاصدين مدينة بغداد نبحث عن دار الشيخ مجيد الخليفة.

سألت الشرطة فشرحوا لي موقع داره ثم قال بعد تفكير «لكن مجيد راح إلى النجف ليدفن ابنه الذي مات يوم أمس».

هذه هي القصة التي سمعتها عن موت الشيخ فالح مجيد الخليفة.



١٧ ـ مراسيم العزاء

عدت مرة أخرى أبحث عن دار الشيخ مجيد الخليفة بعد أن عاد من النجف الأشرف ودفن ولده فالح هناك. وجدت الدار بكل سهولة، وهو عبارة عن (فيلا) في ضواحي بغداد. ضغطت الجرس الكهربائي فجاءني من قادني إلى الداخل. رأيت عبد الواجد وخلفاً، الأخ الأصغر لفالح، جالسين في الغرفة. حييتهما ثم انتظرنا قدوم الشيخ مجيد الذي جاء من دون تأخير.

رأيت عينه الحمراوين من كثرة البكاء، ووجهه الكئيب من شدة الحزن والمصاب الأليم. وبعد التحايا الرسمية دعاني بأن أجلس بجانبه على الأريكة. ثم سألني عن أحوالي وعن الوقت الذي وصلت فيه، وهي أسئلة تقليدية تتطلبها عادات العرب.

عبّرت له عن حزني الشديد وقدّمت له التعازي فالتفت إليّ وقال ببساطة «صاحب. أعرف أنت صديق فالح» ثم جلسنا صامتين. وبعد فترة دخل علينا أحد الخدم وبيده دلّة القهوة. ولما أكملت شرب القهوة سألني مرة أخرى عن أحوالي ثم سكتنا.

مرّ في ذهني خاطر، شعرت بأن جلوسي بجانب هذا الشيخ الكهل والمصاب بهذه البلوى التي قضت على آماله وطموحاته بموت إبنه إنما هو شيء أكثر مما أتحمله. بقيت فترة ثم طلبت الإذن منه لأغادر المكان.

فقال لي «مع السلامة» وأجبته «ابق في حفظ الله». ولما خرجت من الدار بدأ المطر ينهمر واستمر هطوله طوال النهار بأسره.

وبعد بضعة أشهر، صادفت طبيباً إنكليزياً، إختصاصياً في أمراض القلب، مستخدماً في بغداد من قبل الحكومة العراقية. كان في البصرة حينما جاءوا بفالح إلى المطار. ولما سمع بالحادث ذهب من تلقاء نفسه إلى المطار وفحصه وأراد أن يجري له عملية جراحية فوراً حتى يزيل ضغط الدم المتخثر حول قلبه. لكن، قيل له بأن الشيخ مجيد قد أصدر أوامره بنقل إبنه إلى بغداد، وحاول الطبيب أن يشرح لهم بأنه هو الطبيب الاختصاصي في القلب لدى الحكومة في بغداد، وهو الطبيب الوحيد بالبلد. وأكّد لهم بأن الفرصة الوحيدة لإنقاذ حياة فالح هي السماح له بإجراء العملية فوراً. رفضوا طلبه. ثم قال لي لا شيء في الحقيقة يمكن أن ينقذ حياة فالح. وأظهر التشريح الطبي بعد الوفاة بأن الكرات الكبيرة قد أتلفت القلب، وقطعت الأعصاب الكبيرة وحطمت الرئة.

إنّ أشد ما أدهشه هو كيف بقي فالح حياً طوال هذه المدة الطويلة ثم استدرك وقال لا بد أنه كان قوياً بشكل استثنائي.

وبعد ثلاثة أيام ذهبت إلى قرية فالح لأشارك في الحزن والحداد. وصلت القرية وقت الظهر تقريباً. وكنت أسمع عويل النساء وضرباتهن الإيقاعية على صدورهن وأنا لا أزال بعيداً عن القرية. ولما وصلتها رأيت زوارق كثيرة راسية على الساحل وحشداً كبيراً خارج المضيف ورايات عشائرية عديدة موضوعة في المدخل وكانت طياتها الحمراء والنقوش الفضية على سارياتها تلمع مقابل جدران القصب تحت أشعة الشمس البراقة. وكان الجميع جالسين بسكون داخل المضيف الذي كان معتماً حيث جلس الرجال، وعباءاتهم ملفوفة حول أجسامهم، على طول جدران المضيف وهم لا يبدون حراكاً، ولما دخلت همس أحدهم بأذني قائلاً: «الشيخ مجيد جالس هناك» فعبرت الغرفة وحييته وصافحته ثم بحثت عن

مكان لأجلس فيه. أفسح الرجال لي في المجال كي أجلس. عرفت بعض الأشخاص في المضيف ولكن لم يكن عدد الذين عرفتهم كبيراً ورأيت عدداً من السادة وعلى رؤوسهم القماش الأخضر وعدداً من علماء كربلاء أو النجف الأشرف وهم بملابس سوداء مع عمامة صغيرة محكمة اللف بقماش أسود أو أبيض، وشيوخ العشائر، كلهم جاءوا مع أتباعهم من مسافات بعيدة مثل الكوت والناصرية، كما جاء أيضاً مختارو القرى وشيوخها ورجال من أبناء المدن والتجار من المجر والعمارة والبصرة كما كانت هناك أقارب الشيخ مجيد وكل رجال العشيرة.

وضع أحد الصبية علبة سجاير أمامي. ثم نهض عبد الرضا من جانب الموقد حاملاً بيده دلّة القهوة واقترب مني وأعطاني فنجان قهوة. وبعد لأي قال لي أحد الأشخاص الجالسين بجانبي بهدوء: «مساء الخير صاحب». ثم خفتت الحركة. وكان أحد الأشخاص يقول بضع كلمات من حين لآخر بصوت خافت مع من بجواره لكن الصمت كان يسود المجلس في أكثر الأوقات ولا تسمع سوى صوت حبات المسابح التي يسبحون بها أو يدخنون السكاير.

نهض ستة أشخاص وتوجهوا نحو الشيخ مجيد وسلّموا عليه ثم غادروا الغرفة ثم جاء آخرون ودخلوا الغرفة.

يدخل شخصان أحياناً أو ثلاثة سوية وأحياناً عشرون شخصاً مرة واحدة. وكل من يدخل يتقدم نحو الشيخ ويسلم عليه ثم يعود ليجد له مكاناً للجلوس ثم يأتي من يقدّم لهم القهوة والشاي والسكاير.

وقبل أن تغادر كل جماعة، يقول أرفعهم مقاماً بصوت مسموع «الفاتحة» فيقرأ كل من يسمع ذلك السورة المذكورة من القرآن الكريم وأكفهم مفتوحة كمن يطلب الدعاء من الله جلّت قدرته.

كان بوسعي وأنا جالس في مكاني أن أسمع صوت القوارب وهي

ترسو أو يتم دفعها لترحل لأنه لا يفصلنا عن الساحل سوى جدار مصنوع من الحصير، كانت العصافير تزقزق بين أقواس القصب العظيمة في السقف ولا تبالي بوجود الحاضرين.

ثم نهض عدد كبير من الجالسين وقدم غيرهم أقل منهم عدداً لذلك ظهرت الفجوات الواسعة بين الجالسين حول الجدران.

وكنت قد اعتدت الجلوس على الأرض من جراء تجوالي لسنوات طويلة أجوب فيها صحراء الجزيرة العربية. لكنني الآن بدأت أشعر بوجود ألم في جسمي من جراء تصلب العضلات. وما أن نهض الشيخ مجيد من مكانه وغادر المضيف وتهيأ الآخرون لتأدية صلاة المغرب حتى خرجت من المضيف أبحث عن داير. ولما رأيته، سألته عن المدة التي يجب أن أبقى فيها فأجابني قائلاً: «يعرف الكل أنك صديق فالح. أعتقد يتوقعون منك أن تبقى يومين آخرين. تعال هسه وياي واجلس مع بعض أصدقائك». ثم قادني نحو سقيفة طويلة من القصب كانت قد أقيمت خلال الأيام القليلة الماضية. وكنت قد خرجت مرة مع الشيخ فالح إلى هذا المكان حينما أردنا الذهاب للصيد وكانت الشمس مستقرة في كبد السماء أمامنا على شكل كرة وهاجة برتقالية اللون، وذلك قبل إقامة هذه السقيفة.

رأيت في داخلها عدد من أتباع الشيخ فالح وهم جلوس حول موقد النار الصغير وأغطية رؤوسهم مصبوغة باللون الأزرق الداكنة كعلامة للحزن. رحّبوا بمقدمي بأسلوب لطيف وقدموا لي القهوة بكثرة. ومن الأمور الحسنة أن العرب يصبون بضع قطرات منها في الفنجان حينما يقدمونها للضيف. أما أنا فقد شربت عدداً لا يحصى من الفناجين في ذلك اليوم.

وفي هذا الوقت، بعد أن حل الظلام، بدأت بنات آوى بعدائها المسائي من الساحل الكائن خلف النهر، كلها بصوت واحد، مرة يعلو

وأخرى ينخفض ثم يعلو ثانية. وكانت أصواتها تهتز ولها رنين عبر الأرض الساكنة ثم تخفت بالتدريج حتى يصبح الصوت كالزعيق المصحوب بالعذاب.

سألت عما حلّ بعباس. فأجاب داير باستهزاء قائلاً: «هرب إلى قلعة صالح وذب نفسه في أحضان الشرطة طالباً الرحمة. بعده لا يزال هناك. الله يدمره».

«ومحمد أبوه».

«هو الآخر راح إلى قلعة صالح وطلب المساعدة من الحكومة. ويقال أنه كلف أحد المحامين».

«محامي!» قال أحدهم «المحامي ما يكدر يسوّي فد شيء. مجيد في غاية الغضب لأنه راح إلى الحكومة. عمله فد شيء موزين تماماً».

«نعم» أبدى الآخر ملاحظة «كان لازم يجيب وياه عباس ويسلمه إلى مجيد، إن كان هو الفاعل، ومجيد لا بد وأن يخلصه. بس هسه حتماً راح يقتله». وقال داير استمراراً للحديث:

«هذوله أغبياء جداً. راح تصير مشكلة كبيرة». ثم قال أحدهم:

«هسه مجيد يكول بأن عباس رمى فالح متعمد بسبب النزاع حول الزراعة».

وأجاب داير على هذا الكلام قائلاً:

«أنا أعرف راح يسويها».

عدت إلى المضيف فوجدت ما لا يقل عن ثلاثين شخصاً. لم أعرف أحداً منهم. غير أنّ أحدهم سألني قائلاً: «هل أنت الإنكليزي صديق فالح؟». وعندما أجبته بالإيجاب قال: «مرحباً. مرحباً بصديق فالح». سأل آخر عما إذا كنت معه حينما أطلق عباس النار عليه وماذا حدث. وبينما

كنت أقصّ عليهم الخبر، جيء بالعشاء فأكلنا بصمت كما هي العادة ثم أخذنا نتكلم بعد ذلك إلى أن جاء الخدم ومعهم الفرش وبدأوا يرتبونها حول جوانب الغرفة.

ولما أصبح الصباح، كان المضيف في هرج ومرج، فبدأ النائمون ينهضون تباعاً ويغسلون أيديهم ووجوههم وبعضهم يتوضأ حتى يؤدي صلاة الفجر. جلسنا على طول الجدران ولف الخدم الفرش ثم رفعوها. هيأوا القهوة وبدأنا نشربها ثم جاء صبي يحمل طبقاً كبيراً مملوءاً بأقراص أرغفة من الخبز وألقى واحداً أمام كل شخص منا. فبدأنا نأكل الخبز ونشرب قدحين أو ثلاثة أقداح من الحليب المغلي.

وجاء الشيخ مجيد فنهضنا إجلالاً واحتراماً لمقامه وكان يصحبه إبنه الأصغر خلف وابن فالح عبد الواحد وآخرون من أسرته.

حيّانا ثم جلس في المكان نفسه الذي كان فيه قبل يوم وجلسنا نحن أيضاً في أماكننا حول الجدران.

بدأ الناس يدخلون المضيف بالتدريج حتى أكتظ بهم. وراقبت الشيخ مجيداً فرأيته متعباً جداً، محطم القلب، مملوءاً بالأسى والحزن. لحيته رمادية اللون غير محلوقة وكرشه الكبير يتدلى أمامه وهو رجل عجوز. أخذ يتكلم بعنف وغضب ويقول: «ليش يكون الموت لفالح؟ ليش فالح؟ يا رب، هسه ما بقي عندي أحد». وتذكرت أن ولده الأخير خريبط كان قد قُتل قبل ثلاث سنوات.

وحاول من كان بجانبه تهدئته فقال له: «عندك خلف وعبد الواحد».

لكنه صاح «لا. لا. ما عندي أحد. هسه ما عندي ولد. أرضي إيش راح يصير بها لما أموت؟ ايش راح يصير لأرضي هسه بعد ما مات فالح؟».

وفي هذه الأثناء وصل عدد آخر من المعزين ودخلوا المضيف وحيّوا الشيخ مجيداً فردّ على تحيتهم ثم غاص في تفكير عميق.

وفي هذه الأثناء، حدث صخب عالٍ على الساحل، ارتفعت أصوات الرجال واشتدت ضربات المجاذيف. إنها جماعة، أتت للتعزية، وهي تحمل بنادقها. نزلوا من القوارب وشكلوا رتلاً مفرداً وراء رجل طويل القامة، بجسم ضخم، يرتدي عباءة مطرزة بخيوط ذهبية مصنوعة من أجود خيوط الوبر.

همس أحدهم من أبناء البصرة وقال: «منو هذا الرجل؟».

«هذا سليمان بن مطلك» أجاب الشخص المجاور.

كنت قد سمعت عن سليمان، الشيخ البارز من عشيرة الأزيرج، زراع الشلب وأراضيهم مجاورة لأراضي الشيخ مجيد ولكنني لم ألتق به أبداً حينما زرت عشيرته.

كان وجهه شاحباً، إلا أنه ممتلىء الجسم، تبدو عليه علائم رقيقة من جراء السنوات التي عاشها برخاء، وأمضى معظم أوقاته في بغداد، شأنه شأن الشيوخ الآخرين من أمثاله.

جلس بجانب الشيخ مجيد وجلس أتباعه في أماكن كل حسب منزلته. ويحمل كل واحد منهم تحت العباءة خنجراً وصف رصاص متقاطع مملوء بالعتاد. قُدمت لهم القهوة والشاي ثم ساد المجلس سكون رهيب. ثم قال سليمان «الفاتحة» فقرأ هو وأتباعه سورة الفاتحة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد. وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». آمين (صدق الله العظيم).

كنت آمل أن يقدموا الغداء في الحال حتى أتمكن من مدّ ساقي ولكن على العكس سمعت صوت إطلاقات نارية غزيرة وعويلاً بشكل جنوني وهذا يدلّ على قدوم جماعة أخرى. ولمحت من خلال مجاز الباب راية عشائرية وحشداً من الناس وقد لطخوا رؤوسهم وملابسهم بالطين. وقال أحدهم للشيخ مجيد «هذوله من قرية قباب». وكان معهم ما يقرب من (٤٠ ـ ٥٠) شخصاً من قرية بومفيفات.

توجه الكل برتل مفرد، الواحد بعد الآخر، نحو مجيد، يقبلون يده ثم يعودون ليجدوا لهم محلاً في المضيف. عرفت معظمهم.

ثم سمعنا بعد فترة وجيزة صوت إطلاقات أكثر غزارة وعويلاً أشد. إنهم من قرية العكار.

والآن، مضى على الظهر وقت طويل. ووصلت في هذه الأثناء ثلاث رايات عشائرية أخرى تعود للعشائر القادمة للتعزية قبل أن يُخبر الخادم الشيخ مجيد من أن الغداء جاهز.

كان ينهض في كل مرة (٤٠ ـ ٥٠) شخصاً يتجهون نحو السقيفة التي كنت فيها في الليلة السابقة ويتناولون الطعام من صواني كبيرة عليها كوم من الأرز وفوقها لحم الضأن.

وعندما تنتهي كل جماعة من أكلها يملأ الخدم الصواني بالأرز ولحم الضأن حتى تأتي جماعة أخرى. وهكذا يتناول الجميع الغداء، داخل المضيف، وخارجه.

ثم نهضوا من أماكنهم وبدأوا بالهوسات وهي رقصة الحرب عند العشائر. وكانت كل جماعة تردد مقطعاً من قصيدة يلقيها أحدهم في مدح الشيخ فالح. كانت بنادقهم مرفوعة فوق رؤوسهم ويضربون الأرض بأقدامهم يقفزون ثم يدورون حول الراية القرمزية.

والرجال الذين يمسكون الراية هم رؤساء الأسر الذين تسمح لهم

حقوقهم العرفية بحملها في المعركة. وكان هؤلاء يهزون أعمدة الرايات حتى تحدث أصواتاً تزيد من حماسهم. ويستمرون على هذه الحالة يضربون الأرض بقفزات وينشدون قصائد المعركة ويبدأون بإطلاق الرصاص من بنادقهم بشكل متفرق في البداية ثم ينهمر الرصاص كالمطر من الحشد بأسره بحيث أنني لم أسمع مثلها إلاّ في الحرب.

إن رائحة البارود تدخل في خياشيمهم فتهيّجهم وتزيد من حماسهم فيبذلون جهداً أكبر. وما زالوا يمارسون الهوسات حتى صاح بهم الشيخ مجيد «كفاية» فاندفع خدمه بين هذا الحشد وهم يصيحون «كفاية» الشيخ يقول «كفاية». فتوقفوا وهدأوا.

دخلنا المضيف مرة أخرى.

وبعد مضي عدة ساعات، غادر الشيخ مجيد المضيف بعد غياب الشمس، فخرجنا من المضيف.

كنت أتحدث مع جماعة من الناس ونحن على شاطىء النهر، إذا بصبي يمرّ من أمامنا مسرع ويصيح بأعلى صوته كلمات لا أفهمها وانطلق عدد من الرجال إلى دورهم مسرعين. وأنا أعلم أن القوم لا يزالون في هياجهم ولكن مع ذلك سألت قائلاً «ماذا حدث؟».

أجابني أحدهم قائلاً: «دز مجيد بعض الرجال حتى يقتلوا محمد».

فقلت: «لكن محمد هو في قبضة الحكومة في قلعة صالح».

«لا. يقولون أنه عاد إلى داره في المجر».

شاهدت من خلال الضياء الباهت زورقين ينسلان بعكس المجرى محملين بالرجال المسلحين ليأخذوا بثأر فالح.

وكنت أسمع في هذا الوقت عواء بنات آوى من الجانب الآخر من الساحل كأنها ترفض مثل هذا العمل.

سيكون محمد في أمان طالما لا يزال واحد من قلعة صالح.



١٨ ـ الأهوار الشرقية

نصحني داير بأن أبقى يوماً آخر، فاستأذنت في اليوم التالي من الشيخ مجيد وغادرت إلى قرية قباب مع عماره وسبيتي اللذين كانا معي في المضيف في الليلة السابقة. وجدتهما في غاية التأثر والحزن بسبب وفاة الشيخ فالح. كانت الدموع تنهمر من عيون عماره حينما كانا يجذفان الطرادة وهو يقول: «هو أبونا. كان يسمينا صديق الصديق. وحينما يأتي إلى قريتنا يطلبنا ليستفسر عن أحوالنا».

ومن خلال تجوالي في السنة التالية، سمعت الناس في أماكن بعيدة تقع على الحدود الإيرانية وأماكن تقع على نهر الفرات بالقرب من الناصرية يذكرون وفاته بأسى عميق. وكانوا يسألونني «هل أنت صديق فالح؟» فكانوا يرحبون بي ترحيباً حاراً. وما كنت أدري أنه معروف بهذا الشكل وأن له شهرة واسعة وأنه رجل محترم.

خططنا بأن نقضي الأسابيع الستة التالية في الأهوار الشرقية. نمنا ليلة واحدة في مضيف فالح حيث قام ولده الصغير بواجب الضيافة. كانت قرية قباب أيضاً تلبس ثوب الحداد فيدخل قليل من الناس إلى المضيف ولا يمكثون إلا فترة قصيرة ثم يخرجون.

وفي صباح اليوم التالي، التحق بنا ياسين وحسن فذهبنا جميعاً إلى قرية البوبخت وهي قرية صغيرة من قرى الأهوار وأمضينا فيها ليلتين

قضيناها بالعمل الدؤوب من التطبيب ثم رحلنا. وبعد أن عبرنا من تحت عارضة جسر يمر من فوقه طريق الآليات من البصرة إلى العمارة وبغداد، وصلنا إلى نهر دجلة تحت مدينة العزير. ثم جذفنا بعكس المجرى وعبرنا مزار عزرا ذي القبة الخضراء وآجرها الأزرق.

يقع المزار بين أشجار النخيل الباسقة وفي جوانبه غرف متداعية لنوم الزوار.

والعزير نفسها مدينة قذرة، يتوقف فيها سائقو اللوريات والحافلات للاستراحة. وهناك محرقة للطابوق، تبعد بضعة أميال خلف القرية وهي قائمة في هذا المكان كأنها مذابح القرابين في الكنائس.

وإن مثل هذه المحارق هي التي كان البابليون يحرقون فيها الطابوق ليبنوا دورهم منها. أما الآن فإن الطابوق المستخرج من هذه المحرقة يستخدم لبناء الدور ذات الطابق الواحد في ضواحي البصرة.

قطع ياسين عليّ تفكيري وتأملاتي حينما قال لي: «يقولون بأن الكوسج مسك رجل في النهر قبل أيام وكص رجله». وأنا أعرف أن الكوسج يهاجم الناس أحياناً حينما يستحمون في شط العرب في البصرة. أما العزير فهي بعيدة إذ تبعد عن البحر مقدار (١٥٠) ميلاً وعن شط العرب (٨٠) ميلاً. وعندما أظهرت تعجبي، أكّد رفاقي الصبيان بأن العزير هي أسوأ مكان للكوسج. وفي المرة الثانية، عندما كنت في العزير، أخبرني أحد القرويين بأنه في أيام زمان صادف والده سمكة ضخمة سدّت النهر، في مكان فيه مياه ضحلة ولم يتمكنوا من التخلص منها، إلا بعد تقطيعها في مكانها، ولما جذفنا في امتداد النهر، سألت عما إذا كان يوجد الكوسج في الأهوار. أجاب حسن بأنهم كانوا يصيدون الصغار منها بالرمح قبل بضع سنوات. قاطعه عمارة قائلاً لي: «هل سمعت بأن ضبع قتل شخص بغيابك؟. كان نائم في العراء خلف المجر ونهش وجهه. وجدوه ميت وتعرف عليه من ثيابه».

كنت قد شاهدت ضبعاً مخططاً قبل ثلاث سنوات وأما الضباع المرقطة ببقع واسعة فتتواجد في أفريقيا.

كانت الأسود تعيش في هذه المنطقة قبل أربعين سنة من هذا التأريخ. ولكن العشائر قضت عليها بعدما حصلت على بنادق حديثة خلال الحرب العالمية الأولى.

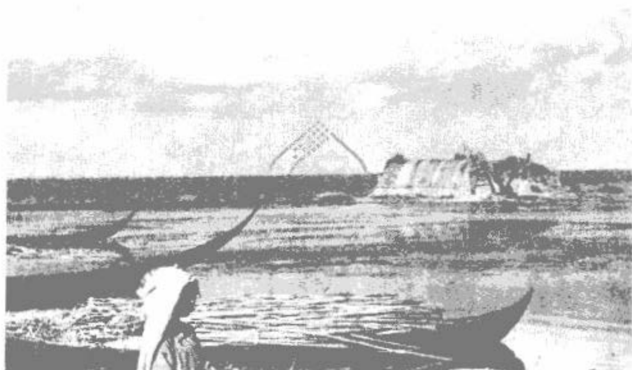
أخبرني مرة أحد خدم الشيخ فالح، وهو رجل كبير السن، كيف أنه شاهد ثلاثة ضباع بالقرب من المجر. وشرح لي رجل آخر كيف يصطادون الأسود حيث اشترك هو في صيدها في مكان لا يبعد كثيراً عن مدينة العمارة. وقال شخص آخر كنت قد صادفته بأنه شاهد شبلين حظي بهما جماعة من المعدان فأخذوهما إلى شيوخهم. ويتذكر الرجال المسنون أنهم كانوا يسمعون زئير الأسود ليلاً.

تحولنا في سيرنا إلى مجلس ماء عريض يقودنا إلى الأهوار الشرقية صادفنا قارباً كبيراً ذا صاريتين محملاً بالحصران إلى ارتفاع عال يدفع بجهد كبير نحو نهر دجلة، ثم مررنا بعد ذلك بطوف كبير مصنوع من القصب اليابس، طوله (٤٠) قدماً وارتفاعه (١٠) أقدام وكان جانحاً في الماء ومهجوراً موقتاً. وعندما يرتفع منسوب الماء، تطفو هذه الأطواف من القصب وتسير مع المجرى وربما تصل إلى البصرة ثم تفكك وتباع.

أمضينا الليل في قرية بيضات النوفل، وهي أكبر قرية شاهدتها في الأهوار.

وتتألف هذه القرية من (٦٤٠) بيتاً ولا يوجد فيها أي مضيف. وكانت مجموعات البيوت المختلفة مبنية على امتداد حافات الأرض اليابسة، تفصلها المياه. وفي بعض الأحيان يجف الماء حينما ينخفض منسوب نهر دجلة فيغادر النوفل قراهم وينصبون الخيام على امتداد النهر مع جيرانهم من «البوغنام» القاطنين في الشمال ومع البوبخت القاطنين في الجنوب.

وبعملهم هذا يكوّنون الشدّة، وهي فخذ صعب المراس من عشيرة البومحمد. يربي النوفل الجواميس، غير أنهم يعتمدون في معيشتهم على حياكة الحصران حيث يصدرونها بأعداد كبيرة. فتأتي القوارب الكبيرة كالتي شاهدناها من قبل وتأخذ الحصران حينما يرتفع منسوب الماء حتى يسهل المرور منه. وكانت المياه في هذه السنة عالية بشكل استثنائي.



من الأهوار الشرقية

مكثنا عند المختار وتناولنا طعاماً رديئاً فتضايقت من ذلك لأنني كنت قد عالجت عدداً من أفراد أسرته. وأعتقد أن القرويين عموماً خشنو الطباع فرحلت من قريتهم دون أن أشعر بأي أسف على الفراق. وشاركني في شعوري هذا رفاقي فكانوا يتذمرون ويقولون بأن مضيّفنا لم يقدم لنا الحليب في الفطور بل إنما اكتفى بتقديم قدحين من الشاي محلّي بسكر قليل شربناه مع الخبز.

وقال ياسين بازدراء: «اللعاب ما يسيل على مثل هذا الفطور». وعلى أية حال، كان ذلك النهار لطيفاً جداً فانتعشنا. كان الهواء منعشاً وصافياً، يهب النسيم العليل من الشمال. والشمس تبعث بأشعتها الذهبية فتجعل النهار دافئاً غير أن هناك غيوماً دائرية الشكل منتشرة في السماء الزرقاء الباهتة. جذفنا الطرادة في قنوات ضيّقة متواصلة ثم انعطفنا عبر سهل مكشوف مغطى بالبردي المتساقط.

ففي الأهوار الوسطية، ما عدا في الأهوار التي تتكون بالمناسبات، يتحدد مجال الرؤيا إلى حد بضع ياردات لوجود منابت القصب. وهنا في هذا المكان بإمكاننا أن نرى لمسافة عدة أميال.

كانت الأرض يابسة طوال فصل الشتاء، لذلك نراها الآن كذلك كالفخار لأن المياه لم تغمرها وكانت تبدو رمادية اللون. أما في الأماكن الأخرى فقد غطت المياه المرتفعة الأرض بعمق بضع عقد لذلك كان لونها كالطين أشبه بالشوكولاته المذابة.

وبمسيرنا هذا هيّجنا كثيراً من الطيور المائية، فبعضها طار بمفرده زاعقاً وبعضها الآخر على شكل مجموعات كبيرة، تندفع في الجو ثم تستدير فوق سطح الماء والبردي الأبيض اللون. وعرفت منها طائر الكروان والغيّوب والطبطوي الأحمر الساق والمخفّض والمائي ذا العنق الأحمر والطائر النكّات والطائر الطوّل وأنواعاً أخرى من الطائر الزقزاق. كما كانت تنتشر أعداد كثيرة من البط طارت قبل أن نصل إلى مسافة تكون فيها ضمن مدى الرمي. وهناك مالك الحزين وأبو المنجل والبلشون الأبيض والطائر أبو ملعقه. ومرة شاهدت من مسافة بعيدة مجموعة كبيرة من طيور الكركي.

كان حسن يندفع باستمرار نحو كل طير يعتقد أنه صالح للأكل لكنه لم يقترب أبداً منها بحيث يتمكن من رميها. لذلك كان يعود في كل مرة

بخفي حنين ويتلقى الانتقاد اللاذع لأنه لا ينفع كصيادٍ للطيور البرية. وكان ياسين وسبيتي في غضون ذلك يسيران على امتداد الساحل ويدفعان الطراد بواسطة المرادي.

كان مجرى الماء واسعاً يكفي لسير الزورق وينعطف أحياناً بشكل حاد على شكل زاوية قائمة ولكن الجذافين تمكنوا في النهاية من تسهيل استدارتها لأن زورقنا كان بطول (٣٦) قدماً. ولهذا السبب رأيت أنه يجب أن نعود. ارتديت الدشداشة مثل رفاقي فإذا توجب عليَّ النزول إلى الماء لمساعدتهما أثبت الدشداشة حول خصري. وكنت أرتاب دوماً من أولئك المسافرين الذين يرتدون الملابس المحلية دون سبب يستوجب ذلك بل هي عادة لديهم حتى يلفتوا الأنظار إليهم. والملابس العربية ليست سهلة الاستعمال إن لم يكن قد اعتاد المرء عليها. وأما أنا فقد اعتدت على ارتداء الملابس العربية طوال خمس سنوات حينما كنت أتجول في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية حتى أظهر كواحد من العرب وبخلاف ذلك سأكون شاذاً عنهم.

أما في العراق، فقد اعتادت العشائر العراقية على رؤية الملابس الأوروبية فتراها مقبولة لأن جميع الموظفين الحكوميين لا يرتدون غير الملابس الأوروبية، وارتديت الملابس الأوروبية حينما زرت الأهوار لأول مرة ثم لما شعرت أنني سأكون مقبولاً لديهم إذا ما ارتديت الملابس العربية. وضعت الكوفية على رأسي ثم ارتديت سترة فوق الدشداشة الطويلة. وأصبح هذا الزي مقبولاً حتى عند المعدان. وعندما كنت أجلس في الزورق أو أمتطي ظهر الحصان تكون الدشداشة قد حافظت على سيقاني وأقدامي من لسعات الذباب والبعوض. لكنني كنت دائماً أغير هذه الملابس وأرتدي الأوروبية قبل زيارتي للموظفين أو الذهاب إلى المدينة.

كنا نعبر جزءاً من العويسج، وهي عبارة عن امتداد من الأرض يغوص في المياه عند الفيضان فقط. وهذا يفصل نهر دجلة إلى مسافة (٢٠)

ميلاً أو أكثر كما تفصل المستنقعات إلى محيطها في أماكن أخرى اعتباراً من هور العظيم وإلى الشرق. ولما كانت هذه الأهوار عميقة بشكل عام فإنها تشكل أحسن مكان للجواميس، لذلك يميل المعدان إلى بناء قراهم على امتداد العويسج أو على مصبات الكحلا والمشارّيا إلى الشمال. وفي فصل الخريف يعبر بدور ربيعة الفريجات نهر دجلة مع قطعان هائلة العدد من الجواميس وينصبون خيامهم ويقضون فصل الشتاء هناك. أما في فصل الربيع فيعودون عبر نهر دجلة ثم يعقبون فرع الوادية ببطء متجهين نحو الشمال ويرعون جواميسهم على حقول محاصيل الشعير والحنطة وهم في طريقهم إلى المجر حيث يسمح لهم بهذا العمل مجاناً مقابل السماد الذي يحصلون عليه منهم. ثم ينتقلون إلى الغرب إلى (جندالا Jindala) حتى ينقضي فصل الصيف في هذه الأراضي الصالحة للرعي والتي لا مثيل لهما. وينمو العشب حالما تنحسر المياه عنها، ولكن من أجل هذا، عليهم أن يدفعوا للشيوخ أموالاً باهظة.



كان عمارة ينتمي إلى ربيعة، وتوقعنا أن نجد أقاربه في أبو ليلى وهي أكبر مخيّم شتائي لهم، يقع على مسافة قريبة منا. ولما اقتربنا، رأينا قطعاناً من الجواميس يحرسها عدد من الصبيان. وشاهدت بين هذه القطعان جاموساً أبيض اللون تقريباً وعدداً آخر من الجواميس المرقطة باللون الأبيض والأسود. ولما كان حجم القطيع قد أثّر فيّ لذلك سألت عن عدد ما تملكه الأسرة البدوية الاعتيادية من الجواميس.

فأجاب عمارة قائلاً «بين ٢٠ ـ ٣٠» جاموساً. غير أن حسن أخذ يصرّ في قوله بأن معظم الأسر تملك أكثر من هذا العدد بكثير. وذكر اسم إحدى الأسر من ربيعة كدليل على صحة قوله بأنها تملك (١٥٠) جاموسة. ثم سألت: «في أي عمر تلد الجاموسة؟».

«عادة، تبلغ الرابعة من العمر» قال عمارة ثم استطرد في القول «مدة الحمل أحد عشر شهراً، والجاموسة الجيدة تلد إلى حد خمسة عشر

عجلاً». ولما كنت أعرف أن البدو يقتلون عادة ذكور الإبل عند الولادة حتى يحصلوا على حليب أكثر لأنفسهم. لذل سألت عما إذا كان المعدان يفعلون الشيء نفسه مع جواميسهم.

«نعم. ما لم يكن الرجل يملك عدداً قليلاً. ويحتفظ عادة بعجل فحل حتى يبيعه حينما يكبر فإذا ذبح العجل فإنه يفسح عادة في المجال للأخرى بأن ترضع كما يكثر عند ذاك حليب الأم ويتحسن، وتراه يمسح الوحل من الوليد الجديد بعباءة ثم يرتديها حينما يريد أن يحلب أمها. وإذا مات العجل فيضعون أمامها جلد عجل محشواً إذا أرادوا حلبها».

«كم يدفعون ثمناً للجاموس الواحد؟».

«كانت الجلاّبة يدفعون خمسين ديناراً تقريباً للعجل الواحد إلى الشهر الماضي و(٣٥) ديناراً للفحل».



والجلاّبة تجار خاصون، يتجولون بين المعدان، يشترون الجواميس.

فتذكرت أن الأهالي في السودان يستعملون كلمة الجلاّبة لتجارة العبيد فقط. ويشتري هؤلاء التجار جلود الحيوانات التي تموت خلال موجة الوباء المسمى نزيف تعفن الدم فيهلك القسم الأعظم من القطيع. ويعرف سكان الأهوار بأن هذه الجلود تحمل معها العدوى ولكنهم لا يمتنعون من شمّها ولو أنهم يحتجون بغضب إذا ما جلب التاجر معه مثل هذه الجلود إلى قراهم.

وبهذه المناسبة قال حسن: «قبل بضع سنوات حدث مرض القلاعية، فأصيبت معظم جواميسنا بهذا المرض حتى أنها أصابت الخنازير البرية. وكنا نجد الخنزير الذي لا يستطيع السير أنه مصاب بقدمه بشكل سيء يقعده عن السير».

أخذ مجرى الماء في «أبو ليلى» يتسع بحيث يصبح عرضه (٣٠) ياردأ

تقريباً. فكنا نشاهد الجواميس غائصة في الماء وغيرها واقفة على حافة الماء. كما شاهدنا زوارق عديدة، معظمها كبير ومسحوب إلى الشاطىء وترى الأطفال يجذفون حولها على أطواف صغيرة مصنوعة من أغصان الأسل. ورأينا البيوت منتشرة على امتداد الضفتين ويبلغ عددها ما يقرب من مائة بيت.

كانت بيوتهم صغيرة الحجم، فيها خمسة أقواس فقط وهي فعلاً تبدو صغيرة إذا ما قورنت بشقائق الجواميس الملحقة بالبيت والذي يسمونه (ستره) لأنها بطول (٤٠) ياردأ تقريباً.

والسترة على خلاف البيت نفسه، مصنوعة على شكل خيمة ولا تغطى بالحصران. يضم سيقان القصب إلى بعضها البعض حتى تشكل الجدران، وتجعل مائلة إلى الداخل وتثبّت بعواميد تمتد فوق الرؤوس ثم يكوّم السماد والحشيش على امتداد الجدران من كلا الجانبين ثم ترص بالأقدام.

توقفنا في إحداها وهي تعود إلى ابن عم عماره. وهو صبي طويل القامة هادىء إسمه بادي. ولما رأى ابن عمه ركض إليه وضمّه إلى صدره بحرارة لأنهما أصدقاء قبل أن يكونا أقرباء ثم جلب البسط والوسائد.

جلسنا تحت أشعة الشمس، في مدخل السترة الذي يقود المرء إلى الخلف مثل النفق إذا ما أراد الذهاب إلى البيت.

كانت زوجته وأخته تدقان الشلب قبل طبخه لغدائنا. وكان والد بادي قد توفى قبل سنوات كثيرة، لذلك أصبح رئيس العائلة التي تتكون من الأم والزوجة والأخت وأخوين صغيرين كانا حينذاك خارج البيت يرعيان الجواميس. كانت علاقة بادي سيئة بعائلة أخرى تسمى رضوي الذي يعيش في مخيم قريب. وكان حسن أحد أولاد رضوى في غرام مع زوجة بادي ويأمل أن يتزوجها.

ولكن، بما أن بادي هو ابن عم البنت فهو أحق من غيره بزواجها

عرفاً وتقاليد. لذلك حينما طلب حسن يد هذه البنت كان بادي له بالمرصاد فاستعمل حقه هذا وأصرّ على زواجها. ولما تزوجها بادي، أضمر حسن له الحقد وأقسم بأنه سيأخذ زوجته حتى إذا اقتضى الأمر ارتكاب جريمة. وقبل وصولنا بعدة أسابيع، تشاء الصدف، أن يتلاقى حسن وبادي فبدءا بالعراك حتى تدخل الناس بينهما وذهب كل منهما إلى حال سبيله. ولما سمع الحاضرون هذه القصة أعطوا الحق لبادي وخطأوا حسناً.

ثم سمعت رجلاً طاعناً في السن يقول: «حسن بن رضوى. الإبن على سر أبيه، كلهم خارجون على القانون. وناس موخوش. موش رضوى قتل شخصين لما تلاقى معهم؟».

وانتهز عماره فرصة وجوده فأراد أن يصلح بينهما لذلك طلب بأن يرافقه ثلاثة رجال من كبار السن للقيام بهذه المهمة. ولما ذهبوا وأمضوا النهار هناك لم يفلحوا في مهمتهم فعادوا في المساء بخفي حنين. وقال عماره بازدراء: «ما يكدر أحد يسوي شيء وياهم. حتى السيد سروط نفسه ما يكدر يسوي شيء. أشوف من الأفضل أن يطلق بادي زوجته وإلاّ يتحمل العاقبة». ثم أخذ يحذر بادياً قائلاً له: «لا تروح قريب منهم. خلي بندقيتك بأيدك. خصوصاً بالليل. هذوله يريدون مشاكل».

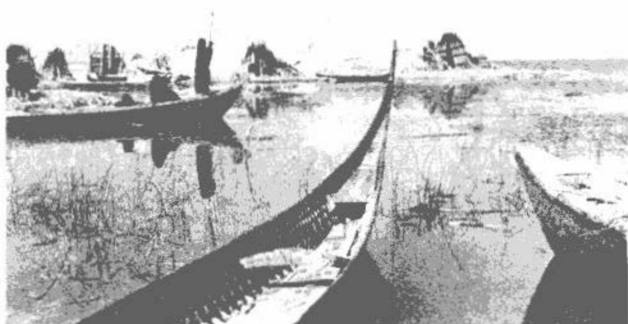
غابت الشمس، وهب الهواء البارد، وبدأت الجواميس المتأخرة والأكثر سواداً تعود من السهول الأكثر عتمة إلى القرية. وكانت الغيوم الشفافة، معلقة في السماء، لا تتبدل ألوانها، تمرّ في السماء أمامنا، والبط يطير على شكل مجموعات صغيرة متعاقبة متجهة نحو الغرب.

دخلنا الغرفة نفسها وامتلأ الممر الطويل بقطيع الجواميس ذات الأجسام الضخمة تحمل في رؤوسها قروناً سميكة ومقوسة.

ينتمي عمارة إلى هذه العشيرة البدوية من الفريجات. وبكفالته وأدويتي التي يشهد بها الجميع، دخلنا إلى مخيم آخر، فرحبوا بقدومنا. أما

عشيرة الربيعة فهم أناس يتميزون بالعناد وبالخروج على القانون لذلك تراهم مدججين دوماً السلاح، لا يرتبطون بمكان، فهم أحرار يتنقلون متى يشاؤون وأين ما يشاؤون.

واعتاد هؤلاء القوم على حرق القصب الذي يعتمد عليه (نوفل البيضات) في صناعة الحصران وذلك ليؤمنوا نمو نباتات جديدة كعلف لجواميسهم ولهذا السبب هم مكروهون من «نوفل البيضات».



في الأهوار الشرقية

وهؤلاء القوم هم أيضاً في عداء مستمر مع السويد المعدان. وهؤلاء أيضاً هم أناس خارجون على القانون ويسكنون بالقرب من الحدود الإيرانية.

وهذه العشائر يسرق كل منها جواميس العشيرة الأخرى حينما تحين الفرصة.

غادرنا الفريجات وتوقفنا في قرية طرابه Turaba وأمضينا الليل فيها. وهذه قرية كبيرة، تعتمد على صناعة الحصران مثلما تعتمد البيضات عليها وتسكنها عشائر البوغنام.

وكنت قد كيّفت نفسي حينما كنت بين البدو على أكل الأرز والحليب. وهنا في هذا المكان كنت أتوقع أن يذبحوا لنا على الأقل دجاجة، لكنهم لم يفعلوا ذلك. وعندما حلّ المساء وجلسنا لتمضية الوقت مع مضيّفنا رأيته يبدأ في سب الفريجات ويلعنهم مما حدا بي لأدافع عنهم بشكل مفرط.

وفي صباح اليوم الثاني، طلب منا أحد الرجال من منطقة الكحلا أن نحمله معنا في الزورق فسرّنا ذلك لأنه سيرشدنا في سيرنا من خلال منابت القصب الكائنة أمامنا لأن ياسين كان قد سألهم في مسار اليوم السابق بعض الأسئلة ليحصل منهم على معلومات وافية عن الطريق الذي سنسلكه فأجابوا بضرورة وجود أحد الأولاد معنا وإلا سنتوه. كنا نسلك طريقاً يمر من خلال القصب العالي وعبر بحيرة صغيرة، يصعب علينا تمييزه. وإنني أتذكر جيداً بأنني سمعت لأول مرة صوت الطائر الواق في هذه السفرة. أمضينا أربع ساعات في سيرنا حتى وصلنا إلى قرية دبن Dibin وهي القرية التي نقصدها وتقع على مصب نهر الكحلا. كان رفاقي ماهرين في تذكّر الطريق واكتسبوا معلومات كثيرة عن الأهوار خلال السنوات التي أمضوها معي بحيث لا يدانيهم فيها أحد. وكانوا، غريزياً، يهتدون إلى الطريق الصحيح حينما نكون في أماكن لم نصلها من قبل أبداً. وقد لاحظت خاصة هذا الشيء حينما كانوا يبحثون عن الطريق الصحيح بين القصب والجزر الصغيرة الواقعة على إمتداد حافة البحيرة حتى يجدوا مدخل مصب النهر الصغير الذي لا يمكن تمييزه من بين مئات المجاري الأخرى المؤدّية هناك.

وهؤلاء الناس يكتسبون المهارة في إيجاد الطريق منذ طفولتهم حينما يتعقبون أثر خنزير يسبح في الماء. وبمقدورهم معرفة نوع السمك من الأثر الذي يخلّفه أو معرفة الزورق من أول لمحة يرونه فيما إذا شاهدوه من قبل، وعلى أية حال، أقول من الغريب أنهم لا يتذكرون الأسماء. وأنا

أيضاً كنت أعاني من هذا الشيء. وكنت دائماً أغضب حينما لا يتذكر أحدنا نحن الأربعة ويعرف إسم آخر مضيف نزلنا عنده.

كنا نستمر في الجذف. وإذا أراد أحد من رفاقنا أن نتوقف، يصيح علينا بالتوقف. فنقترب من البردي ونقلع ساقه الحديث النمو حتى نأكله. ويكون مثل هذا الساق طرياً، باهت اللون، ينمو بالقرب من الجذور، ويظهر أن هناك أنواع معينة من البردى تكون صالحة للأكل، وكانوا أيضاً يمضغون من حين لآخر سيقاناً معينة من القصب كما لو أنهم يمضغون قصب السكر.

وفي الربيع، تجمع نساء المعدان رؤوس البردي ويضعن في طلعها الخبز فيصبح بلون أصفر ويكون صلباً، يشبه الكيك المحمّص غير أنني وجدت طعمه غير مستساغ. أمضينا بضع ليالٍ في قرية دبن، ننطلق في صباح كل يوم حتى نستكشف أهوار الحويزه. وجدنا بحيرات واسعة مثل بحيرة (زكرى Zikri) مخفية وراء منابت القصب الواسعة الانتشار.

كان دليلنا يحثنا على الدوام بأن نحمل بنادقنا ونكون في حالة الاستعداد وذلك حينما كنا نجذف في طرق مائية يصعب تحديدها بحيث تلوح لأعيننا بأنها سوف تنتهي أمام جدار صلب من القصب. وكان يكرر القول «بأن اللصوص سوف يقتلوننا هنا دون أن يعلم أحد بنا أبداً».

تصبح هذه البحيرات ملاذاً طبيعياً لجميع أنواع الطرائد بحيث لم أجد في أي مكان آخر مثل هذا العدد منها، وهذه الكثرة جعلت المياه الفسيحة تظهر بلون أسود قاتم. كما أن هذه الطيور كانت تحدث ضجيجاً لا مثيل له حينما يطير قسم منها من المكان الذي تجمعت فيه.

وتشعر هذه الطيور في هذا المكان بأمان أكثر وتعيش عيشة هادئة لعدم وجود أناس في هذه المنطقة ما عدا أولئك الأشخاص الذين يعيشون على التهريب فيسلكون هذا الطريق إلى إيران، ومع ذلك، كان عدد البط والأوز يتناقص في منطقة الأهوار سنة بعد أخرى.

ففي سنة ١٩٥١ كنت قد شاهدت البط وهو يطير عند غروب الشمس بإعداد هائلة كأنها أسراب جراد حتى تقتات على محاصيل الشلب بالقرب من سيكال. وعندما غادرت الأهوار في سنة ١٩٥٨ لم تكن فيها أعداد كبيرة كالسابق. والسبب في ذلك هو أن الصيادين كانوا يصيدونها بواسطة بنادق الصيد بأعداد كبيرة بالإضافة إلى إصطيادهم أعداداً كبيرة أخرى بواسطة الشبكات. وكانوا يدفعون المال للشيوخ للسماح لهم في إستخدام بعض البرك فيضعون الحبوب فيها حتى تتجمع مثل هذه الطيور.

وهناك أعداد كبيرة من البرك الصغيرة حول مدينة العمارة.

والسبب الآخر هو أن عملية إستيراد الخراطيش كانت تجري على قدم وساق مما سهل على الصيادين الحصول على ما يريدونه من الخراطيش لإشباع رغباتهم في الصيد.

إعتاد الوز البري على المجيء إلى الأهوار في شهر تشرين الأول. ولهذه الطيور سيقان رمادية وصدر أبيض. وهي تأتي من الشمال عائدة من الأرض التي تفقس بيوضها فيها في سيبريا، وقدومها يسحر الأماكن البرية. ويطير الوز البري في السماء ويتخذ تشكيلات بديعة تسرّ الناظرين.

راقبت يوماً طيرانها خلال النهار وفكّرت في ذلك اليوم الذي قضى فيه على آخر وز بري كما قضي على الأسود في أفريقيا.

كنا نستعير أحياناً (كتلي) في كل صباح قبل المغادرة للاستكشاف، كما كنا نستعير عدداً من الأقداح والأطباق لنشرب به الشاي فيزودنا مضيّفنا في (دبن) بهذه الأشياء. ونشتري نحن الشاي والسكر والملح والدقيق من البقال.

وعندما نشعر بالجوع نتوقف عن التجذيف وننتخب مكاناً ملائماً على حافة البحيرة وندوس على القصب حتى نجعله كرصيف يساعدنا على الوقوف فوق الماء ونعدّ في هذا المكان وجبة الطعام.

كان حسن يشوي الطيور التي نصطادها مهما كان نوعها ويخبز سبيتي على حجرات النار أقراص الخبز ولم يحسن خبزها لأنها تبقى ندية ومليئة بالرماد. ثم نهيء من بعد ذلك الشاي ونشربه حتى ينتهي السكر الذي بحوزتنا. وكنا نراقب من مكاننا هذا البط في البحيرة أو طيور القاوند التي تنقضّ على السمك.

وشاهدت في إحدى المرات زوجاً من ثعلب الماء، يلعبان سوية على بعد مائة يارد عنا. ولما أراد حسن أن يأتي بالبندقية لنصطادهما شاهدناهما يهربان بعيداً لأنهما اكتشفانا. وبعد فترة ظهرا من مكان بعيد عنا وبدآ ينظران إلينا ثم يغوصان ويختفيان. وقد سرني جداً أنهما رأيانا وإلآ كان حسن يصطادهما لا محالة. ولجلود هذه الحيوانات قيمة إذ يباع الجلد الواحد بدينار. وقد اصطاد عمه في قرية بومفيفات في إحدى المرات (٤٠) ثعلب ماء خلال شهرين.

وأخبرني حسن بأن ثعالب الماء تتواجد كثيراً حول بحيرة زكري حيث تتكاثر في الجزر العائمة. وتكون ولادتها أحياناً في شهر كانون الثاني وعلى الأكثر في شهر شباط أو آذار.

وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩٥٦، صحبني إلى العراق كيڤن ماكسويل Gavin Maxwell وكان يرغب في تأليف كتاب عن الأهوار وكنا نتجوّل سويّة في طرادتي طوال سبعة أسابيع. وكان على الدوام يرغب بأن يحصل على ثعلب ماء حتى يربيه كحيوان أليف.

وأخيراً وجدت فرخاً صغيراً من نوع ثعلب الماء الأوروبي، لكنه مات مع الأسف الشديد بعد أسبوع من انتهاء زيارته. كان في البصرة، يتهيأ للسفر إلى الوطن حينما وقد وفقت بالعثور على ثعلب ماء آخر وبعثته له. كان لونه قاتماً وعمره مقدار ستة أسابيع ويظهر أنه من أصناف جديدة.

أخذه (كيڤن) معه إلى إنكلترا ثم سميت هذا النوع باسمه تيمناً به.



١٩ ـ بين السودان والسويد

كان المضيف الذي نمكث فيه يقع فوق مرتفع في قرية دبن، يحيطه الماء، ومنه نستطيع أن نرى على امتداد بصرنا باتجاه القرى وأشجار النخيل الشامخة على طول نهر الكحلاء. كنا نعود من استكشافاتنا مساءً، وعندما نستقر في المضيف يبدأ عماره بالمزاح فيقول «لازم تباوع برّة يا صاحب. الزائرة تنتظرك».





قرية من قرى السويد من الاهوار الشرقية

هذه الأراضي تعود إلى ممثل الشيخ محمد العريبي، وهو رجل مسن ومريض، يبقى مضطجعاً على فراشه ويشكو من آلام الكلية التي قضت عليه في السنة التالية. له أربعة أولاد كبار ولكن لا حول لهم ولا قوة، تركتهم أمهم على الهامش وهي زائرة كبيرة السن وجليلة المقام.

تراها تروح وتغدو داخل المضيف بسرعة وهي مرتدية عدداً من الملابس الداكنة أو تراها تستقر داخل المضيف وتصدر أوامرها وتوجيهاتها من مكانها.

كنت أتضايق من كثرة تدخلها في أعمالي وكنت أسمعها وهي تبدي النصائح لي وهذا أمر يربكنا جميعاً أحياناً. كما أن تصرفها بهذا الشكل كان يجرح شعوري ولا بد من التخلص منها.

وأثناء وجودي في قرية دبن جيء بولد مشلول من خصره إلى الأسفل لأنه كان قد أصيب بحمى قبل سنة وأدت إلى إصابته بالشلل، وكنت قد شاهدت عدداً في مثل هذه الحالات وهي شلل الأطفال. ووجدت رجال العشائر يعاملون أمثال هؤلاء المصابين بكل لطف. وإذا قارنا المصابين بالعجز بدنياً مع أمثالهم في البلدان الأخرى من العالم نجد أن عددهم قليل.

ووجدت في هذه القرية ولداً أعمى لكنه يتنقل بكل حرية ويسير بمشحوفه بمفرده إلى مسافة قصيرة لجمع الحشيش.

وصادفت خلال سنوات مكوثي في الأهوار عدداً من الأولاد وهم صم وبكم. كما صادفت رجالاً مثلهم لكنهم كانوا فرحين، يحبون الصداقة ومندمجين في المجتمع بشكل جيد. ثم غادرت هذه القرية قاصداً أخرى تقع على البر الرئيس ووصلتها بعد ظهر أحد الأيام. كان الشيخ غير موجود، خرج ليتفقد مزارعه، فقادنا أحد الصبية إلى المضيف.

كان هذا الصبي يرتدي كوفية وعقالاً وعباءة وقد تمنطق بالخنجر.

قدّرت عمره بـ (١٥) سنة. له جذيلتان جعلته يبدو أكثر جمالاً.

كان المعدان في الزمن الماضي كلهم على هذه الشاكلة، لهم جذائل كما يفعل أولاد البدو إلى الآن.



بني عشيرة السويد المعدان لطواف مصنوعة من البردي

أعدّ لنا هذا الصبي القهوة، وبعد أن قدّمها لنا عاد إلى مكانه. فسألني عمارة قائلاً: «هل عرفت أن هذا الصبي هو مسترجل؟».

أجبته بالنفي وقلت له بأني سمعت عنهم بشكل غير واضح ولكنني ما صادفت أحداً منهم قبل هذا. فقال عمارة: «المسترجل هو إمرأة بالولادة. تأبى أن تبقى إمرأة. لها قلب رجل لذلك تعيش كما يعيش الرجال».

«هل الرجال يرضون أن يعيشوا معها؟».

«بالتأكيد. نأكل معها. يمكنها الجلوس في المضيف. وعندما تموت نطلق النار من بنادقنا إكراماً لها. لا نفعل مثل هذا الشيء مع النساء. توجد إحدى المسترجلات في قرية الشيخ مجيد قاتلت بشجاعة ضد الحاج سليمان».

«هل تكون شعورهم على شكل جذائل على الدوام؟».

«يحلقون شعورهم عادة مثل الرجال».

«هل المسترجل تتزوج فعلاً؟».

«لا. يناموں مع النساء مثلما نفعل نحن».


من بني عشيرة السويد المعدان

وعلى أية حال، كنا مرة في إحدى القرى بسبب الزواج، كانت العروس في الحقيقة مسترجلاً. وهذا ما أدهش الجميع. ففي هذه الحالة توافق على ارتداء ملابس النساء وتنام مع زوجها على شرط أن لا يطلب منها أبداً أن تقوم بواجبات المرأة. المسترجلات يكنّ محترمات جداً وأقرب المعادلات لهن هي مسترجلات العصور القديمة. التقيت بعدد منهن خلال السنوات التالية. فجاءني مرة أحد الرجال ومعه ولد قدّرت عمره بـ (١٢) سنة، كان يعاني من مغص معوي. وعندما أردت أن أفحصه قال لي الأب «إنه مسترجل». وفي مناسبة أخرى ذهبت لأعالج أحد الرجال وهو مصاب بكسر في الجمجمة. كان قد تشاجر مع مسترجل أعرفه وأصيب بهذا الكسر في رأسه.

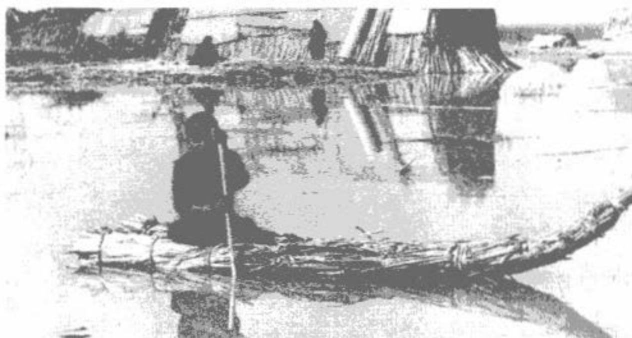
ومن قبل، بينما كنت أمكث مع حمود، أخي الشيخ مجيد الخليفة في الديوانية، دخلت علينا امرأة جريئة، متوسطة العمر، تجر قدميها جراً، لفّت نفسها بملابس سوداء اعتيادية وطلبت مني العلاج. كانت جذابة ولو أن لها وجه الرجل. وعندما رفعت ثوبها ظهر لي عضو رجل بحجمه الكامل الاعتيادي وتوسل بي قائلاً: «تكدر تكص هل العضو وأصير امرأة؟».

يجب أن أعترف بأن العملية هي فوق طاقتي. ولما غادرت قال لي عمارة بشيء من الشفقة: «ما يصير يسوي العملية في البصرة؟. تصرفاته

تصرفات امرأة ما عدا هذا العضو. وهذا شيء مؤسف».

كنت أرى هذا الرجل نفسه فيما بعد مع النساء على ضفة النهر، يغسل الأطباق. ولا تمانع النساء بوجوده معهن ثم أراه يجلس معهن أكثر الأوقات في البيت. وهن يشفقن عليه كثيراً أكثر مما نشفق نحن في مجتمعنا على مثيله. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن بشرتهم لينة ورقيقة كبشرة النساء.

وفي إحدى المرات، بينما كنت منطلقاً في إحدى أعمالي اليومية،



صبي من عشيرة السويد المعدان وحوله أطواق مصنوعة من البردي

طلبوا مني أن أنضوي إلى جسم فتاة صغيرة غرقت في النهر. ولما عدنا في المساء رأيت الجثة لا تزال طافية فوق سطح الماء. وعندما اقترحت عليهم جلبها بواسطة لوحة خشبية رفض رفاقي متذرعين بأنه لا يمكنهم لمسها أو حتى وضعها على بطن الطرادة خوفاً من التدنيس. وقال ياسين: «لازم نغتسل سبع مرات وعلى كل حال. هاي الجثة مو جثة بنتنا». وكل ما تمكنوا من عمله هو أنهم دفعوا الجثة إلى ساحل النهر ثم رفعوها بواسطة المجاذيف.

وفي مرة أخرى، وصل سيّد كبير السن بصحبة ولده البالغ من العمر

تسع سنوات، كان قد جرح يده جرحاً بليغاً أثناء قص الحشيش. جاء به لأعالجه، فوجدته شاحب اللون من جراء فقد الدم. تأثرت لحاله وسألت أباه بغضب عن سبب عدم مساعدة الطفل. اعترض قائلاً إذا ما ساعدته تتلوث ثيابي بالدم وتصبح غير طاهرة.

ومن حسن الحظ لم أشتمه لأنني تذكرت أنه سيّد. وهنا يجب أن أعترف بأن بعض المسلمين أقل تزمتاً من هؤلاء، ولا ينظرون إلى مثل هذه الأمور نظرة هؤلاء.

يترك نهر الكحلاء نهر دجلة تحت العمارة ببضعة أميال ثم يتبدد مياهه في الأهوار بعدما يقطع مقدار (٢٥) ميلاً. وأما القرى الواقعة على الدلتا التي أمضينا فيها بضعة أيام بعد أن غادرنا قرية الدبن، فهي مسكونة من قبل عوائل تنتمي إلى عدة قبائل إضافة إلى عشيرة البومحمد وهم يدينون بالولاء لشيخهم.

والقرويون يربون الجواميس ويزرعون الشلب، وعلى مسافة بعكس مجرى النهر، تسكن عشيرة البومحمد في قرى عديدة متعاقبة على إمتداد فروع النهر العديدة وقنواتها الكثيرة. وهم يشتهرون بزراعة الحبوب والشعير. فيبذرونها من شهر تشرين الثاني ويحصدون المحاصيل في شهر نيسان ومايس. وبيوتهم على الكحلاء، على خلاف البيوت في المجر، منتصبة بشكل بارز على إمتداد ساحل النهر في أرض خالية. أما القرى في الكحلاء فهي منتشرة داخل بساتين النخيل، والأشجار المثمرة وأشجار الصفصاف الكثيفة. تجولنا بين هذه القرى ونحن ننتقل عكس المجرى على أحد فروع النهر ومع المجرى على فرع آخر. تكثر السداد الترابية على هذه الفروع، يقيم الشيوخ هذه السداد لتزويد مزارعهم الشتائية بالمياه. فعند فتح فتحة صغيرة تتدفق المياه بشدة على شكل تيار قوي فتشكل تيارات عكسية ودوامات إلى مسافة (٣٠) ياردا مع المجرى، لذلك ينبغي أن نتغلب على مثل هذه العوائق التي تعترض سبيلنا.

كان رفاقي يشقون طريقهم بجهد بالغ وكفاح شديد فيتقدمون في سيرهم خطوة بعد أخرى وأحياناً إنجاً بعد إنج.

واصلنا السير وفتحنا فتحة أخرى في سد آخر فتدفق الماء بسرعة شديدة. وكثيراً ما كنا نجد المجاري في القنوات الصغيرة مسدودة.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى سدة منحدرة، يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام تقريباً، وهنا لاقينا صعوبة شديدة. فلا يمكننا حمل الطرادة لنجتاز السدة لأنها ثقيلة جداً. وما كان منّا إلاّ وأن نرش السدة الترابية بالماء حتى نجعلها زلقة ثم بدأنا برفع مقدمة الطرادة وسحبها إلى أعلى المنحدر حتى وصلنا إلى قمة السدّة. ثم دفناها فانزلقت بسهولة من الطرف الآخر للسدة حتى وصلت النهر.



صبي من المعدان

كان الشيخ محمد العريبي أغنى الشيوخ من البومحمد وأكثرهم سلطة في الكحلاء. وهو رجل محترم جداً، طاعن في السن. يعيش معظم أوقاته في بغداد أو العمارة تاركاً إبنه المحبوب والشاب المنغمس في الملذات مسؤولاً عن إدارة عقاراته.

ويعيش أقاربه الآخرون في ضنك من العيش، على إيرادات حقول صغيرة كان قد خصصها لهم في مناطق أقل خصوبة. مكثنا مع عدد منهم ووجدناهم كرماء جداً ومتواضعين.

وبعد أن تركنا الكحلاء، عبرنا هوراً يعجّ بالخنازير فأطلقت النار على عدد منها ثم وصلنا إلى فرع المشارية وهو نهر يترك نهر دجلة شمال الكحلاء في وسط مدينة العمارة. فنحن الآن في وسط عشيرة السودان. وهي إحدى ألطف العشائر وأكثرها تعاسة.

كانت في الماضي ذات قوة وسطوة وثراء، لكنها تفرقت الآن وأصبحت أراضيها مهجورة. ويعزى السبب إلى انخفاض منسوب المياه إلى درجة كبيرة بعد بناء سدة الكوت على نهر دجلة. ولكي يواصل الشيخ زراعة أراضيه أقام عدداً من المضخات المائية. ولكن عندما توفي باع ابنه هذه المضخات ليسدد بثمنها ديونه على مائدة القمار التي استدانها في البصرة.

وفي طريقنا بدأت أحصي عدد الخنازير التي كانت تقتات خارج إحدى منابت القصب فبلغ العد (٦٠) خنزيراً. وأخذ الناس يتوسلون إليّ بأن أطلق النار عليها وأقتلها حتى أخلصهم من شرورها لأنها تدمّر محاصيلهم القليلة من الحنطة والشعير الذي أصبح على وشك النضوج.

والشيء الذي لاحظته هو أن الخنزير نادراً ما تدخل حقول الشعير إذا ما وجدت حقول القمح بجانبها. وفي هذا الفصل كانت الخنازير تقتات ليلاً في الحقول وتضطجع فيها نهاراً. وكان القمح في بعض الأماكن بارتفاع أربعة أقدام تقريباً بحيث تجعل الصيد فيها خطراً للغاية وخاصة حينما تحرك الرياح سيقانها. وفعلاً طرحني مرة أحد ذكور الخنازير على الأرض في مثل هذه الظروف من السنة الماضية.

ففي تلك المناسبة، كنت قد قتلت اثني عشر خنزيراً أو ما يقارب هذا العدد وذلك بعد أن أطرد الخنزير الجاثم داخل الشجيرات والعليقات الكثيفة النامية على امتداد سواقي مهجورة. ولما تخرج إلى العراء أطلق النار عليها وأرديها قتيلاً.

وجاءني أحد الصبية وأخبرني بوجود خنزير في مكان ما بالقرب من حقل القمح، وأشار إلى مكانه الصحيح. كانت الفتحة التي أشار إليها في داخل الأرض المزروعة بالقمح تُرى بوضوح حتى من مسافة بعيدة، غير أن القمح كان عالياً، يصل إلى صدري فحال دون رؤيتي ما في داخلها ما لم أكن على مسافة قريبة جداً. وفجأة شاهدت حركة الأذن. فرأيت الخنزير مضطجعاً في الظل وظهره نحوي. فأطلقت النار عليه وأصبته في رقبته فبقي هامداً في مكانه ثم التحقت بمضيّفي الذي قال لي:



ماضي صبي من عشيرة السويد
راقص ماهر

«خلينا نرجع. طريقنا طويل».

وبينما كنا نغادر المكان، جاء الولد راكضاً مرة أخرى وأخبرني بوجود خنزير آخر. فقال لي راجياً «تعال واقتل هذا الخنزير. صاحب هذا يخرب كل محصولي». فأشفقت عليه ولبيت رجاءه، وحاول مضيفي أن يمنعني من الذهاب، لكنني قلت له «بس هل الخنزير وبعدين نروح سويه». وبدأت أخطو بمفردي بحذر نحو الحفة التي أشار إليها الولد. ونظرت من فوق سيقان القمح فوق نظري على عينه الواسعة، ولا زلت أتذكر لمعان أنيابه البيضاء. وقبل أن أصوب عليه البندقية وجدت نفسي ملقى على ظهري على الأرض على بعد عدة ياردات في المكان الذي كنت أقف عليه. وسقطت بندقيتي من يدي.

ثم هجم الخنزير مرة أخرى وشعرت بثقله حينما داس فخذي. ورأيت شفتيه وعينيه الغائضتين فوقي، وشعرت بنفسه على وجهي ثم اندفع إلى

الأمام على صدري مع أنيابه.

اعترضت سبيله بالغريزة بضربة قوية بأخمص بندقيتي فولّى عني.

نهضت ونظرت إلى بندقيتي فرأيت حفرة كبيرة على حاضنها وأصيبت إحدى أصابعي بشق حينما مست العظم الذي كأنه موس حلاقة وبدأ الدم ينزف منها. ملأت البندقية ووقفت فرأيت الخنزير يسير بعيداً عني. كان ضخماً، صرخت صرخة التفت على أثرها فصوبت بندقيتي إلى صدره ثم أطلقت النار فسقط في مكانه. كنت أنا المسؤول عما حدث لي لأني كنت وحيداً. ثم التحق بي رفاقي الأربعة ومعهم جمع من السودان فسرنا جميعاً داخل الحقل وسببنا تلفاً فيه أكثر مما يفعله عدد من الخنازير. كان عماره مسلحاً ببندقيتي الأخرى ومن بيت النار إطلاقة. وأن حسن يحمل مسدساً من عيار ٩ ملم براوننك كنت قد جلبته معي في تلك السنة. أما سبيتي وياسين فكانا مسلحين بالخناجر.

وبعد أن قتلنا عدداً منها ونجونا مرتين بمشقة، أقنعت القرويين بأننا سنصطاد بشكل أفضل بين نباتات البردي المغمورة بالمياه. وهناك قتلنا (٣٦) خنزيراً بواسطة المسدس أطلقنا النار على رأسه وهو يسبح ووجهته نحونا. وتكون الخنازير طوال مدة بقائها في الماء بدون قوة فلا تستطيع إيذاءنا. ومرّة، قفز ياسين إلى المياه العميقة بالقرب من ذكر الخنزير الكبير وأغرقه بيديه.

أسف السودان حينما غادرناهم لنزور عشيرة السويد.



امرأة من عشيرة السويد الرحل

وفي طريقنا عبر أهوار كثيرة، عبرنا رابية جرداء، سوداء اللون، ترتفع (٣٠) قدماً عن القصب.

كانت هذه الرابية في يوم ما مكاناً لمدينة منسية منذ عهد بعيد. وتعرف الآن من قبل المعدان باسم (وقف عيشان Ishan). ثم إصطحبنا السويد فيما بعد إلى أماكن أبعد تقع داخل الأهوار وأرونا رابية أخرى كتلك الرابية وتسمى (عزيزه) وكانت حسب تقديري بارتفاع (٥٠) قدماً. وأتذكر بأنني شاهدت حيوانات النمس تعدو عليها.

مكثنا مدة أسبوع مع مختلف الشيوخ على الألسنة الواطئة من المشارية. ولم نجد أحداً منهم ذا ثراء ولكن كان الجميع كرماء. وشاهدنا رجلاً كهلاً، شبيهاً بأبناء الصين، يُعرف باسم «أبو القنديل» لأنه، يرشد عابري السبيل في كل يوم جمعة - يوم عطلة المسلمين - إلى مضيفه بتعليقه المصباح على العمود.

كان هؤلاء الشيوخ يحبون الصداقة ويعاملون القرويين معاملة عادية، وكانوا عندما يأتون بالطعام يلحون على كل من يتواجد في الغرفة بالبقاء ومشاركتهم في الطعام. واعترف كل من رفيقيّ عمارة وحسن، وهما من عشيرة الفريجات، بأنهما يكرهان عشيرة السويد وبأن شيوخ السويد هم أكثر كرماً من شيوخ البومحمد. وعلى أية حال، عندما انتقدت مرة في مضيف عشيرة أخرى شيوخ البومحمد وقلت بأنهم أقل كرماً وسخاءً عُنفت على أقوالي هذه وقالوا لي «قل ما تشاء على شيوخنا أمامنا. نحن نقول نفس الشيء. معظمهم حقراء، لكن لا تنتقدهم أمام عشيرة أخرى».

تعجبت من إخلاصهم لأنه لا ينتسب أيّ منهم إلى عشيرة البومحمد.

وعندما كنا نتناول الطعام مع السويد، كنا نطبق عاداتهم وهي أنهم يذهبون إلى حافة النهر ويغسلون أيديهم. واعتاد رفاقي على اتباع عادات البدو غير المعروفة في هذه الأجزاء من الأرض.

كانوا ينهضون سوية عندما ننتهي نحن الخمسة من تناول الطعام. وحينما سألناهم أجابوا قائلين: «هذه هي عاداتنا». وكنا على الغالب نتحدى الشيوخ وأتباعهم من بعد الطعام بالرماية ببندقية الهواء المضغوط وأحياناً ببندقيتي ومسدسي.

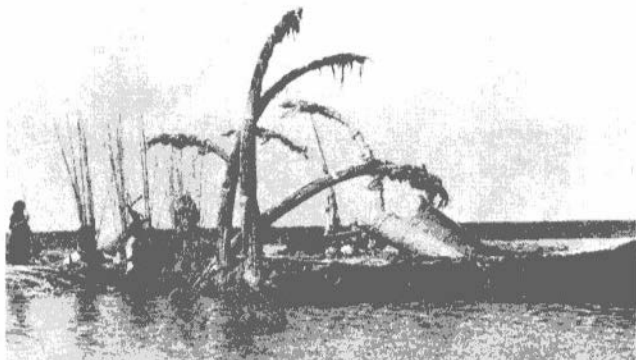
أصبح عمارة رامياً بارزاً وكان ياسين وحسن أفضل من الكثيرين في الرمي إلا أن سبيتي لم يكن رامياً جيداً على الرغم من أننا بذلنا جهدنا لتحسين رميه. فلم نفلح في مسعانا.


صبي من عشيرة السويد الرحل

فقال له بعضهم على شكل مزاح واستهزاء «صوّب على هذاك المضيف. هناك يمكن بطريقة الخطأ أن تصيب الهدف». غير أن سبيتي ما كان يبالي أبداً بأقوالهم ولا يعيرها أية أهمية. وكنا نجد ياسين يميل كثيراً إلى إحداث المشاكل إلا أن عمارة لم يكن مثله بل كان يبدو كئيباً. أما سبيتي فكان أكثر رفاقي لطفاً وشفقة نحو الآخرين فيرعى حقوقهم، وهو شخص ذكي وعاقل جداً ومتزن ويتصف بخلق دمث. ولهذا السبب نحن مدينون له جميعاً. كنت أغضب أحياناً من رفاقي الآخرين ولم أكن أغضب من سبيتي إلا نادراً. وكنت أشعر بالخجل حينما أغضب منه.

غادرنا شيوخ السويد وقلوبنا مفعمة بالأسى على هذا الفراق. إنعطفنا في سيرنا نحو الشرق قاصدين الحدود الإيرانية وكنا نسيّر الطرادة بالمردي من خلال المياه الضحلة بين نباتات البردي التي تنمو بين منابت القصب

وحافة الصحراء. كان ياسين يتخذ مكانه على الدوام في مؤخرة الطرادة ويجلس أمامه عمارة. أما حسن فيستقل مقدمة الطرادة ووراءه سبيتي.



السويد الرحّل يقضون بيوتهم استعداداً للرحيل

ومن المفارقات أثناء سيرنا أن حسناً أفصح عما في قلبه في هذا الوقت وقال بأنه إنشرح كثيراً من رقصات صبحي يدعى (ماضي) حينما رقص قبل ليلة أمس، وكان يجذف انتباه الناس إليه. فتنهد بصوت مسموع وقال «ماضي! آه، ماضي» فضحك الآخرون على تصرفه هذا واقترح ياسين بأن ننزله على الشاطىء حينما نرى حماراً.

وفي هذه الأثناء سرنا في قافلة تابعة لإحدى قرى السويد، تنتقل إلى مكانها الجديد. فالقوارب الكبيرة تحمل بيوتهم المفككة والحاجيات الأخرى، وأما الزوارق الصغيرة فإنها تحمل الصبيان رعاة الجواميس ومعظمهم عراة. كانوا منشرحين، يغنون ويصيحون بأعلى أصواتهم وهم يسوقون جواميسهم المرقطة.

لا يمتهن السويد مهنة الفلاحة، لكنهم يعيشون في الأهوار مع

قطعانهم. ويمكن تمييزهم عن سواهم من العشائر من غطاء الرأس الذي هو عبارة عن كوفية صفراء أو مذهبة على خلاف ما يضعه أبناء عشيرة الفريجات البدو. ثم ظهر وراءنا عدد كبير من الزوارق من بين القصب. فسألت أحدها عن سبب مثل هذا التنقل فقال لي أحدهم بأن المياه إرتفعت بصورة إستثنائية فاضطروا إلى ترك أماكنهم الشتائية في وقت مبكر قبل المواعيد الاعتيادية، لذلك تراهم يرحلون إلى أعماق الأهوار.

ثم استطرد ذلك الرجل وقال: «ظل ويانا هذه الليلة ـ صاحب. راح نبني قرانا في الأرض اليابسة هناك».

وبعد أقل من ساعة من نزولهم إلى البر ثم نصب أول بيت.

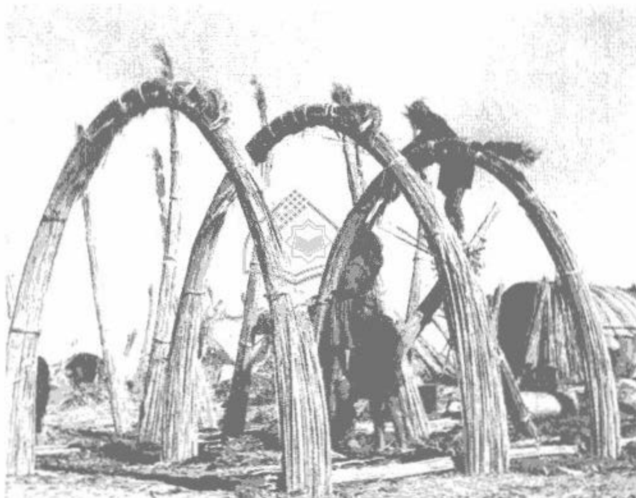
كانت حزم القصب التي تشكل الأقواس موضوعة الواحدة مقابل الأخرى على خطين. وكل حزمة تميل إلى الخارج. ثم يتسلق أحد الرجال فوق القصب ذات القوائم الثلاثة ليربط رؤوس الحزم بعدما يسحبها الرجال الآخرون. ويتم هذا العمل بسهولة لأن الحزم كانت مقوسة سابقاً. وعندما ينتهون من وضع الأقواس الخمسة في أماكنها يجري تثبيت الأضلاع الأفقية ثم يرمون الحصران فوقها، ويرمون أحياناً حصيرة واحدة سميكة على الهيكل ثم يربطونها في أماكنها. وكل حبال الربط هي من القصب.

وبينما كنت أتمشى بجوار البيوت التي ينصبونها، أراقب الطريقة التي يتم فيها نصب البيت وتفريغ الزوارق من حمولتها دعاني ذلك الشخص الذي تعرفت إليه حديثاً إلى بيته. وحينما دخلنا وجدته مفروشاً. وقد أعدّ لنا الشاي ووضع القدر على النار حتى يهيىء لنا وجبة طعام الغداء. وكان أصغر أولاده يبلغ من العمر تسع سنوات، عاري الجسم وفي رقبته قلادة فيها فص كبير أزرق.

يجمع هؤلاء الناس من عشيرة السويد البردي والقولان [Scirpus Brachy Ceras] وهو نبات السعيدي الذي يغطي معظم الأهوار الوقتية وذلك كعلف لجواميسهم.

وبينما كنا نراقب كيفية إطعامهم جواميسهم التفت ياسين إليّ وقال بأن جواميسه الكائنة في بومفيفات لا تأكل مثل هذه النباتات.

طلب مني عدد كبير من أهالي السويد أدوية، لذلك مكثت يوماً آخر. ثم زرنا قرى أخرى تعود إلى عشيرة السويد، تبعد مقدار بضعة أميال، تقع داخل منابت القصب. وجدت هؤلاء أقل حنكة من كل المعدان. والشيء الذي أفسد صحتهم طعم الماء الذي كان كريهاً على إمتداد حافة الصحراء.



السويد الرحل ينصبون قراهم على ارض يابسة

ويصنع أهالي السويد الملح وذلك بتبخيرهم المياه في قدور قليلة العمق.

وأخيراً واصلنا سفرنا حتى وصلنا الحدود الإيرانية. وبعد أن أمضينا الليل في مركز شرطة عراقية صغيرة عدنا إلى الأهوار الوسطية مرة أخرى.



٢٠ ـ عائلة عماره

طغت مياه الفيضان على عويسج وغادر الفريجات أماكنهم حينما عدنا إليهم. ولمّا سيّرنا الطرادة بجهد وبقوة من خلال حقول البردي المعتمة، عثرنا على ضلع برميل رمادي اللون باقٍ حتى تضع الطيور بيوضها فيه. فتذكرنا الطيور المائية الكثيرة العدد في أشهر الشتاء.

كانت النباتات النامية حديثاً في أماكن نمو القصب على امتداد نهر الفرات عالية تظهر بين هامات القصب اليابسة. بينما غطت نباتات (قدم الغراب) المياه المكشوفة وحفلتها وجعلتها تظهر كأنها طبقات من الثلج المتساقط.

ولما وصلنا العزير تركنا القارب هناك وأجرنا سيارة لتقلنا إلى البصرة حيث كنت أذهب إليها بشكل عام كل شهرين حتى أجمع الرسائل الواردة إليّ وأستحم وأشتري الأدوية. والمكوث بضعة أيام في دار مريح يعتبر تغييراً يريح المرء ويجدد من نشاطه. وكان أصدقائي في القنصلية لطفاء معي ومع أصحابي على الدوام.

عدنا إلى العزير مرة ثانية وركبنا طرادتنا حتى نعود إلى قرى الأهوار فقال لي عماره: «هسه فالح ميت. لازم تبقى عندنا. نحن ما نملك شيء كثير، مثل ما تعرف، بس كل شيء نملكه هو لك. نترك ياسين وحسن مع عوائلهم ونرسل وراءهم كما نكون مستعدين للسفر مرة أخرى».

وبعد أربعة أيام دخلنا القناة التي تقودنا إلى قرية الرفيعية وهي القرية التي يسكنها أهل عمارة. كان التيار قوياً والرجال ينظفون الأرض الواقعة خلف السدود ويرمون كميات كبيرة من النباتات حتى تطفو على سطح المياه وتنجرف إلى الأهوار. وكانوا يشتغلون وأقدامهم غائصة إلى الركبة أحياناً وإلى الخصر أحياناً أخرى. وفي هذه الأثناء اندفع صبي طويل القامة نحونا وقد وضع دشداشته حول رقبته. ولما وصلنا حيّانا وقال عمارة: «هذا أخوي رشك. في العام الماضي ساعد الآخرين في محاصيل الشلب. وهل سنه عنده أرض خاص له». غسل الصبي الطين العالق في قدميه وساقيه وألقى بنفسه إلى وسط الطرادة بجانب عمارة ثم بدأ يقبله ويلتقط المردي بيديه.

ولو أن رشك يبدو لطيف المظهر ويتسم بالحيوية والنشاط وذا خدود ممتلئة فإنه ليس مثل أخيه عمارة الذي يتميز بخفة الروح والمرح. فهو أصغر من عمارة بسنة واحدة وطوله بقدر طول أخيه إلا أنه هزيل الجسم، لكنه قد يكون أكثر قوة من أخويه بعدما يكبر.

وبعد أن تخطينا البيوت الأولى والأطفال يركضون خلفنا على امتداد الساحل، شعرت بأن منظرنا أشبه بمنظر عازف المزمار. وبعد أن توقفنا عن السير، كان جمع كبير من الناس قد تجمهر حتى يساعدوننا في نقل أمتعتنا. فقال عمارة لأحدهم: «حسن! أركض وقل للوالد بأن الصاحب سيحضر كضيف». ثم التفت نحو رشك وقال له «شوف. خلي الفروخ يجيبون كل شيء للبيت. لا تنس المرادي».

مكث ياسين وحسن عدة أيام في بومفيفات. أمّا أنا وعماره فذهبنا إلى بيت والد عماره. الذي كان خارج القرية وجاء بصحبتنا سبيتي وصبي آخر كان قد أتى معنا.

تركنا الحقول المزروعة بالشعير وراءنا، ونرى أمامنا الآن على مسافة

مجموعة من أشجار النخيل، وكان والد عمارة رجلاً كهلاً، إسمه ثقب، غيّرت سحنته تقلبات الطقس، له عينان هادئتان. وكان يرتدي دشداشة بيضاء نظيفة وعلى رأسه كوفية، واستقبلنا باحترام هادىء. وقف منتصباً ثم مشى ببطء كأن جسمه متيبساً وأرانا الطريق إلى داخل بيته الذي كان صغيراً، وسقفه منخفضاً. وكان كل قوس من الأقواس الخمسة يضم عدداً قليلاً من القصب. وأرضية الغرفة مفروشة بزولية فاخرة فوق حصيرة ممزقة ثم وضع فوقها وسادتين.

حيّتنا إمرأة ذات حيوية ونشاط، متوسطة العمر، ذات وجه لطيف قائلة: «مرحباً صاحب. مرحباً بك في بيتك. أنت مو أبو عمارة؟. الله يبارك فيك».

وكان يقف خلفها طفل وصبيّان صغيران وفتاة تبلغ من العمر (١٥) سنة، تخفي نصف وجهها.

أرسل عمارة رشكاً حتى يهيء معدات الشاي وأرسل سبيتي إلى دكان والده ليجلب الشاي والسكر. ثم حاول بمساعدة أخوته الصغار وأولاد آخرين أن يمسك ديكاً كبيراً بالسن. وبعد أن هرب الديك من بيت إلى آخر ودار حول القرية وهم يتبعونه محدثين الضجيج، لجأ إلى إحدى الزوايا ليختبىء فأمسكوا به وذبحوه حتى يعدّوا لنا طعام الغداء. وجلب عمارة سمكة غير طرية تفوح منها رائحة. ولكن لا يبالي أي فرد في هذا المكان فيما إذا كانت السمكة ذات رائحة أم لا. ولكي نأكل السمكة خبزت لنا أمّه المسماة (ناله) في التنور. لاحظتها كيف تخبز. فرأيتها تلصق قرص العجين على بطن التنور ثم تخرجه بعد أن يتحمص. وفي البر الرئيسي، يمكن أن ترى أمام كل بيت مثل هذا التنور. أما في الأهوار، فتطبخ النساء الطعام وتخبز على نار وفوقها طبق من الفخار. والآن جاء (جليب) الأخ الآخر وهو عائد من الأهوار. وهو صبي هادىء، قوي الجسم، كان يرعى الجواميس في الوقت الذي كان فيه عمارة خارج البيت. يشتغل من الفجر

حتى غسق الليل، ويحصد الحشيش ويجلبه إلى البيت على الرغم من كونه صغيراً لا يتجاوز الاثني عشرة سنة.

رأيت رشكاً يساعده في نقل الحشيش من الزورق إلى البيت. وكانت الجواميس تربط بالحبل المثبت في وتد أمام البيت. لأنه لا يمكن إبقاؤها سائبة ليلاً لأنها تتجول في المزارع وتقضي على المحاصيل. والقطيع يتألف من جاموس فحل وثلاثة من الإناث ومن عجلة وعجل، وكان (جليب) مثل أخيه عمارة يحب الجواميس. وبعد أن حلبها قال لي وهو يربت على العجل «شوف هذه. هي جميلة جداً وحامل. اشتريتها بالفلوس اللي أعطيتها لي في السنة الماضية. راح يصير عندنا قطيع مناسب إنشاء الله».

ومن جهة أخرى، كان رشك مولعاً بمحصول الشلب وكان يتذمر حينما يساعد أهله في رعاية الحيوانات في وقت فراغه. وهو حاد الذهن، لا يحترم الكبار كثيراً ويعتبر بالنسبة لعمره مع عمر أقرانه وحشياً ولا يتحمل المسؤولية. لكنه، عندما يعمل في الحقل، يقوم بأعمال الرجال بحماس شديد. وعندما يعود مساءً يجلس منزوياً منهوك القوى فلا يتذمر ولا يستاء. وكان حينما يتحدث عن محصول الشلب وكيف يعمل يمثل بأصابعه ليرينا كيف يشتغل في الطين.

فقلت بنفسي أنه سيكبر بعد سنة وسوف يغطي الشعر ساقيه ويصاب بالحكة خلال الصيف لأنه يمشي دوماً داخل المياه ولا بدّ أن يلاقي الخنازير أثناء عمله في المياه الضحلة.

يعاني زراع الشلب من الحكة فيبدأون بحك سيقانهم حتى ينسلخ الجلد. والحكة تدوم مدة (٢٤) ساعة. وأنا أعرف أنهم يتصرفون كالمجانين لأنني كنت أصاب بها حينما كنت أصيد الخنازير. الأشهر العربية قمرية فيحسب الفلاحون الفصول السنوية مثلما يحسبه فلاحو حضرموت حسب ظهور وأفول نجوم معينة، مثل نجم الكلب ونجم من

مجموعة الثريا. وفي بداية كل فصل يبدأون بتأشير الأرض على كلا جانبي القناة تحت الرفيعية بواسطة عيدان من القصب على شكل قطع صغيرة متساوية العرض ويجري الفلاحون القرعة عليها. وبشكل عام يحصل الفرد على عدة قطع من الأراضي الصغيرة في أماكن مختلفة. وعند ذاك، عليه أن يشارك الآخرين في العمل أو يزرع الأرض بنفسه أو بمساعدة أسرته.

وفي السنة الاعتيادية ينظفون الأرض في شهر نيسان ويزرعون الشلب في أواسط شهر أيار (مايو) حينما يهبط منسوب المياه. وإذا بقيت المياه فائضة من بعد ذلك التاريخ، تنمو عند ذاك الأعشاب في الأرض المنظفة وتعيق نمو الشلب. وقبل بذر الشلب تنْقع البذور في الماء لمدة خمسة أيام ثم توضع تحت حصيرة ثقيلة لمدة يومين آخرين تحت أشعة الشمس حتى تنبت. وهم يميزون بين محصول الشلب الذي يزرع بطريقة البذر وبين الشلب الذي يزرع بطريقة الشتلات.

فالطريقة الأولى هي عبارة عن نثر البذور في الأرض والطريقة الثانية هي عبارة عن نقل الشتلات بعد أربعين يوماً. والمعدان في الأهوار يزرعون الشلب بطريقة الشتلات بينما يزرع أهالي الأزيرج الذين تكون أراضيهم بعيدة عن الأهوار مقداراً قليلاً من الشلب بطريقة الشتلات ويزرعون كميات كبيرة بطريقة النثر. أما هنا في قرية الرفيعية، الكائنة على حافة الأهوار، فيزرع الفلاحون الشلب بكلتا الطريقتين. فمثلاً يزرع (رشك) بمفرده أربعة أخماس أرضه بطريقة النثر لأنها تتطلب مجهوداً أقل لكنها تعطي نصف ناتج الشلب المزروع بطريقة الشتلات في نفس المساحة من الأرض. والشلب المزروع نثراً يتم حصده في منتصف شهر تشرين الأول وأما المزروع بطريقة الشتلات فيتأخر حصده مقدار شهر آخر.

ففي ١٩٥٦ والمفروض أنها سنة جيدة، زرع (رشك) أربعة قبالات بطريقة النثر وقبالة واحدة بطريقة الشتلات. والقبالة هي عبارة عن (٦٢٪) من الفدان. وهذا يعطيه حاصلاً مقداره (٣٥٠٠) كغم من الأرز. فيعطى

للشيخ مجيد ربع الحاصل ويُبقى كمية كافية لإطعام أسرته في السنة القادمة ويبيع ما تبقى بمقدار (٣٠) ديناراً.

ويتم جمع حصة الشيخ مجيد بشكل عيني في القرية من جميع الفلاحين. ويأخذ الشيخ مجيد أحياناً ثلث الحاصل ويبلغ ما يأخذه الربع. وفي هذه الحالة يثبت المقدار حالما يعرف مستوى المياه في تلك السنة. وقيل لي بأن تخميناته تكون على العموم صحيحة. ويرحب زراع الشلب بحدوث الفيضان، مثلهم في ذلك مثل أهالي الأزيرج الذين يزرعون الشلب على الأرض ويسقونها من الأنهار لكنها تكون سيئة بالنسبة للمعدان لأن أراضيهم تبقى مغمورة. وعلى العكس من هذا، فإن المياه الواطئة تمكّن المعدان من زرع الشلب بشكل واسع إلاّ أنها تكون كارثة بالنسبة للآخرين.

ففي ١٩٥١، وهي السنة التي كان ارتفاع المياه فيها منخفضاً جداً، زرع المعدان في قرية سيكال والعكار والقرى الكبيرة من الأهوار البعيدة من مصب نهر العدل، مساحات شاسعة أكثر من المعتاد. ولكن لسوء الحظ، سقطت أمطار غزيرة في فصل الخريف فرفعت مناسيب المياه فاكتسحت الغلال قبل حصدها. وفي لواء العمارة، تزرع العشائر الشلب على أرض مغطاة بطبقة من الغرين الجديد فقط. ويزرع بعضهم الشلب على نهر الفرات أسفل سوق الشيوخ من بعد حراثة الأرض المخصصة للشلب. وهنا يزرعون أحياناً الشلب تحت أشجار النخيل في نفس الأرض التي حصدوا منها تواً الحنطة أو الشعير.

وحسن، هو صبي. عمره سبع سنوات، أحد أخوة عمارة الأربعة، جرح يده في الليلة الأولى التي قدمنا فيها إلى بيتهم فجاء حتى أضمّد جراحه. ثم انزوى بعيداً وبقى ساكناً في الطرف البعيد من الغرفة وما لاحظته إلاّ بصعوبة. وهو على خلاف أخيه الأصغر (راضي) الذي كان جالساً بجانبي ويتحدث إليّ. ولاحظت أنه مصاب بفقر الدم الشديد فقالت

لي أمه بأنه يشكو دوماً من التعب وفقدان الحيوية. ورأيت الدم المتدفق من مكان الجرح بلون الماء الخابط ويصعب تمييزه على جلده الأسمر الذي لفحته الشمس. أعطيته زجاجة من الدواء المقوي ثم مضى شهر ورأيته فما تمكنت من تمييزه، وجدته سعيداً، فرحاً فأحببته لأنه ولد محبوب.

كانت طموحات (ثقب) مقتصرة على زيارة مدينة المشهد، فأمضى وقتاً كبيراً في الصلاة والدعاء، ورضي بأن يترك شؤون العائلة إلى عمارة الذي كان كثيراً ما يستشير أمه عندما يستعصى عليه الأمر. وفي السنة التالية، استشارني عمارة حول إرسال أخيه حسن إلى المدرسة إذ قال «لازم يكون عندنا واحد يعرف يقرأ ويكتب في العائلة». فوافقت على رأيه ولو بشيء من الريبة، فأرسلنا حسناً في صباح اليوم التالي إلى المدرسة التي كان يحضرها ستة طلاب من القرية وتبعد مقدار ميلين عن محل سكناه وعلى المجرى الرئيسي لنهر الوادية. وهناك مدرسة أخرى واقعة على نهر العدل تحت قرية الشيخ مجيد. ولا توجد أية مدرسة داخل الأهوار.

كان حسن في غاية السرور هناك، فكان يسرع في مشيته عند الصباح مع أقرانه وكان يريني واجباته عند المساء وهو يزهو فخراً واعتداداً بنفسه.

وعندما ذهبت في المرة التالية إلى البصرة، اشتريت له حقيبة كتب مدرسية ودفاتر وأقلاماً ملونة وقلم باندان ومحبرة ومسطرة وأدوات هندسية. وفرح حسن فرحاً شديداً بهذه الأشياء وأكد لي بأنه ليس لدي أي فرد من أقرانه أي شيء من هذا النوع.

ومع ذلك شعرت بالقلق لأنه يتوجب عليه مواصلة الدراسة لمدة (٥ ـ ٦) سنوات يمضيها وهو جالس على المصطبة داخل الغرفة يتناول عند الظهيرة وجبة غداء خاص وفقاً لتعليمات اليونسكو ـ حياة سهلة إذا ما قورنت بحياة (جليب) الذي يعمل في أرض القصب أو مع حياة (رشك) الذي يعمل في حقول الشلب. ولكن سيكون له نصيب في العمل في أرض

القصب أو في حقول الشلب إن بقى في قرية الرفيعية من بعد تركه المدرسة.

وكنت أتمنى بأن لا ينجرف فيما بعد ويصبح شخصاً متسكعاً في إحدى المدن. وكان الشباب يتوسلون إليّ دوماً قائلين: «خذني معك إلى البصرة. صاحب. شوف لي شغل زين. ما أريد أبقى بهل المكان لأننا نعيش مثل الحيوانات ـ هل مكان زين إلى ابوي وأمي وأخوتي. أنا متعلم». إذا بقي أمثال هؤلاء في قراهم فإنهم سيبقون ساخطين وناقمين ويقاسون المرّ، لأنهم يحملون في مخيلتهم فكرة بأنهم لو استطاعوا الخروج من قراهم هذه فإنهم بتعلمهم البسيط هذا سوف يحصلون على كل ما تصبو إليه نفوسهم. وهذا اعتقاد خاطىء يدعو إلى الإشفاق. لأنهم لا يدركون بأن هناك مئات من آلاف الشبان الآخرين في العراق بالمؤهلات نفسها. وفي الحقيقة، إذا ما تركوا بيوتهم وذهبوا إلى المدن فإن حياتهم تنتهي على أكثر احتمال بقيامهم ببيع الجرائد أو بيع مشروب الكوكا كولا في بغداد أو البصرة إضافة إلى قيامهم بارتكاب جرائم السرقة من السيارات أو اشتغالهم كجباة لدى سائقي السيارات حتى يؤمنوا لهم دوام العيش.

وجدت جميع الآباء متلهفين لإرسال أطفالهم إلى المدرسة، غير أنني أتذكر رجلاً عجوزاً يسكن في قرية تقع على نهر العدل قال لي: «إبني صار عنده شغل زين ويّه الحكومة في البصرة. نحن فقراء مثل ما تشوف، صرفت عليه فلوس كثيرة عندما كان يدرس في العمارة مدة عشر سنوات في المدرسة. وبعدين، كنت أظن راح يساعدنا ويدير باله علينا. هسه لا يساعدنا ولا يقترب منّا. كنا سعداء لما كان طفل يعيش معنا لأنه كان إبننا الوحيد. هذا التعليم هو شيء موزين. صاحب. تسرق أولادنا».

ورأيت في مكان آخر إمرأة عجوزاً بالقرب من قرية قباب. كان زوجها قد طلقها. وجدتْ لها، على أية حال، عمل تكتسب منه مالاً في مدينة العمارة. تعمل كحارس ليلي. لم تكن تشك بعدم مساعدة ابنها لها.

كان يزورها طيلة مدة دراسته في العمارة. يرتدي عند الذهاب إلى المدرسة سروالاً مرقعاً برقعة كبيرة عند المقعد وسترة. كان يصقل شعر رأسه بدهن لمّاع ويغرقها على الطراز الأوروبي. وبعد زيارته لأمّه التي قد تدوم يومين، كانت أمّه تقول لجاراتها باعتداد عندما يغادرها: «إبني متمدن. يأكل بالملعقة ويبول وهو واقف».

وفي إحدى زياراتي الكثيرة لقرية قباب، دعانا (داخل) لحضور حفلة عرسه. تذكرت حاله حينما أرسلته إلى البصرة في السنة الماضية للمعالجة وكنت أعتقد أنه لن يعيش. لكن عاش بعد أن تشافى وأراه الآن أمامي بصحة جيدة. وكنت ألتقي به صدفة في مناسبات عديدة بين الفرطوس وفي قرية العكار وأخيراً في قباب. وكنت مولعاً بهذا الصبي الخفيف الروح الذي يحب الجدل والهزل نوعاً ما. وكنت أشعر بأني مسؤول عنه لذلك ساعدته بالمال. أما الآن فقد أعطيته خمسة وسبعين ديناراً ليدفعها مهراً لعروسه..

كان مغرماً بأخت صديقه وادي وها هو اليوم ينال مبتغاه فيتزوجها.

وصلنا قرية قباب عند الظهيرة قبل يوم من حفلة العرس. وكنت في غاية السرور لأنني وصلت قبل الموعد. كان الجو حاراً جداً، والممرات المائية التي نسير فيها بين منابت القصب الميتة حارة جداً وكان العرق يتصبب من جسمي ومن جسم رفاقي إلى درجة تبللت ملابسهم فكأنهم قد خرجوا من الماء. الذي لم يكن بارداً بل كان فاتراً.

سقطت عناكب كثيرة صغيرة داخل الطرادة وتكاثر البعوض حولنا كما تكاثر الذباب وكان تلسعنا بدون رحمة من خلال ثيابنا ولو أننا كنا نراها غير مؤذية.

ولما وصلنا القرية وجدناها هامدة، لا حركة فيها، فكأنها مهجورة، ينبعث منها البخار من تأثير أشعة الشمس في ذلك الصيف الحار. لم نجد

صدام لأنه كان قد سافر ليزور الشيخ مجيد ولذلك كان (داخل) يسكن الدار المجاورة مع أسرة من عشيرة الفرطوس. وكان منهمكاً في توسيع داره وذلك بإضافة قوسين آخرين. ولما أنتهى من توسيع الدار، نصب ناموسية حمراء داخل البيت ليغطي مضجع عروسه.

وفي اليوم التالي، سمعنا أصوات غناء، وأصوات الدرابك من الطرف البعيد من القرية، حيث المكان الذي بدأ فيه (وادي) احتفاله بزواج أخته. وانطلق رفاق (داخل) عند الظهيرة ليزفوا له العروس بطرادتي. فأخذ عمارة معه بندقية الصيد وتمنطق حسن بالمسدس وذلك لكي يطلقوا النار ابتهاجاً بهذه المناسبة.

وكما هي العادة عندهم، كان (داخل) ينتظر عودتهم إلى بيته. وبما أنه ليست له أسرة رجاني بأن أبقى معه.

جلسنا ونحن نصغي إلى الأصوات القادمة من بعيد. توقف الغناء ثم استؤنف مرة أخرى وقال لي بأن هذا معناه أنهم نزلوا من الطرادة وأن وادي يولم لهم الآن. وبعد مضي ساعة من الوقت، والشمس آخذة في المغيب، ازدادت أصوات الغناء ارتفاعاً ثم سمعنا أصوات اطلاقات متفرقة.

قال لي داخل «هسه العروس تركب الطرادة. يأخذوها بعدين ويدورون حول القرية ويتوقفون أمام كل بيت حتى يرقصوا إلى أن يصلوا هنا».

وأخيراً قدم الموكب فرأيت العروس جالسة في الطرادة وقد لفّت ثوبها الجديد حولها وتحيط بها عدد من المشاحيف. رأيت الرجال واقفين على ظهورها وهم يغنون أثناء جذفهم نحونا.

كانت الفرش والبسط والمخاديد مكدسة أمام العروس. تلك الفرش التي زودها بها وادي حتى تأخذها إلى بيتها الجديد. وبما أن وادي رئيس

العائلة فله الحق أن يصرف ما يشاء، كثيراً أو قليلاً، من مهر العروس ويحتفظ بما يشاء من المهر، فقد سرني جداً تصرّفه في جهاز أخته، فقد أعطاها الشيء الكثير على الرغم من كونه فقير الحال.

ولما خرجوا من الزورق ونزلوا إلى البر، أطلقت عدة عيارات نارية من بندقيتي. وأما عمارة وحسن فإنهما كانا يطلقان النار أيضاً، أحدهما من المسدس والآخر من بندقية الصيد، وهما يسيران بجانب العروس إلى أن وصل الجميع إلى الفسحة الكائنة أمام البيت.

وقفوا قليلاً فارتجل (عجرم) بيتين من الشعر وأخذ يرددها ثم علت الهوسات بين الحشد بترديد هذين البيتين وهم يقفزون على الأرض ويدورون حولنا ويلوحون ببنادقهم ومجاذيفهم وخناجرهم فوق رؤوسهم. وكنا نطلق النار بفترات حتى نزيد من حماسهم. وبقوا على هذه الحالة حتى مغيب الشمس فذهب كل منهم إلى داره حتى يأكلوا.

تجمعنا من بعد ذلك مرة أخرى في بيت (داخل). وبدأ الصبي (حلو) ومعه عدد من الشباب بالغناء وبدأ الآخرون بالرقص. أما داخل فبدأ يوزرع السكاير والشاي على الحاضرين. دام الاحتفال إلى منتصف الليل: واقترحت عند ذاك على عمارة بأن ننصرف حتى نفسح في المجال إلى داخل بأن يدخل على عروسه وسوف يكون مسروراً بعملنا هذا. غير أنه أجاب قائلاً: هل كل شيء زين. نروح لما يكون داخل مستعد». وبعد فترة، استعار داخل بندقية الصيد مع إطلاقة واحدة ثم اختفى. استمرت الحفلة ونحن مندمجون فيها بحبور. وبعد فترة، سمعت فجأة صوت إطلاقة من الطرف البعيد من الغرفة وما كنت أتوقع هذا الشيء. فابتسم الحاضرون ابتسامة عريضة لأنهم كانوا ينتظرون مثل هذا الشيء. ويظهر أن هذه الإطلاقة هي إشارة تدل على أن العريس دخل على عروسه ثم ظهر مرة أخرى ولم يكن مظهره الخارجي كما كان في السابق. فكانت دشداشته ممزقة وعقاله غير موجود. ثم سأله ياسين عما إذا كانت عروسه قد برهنت

على أنها أصيلة فأجابه ساخطاً وبشيء من الهزل: «مو سمعت صوت الطلقة!».

وفي صباح اليوم الثاني زرت داخلاً وأدخلني إلى غرفته، حيث المكان الذي يجب أن تبقى فيه عروسه، حسب عادة العشائر، سبعة أيام أخرى. جلست بجانبها فوق كومة من البسط والمخاديد. وجدتها تشبه أخاها في الشكل. لها وجه لطيف، ممتلئة الجسم لم تكن خجولة جداً. وبللت ملابسي بنوع من العطور وأطعمتني الحلوى بينما انهمك داخل في إعداد الشاي.

وبعد انتهاء هذه الأيام السبعة، بنى داخل له بيتاً صغيراً في القرية واستقر فيها. كانت الفتاة هادئة الطبع، كدودة في عملها، مقتصدة في مصروفها وهي صفات جعلت منها امرأة جيدة.

ولدت له في السنة الأولى طفلة، وفي السنة الثانية طفلاً. وكان داخل يأتي بهما حينما كنت أزوره وهو في غاية الاعتزاز ويضع أحدهما في حضني ولم أكن أبالي بالأطفال.

وعند عودتنا إلى قرية الرفيعية، توقفنا في قرية كبيرة من قرى المعدان بالقرب من مصب نهر العدل. وقبل وصولنا بعدة أيام كان أحد الرجال المسنين قد خرج من بيته وترك الطفلة الصغيرة مع أمه العجوز والعمياء وذهب إلى الدكان. ولما عاد وجد الطفلة قد سقطت في الماء وغرقت. فأقام لها مجلس الفاتحة على روحها في بيته. وبما أنني كنت أقيم في بيت بجوار بيت هذا الرجل المصاب بفقد طفلته وجب علينا مشاركته في العزاء.

كنت أرى الزوارق تروح وتغدو وهي محملة بالنساء أو الرجال يأتون ويروحون من بيت هذا العجوز. والشيء الذي جلب انتباهي هو أن الزورق لم يكن محملاً بالنساء والرجال بشكل مختلط لكن بالنساء أو بالرجال فقط. وكنت أسمع عويل النساء، يعلو تارة ويخفت أخرى. وقف بجانبنا

صبيان وأخذا يتحدثان إلينا وعرفتهما إذ كانا بصحبتنا حينما اصطدنا خنزيراً في السابق. جلس هذان الصبيان يتحدثان ثم قال أحدهما للآخر: تعال نروح هناك». فترجلا وسلّما علينا وانزويا في مكان بعيد ثم أخذا يبكيان وينتحبان على مسمع منّا. تذكرت مناسبة سابقة حينما كنا مع عشيرة الفرطوس، وأخذني فالح وداود وخيّال للصيد في الأهوار، تبعد قليلاً عن قرية جاسم. صادفنا زورقاً قادماً من قبيبة فعرفت أن أحد الصبية من أصدقائهما قد مات في ذلك اليوم. واستسلم الصبيان الثلاثة للعويل والبكاء بشكل جنوني إلى أن قال لهم فالح أخيراً «كافي» فأقلعوا فوراً عن البكاء والتقطوا مجاذيفهم.

قلت يجب أن نعزّي هذا الوالد المصاب بفقدان طفلته فذهبنا للتعزية. وتقام الفاتحة لكلا الجنسين وتدوم سبعة أيام، يقوم خلالها القرويين بتأمين وجبة الغداء بالتناوب ويشرب الناس من أهالي القرية القهوة فقط ولا يشربون الشاي أو يدخنون السكاير في الفاتحة ويتركون ذلك إلى الزوار. واقترح عمارة بأن أبدأ أنا بالقول «الفاتحة». لكنني رفضت وقلت له من بأن يقولها هو بدلاً عني. لأنه من الصعب على غير المسلم أن يعرف ما سيقوله من التعابير الدينية وما يجب أن لا يقوله في الفواتح. والأحاديث الكثيرة التي تدور في الفاتحة هي كما يلي: «الحمد لله» و«بسم الله» و«إبق في حفظ الله ورعايته». وما يقال في الفواتح من الكلمات الأخرى هو على كل حال من واجب المسلمين. فمثلاً: يضيف المسلم حينما يسمع بذكر إسم النبي محمد ﷺ. أما أنا فما كنت أذكر اسم النبي عند التحدث بل إنما أقول «نبيكم». وكنت أجلس بين الشيعة خلال الأيام العشرة من شهر محرم في مجالس العزاء على مقتل الحسين إظهاراً للحزن والتأسي. فاستمع إليهم وهم يقرأون قصة مقتله من بعد تناول العشاء فأتصرف كما يتصرفون. أنهض حينما ينهضون وألتفت إلى اليمين أو إلى اليسار حينما يلتفتون.

كانت الغرفة مزدحمة بالناس حينما دخلناها. سلمنا على الوالد، وهو رجل كبير السن وأعرج نتيجة لجرح أصيب به من جراء إصابته بإطلاقة. دعاني إلى الجلوس بجانبه ثم قدمت لنا القهوة والشاي والسكاير.

وقبل (١٢) سنة، اكتسب هذا الرجل شهرة في معركة جرت بين الشيخ مجيد الخليفة وبين والد زوجته الحاج سليمان. ولم أكن قد تعرفت أبداً إلى السبب الحقيقي لهذا القتال. ولكنني عرفت بأن ابنة الحاج سليمان قد قُتلت في الوقت الذي كانت فيه زوجة للشيخ مجيد.

وبعد عدة سنوات قُتل خريبط أكبر أبناء مجيد. ويقال بأن مقتل خريبط كان جزءاً من نفس العداوة. وفي تلك المعركة هجم رجال الشيخ مجيد عبر حقول الشلب المكشوفة واستولوا على قرية الحاج سليمان وأضرموا النار فيها.

ويقال بأن عدد القتلى في ذلك اليوم بلغ (١٤٠) قتيلاً قبل أن يصل أحد السادّة ويفرض عليهم الهدنة.

كان أبو الطفلة الميتة يحمل راية العشيرة ولكنه أصبح عاجزاً عن حملها بعد إصابته تحت أسوار الحصن الحقيقية. لذلك أخفقوا في احتلالها.

جلست بجانبه كما بيّنت مدة نصف ساعة أشرت إلى عمارة بوجوب الذهاب فقرأ «الفاتحة» ثم نهضنا وغادرنا الغرفة.

كانت العادة أن نساهم في المصاريف. لذلك حينما أوصلنا هذا العجوز إلى الباب وضعت في يده نصف دينار.

٢١ ـ فيضان سنة ١٩٥٤

كان شتاء سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ شتاءً قاسياً جداً. وكان نهر دجلة فائضاً جداً بسبب هطول الأمطار الغزيرة في الشتاء وذلك عندما عدت إلى العراق في أواسط شهر شباط. حدث هذا الارتفاع على الرغم من أن الثلوج الهائلة على قمم الجبال الإيرانية والتركية لم تبدأ بالذوبان.

التقى بي عمارة وسبيتي في البصرة وأمضينا بضعة أيام فيها نشتري الأدوية والخراطيش والملابس ثم عدنا من بعد ذلك إلى القرية. وأمضينا في طريقنا ليلة واحدة في مضيف فالح الذي كان ولده عبد الواحد يقوم مقامه.

كان عبد الواحد شاباً لكنه بليد لا يدري ماذا يفعل لأن والدته الشديدة والبخيلة كانت مسيطرة عليه فتتدخل في شؤونه. وكان لا بدّ وأن يقف أتباع فالح الكبار السن بجانبه لكنها تخلصت منهم حتى توفر المال. فقد ترك داير العمل كما عزم عبد الرضا أن يترك العمل أيضاً. وكان يتردد على المضيف في هذه الأيام عدد قليل من الناس، فكنا نجلس معظم الوقت صامتين وهذا من شأنه أن يدخل السأم في القلوب.

كنا قد تركنا طرادتنا في هذا المكان ووجدناها غير صالحة تتسرب المياه إليها. فقلبناها رأساً على عقب وبدأنا نسد الشقوق بصورة موقتة إلى أن نعيد تصليحها وتجديدها. لذلك قررنا عبور الأهوار والتوجه إلى الهوير

حتى يقوم الحاج حميد نفسه بعملية التجديد. كان التيار قوياً جداً، ومنسوب النهر عالياً بحيث يصل إلى حافة الضفاف. وفي طريقنا، شاهدنا عدداً من الرجال على شكل مجموعات وهم يعملون بجد ونشاط في تقوية السداد وذلك قبل وصولنا إلى الرفيعية، تلك القرية التي مكثت فيها مع عمارة الذي وسّع بيته الآن فأصبح فسيحاً وذا بناء جيد كما كان أثاث البيت جديداً من سجاجيد ووسائد وغير ذلك. ويعزى سبب تحسن حالتهم المالية إلى كون إخوته يعملون بجد ونشاط مما يدرّ عليهم ناتجاً جيداً. فمثلاً أخوه رشك بذل جهده في حقله والجواميس أنجبت عجولاً وبدأوا يحلبون اثنتين بدلاً من واحدة.

فرحت جداً لعودتي إلى الرفيعية ولمست أن أهل القرية كلهم فرحون بعودتي. ولما نزلت من الزورق. مشى الصبيان ورائي فكأنهم يحرسونني حتى وصلت إلى بيت (ثقب).



وهناك طلب الرجال الكبار في السن من عمارة بأن يصرف الصبيان فقالوا له: «رجّع هذوله الفروخ حتى نشوف صديقنا». ما أسهل القول وما أصعب التنفيذ. أبى هؤلاء الصبية الانصراف وأجاب أحدهم ولا يتجاوز عمره سبع سنوات بوقاحة «خلّونا وحدنا هو صديقنا مو صديقكم».

لم أشاهد مطلقاً رجلاً يضرب صبياً صغيراً ولا يشفق عليه أحد كما لم أشاهد أبداً تشاجر الصبيان مع بعضهم البعض إلاّ في مناسبات نادرة جداً.

والآن، ناشد رشك هؤلاء الصبيان بأن يساعدوه في مسك بعض فروخ الدجاج. واستجابوا لطلبه فاندفعوا يطاردون فروخ الدجاج وهم بمنظرهم هذا أشبه بمجموعات صغيرة من فروخ الكلاب. والدجاج هنا ملك لـ (مطرة) أخت عمارة التي كانت تذبح عدداً منها كلما بقيت عندهم. وكانت أحياناً تبيع عدداً منها للمشترين الذين يأتون من المدن ويتجولون في

القرى لهذا الغرض. وكنت قد اشتريت لها ملابس سلكية زاهية خضراء من البصرة. إختارها عمارة بنفسه، لذلك شعرت هذه المرّة بأنني غير مقصّر مقابل فروخ الدجاج.

كانت مطرة فتاة خجولة، هادئة الطبع، رفيعة، حلوة الشمائل ولها وجه جميل. وسألنا مرّة عمارة عما سيفعله هو ووالده إذا ما طلبها الشيخ ليتزوجها فأجابا بأنهما سيرفضان طلبه.

«إذا الشيخ يريد يتزوجها ما عندي قوة أحميها».

بإمكان الشيخ أن يتزوج كل فتاة تعجبه ولكن لا يمكن لبنت الشيخ إلا أن تتزوج أحد الشيوخ. وينطبق الشيء نفسه على السادة. ويحق للمسلم أن يتزوج أربعة نساء ولا يحق لأي أحد أن يتجاوز هذا العدد. وفي قباب رأيت صداياً وشرءصين آخرين فقط يملكون زوجتين. كنت في أول الأمر، أفترض بأن نسبة عالية جداً من الأطفال يجب أن يموتوا في سن الطفولة. ففي إحدى قرى عشيرة الفرطوس التي كنت قد زرتها من قبل، كان قد مات خمسة أطفال من مرض السعال الديكي في مدة أسبوع واحد. وهذه في الحقيقة نسبة قليلة. ومن أجل المقارنة أخذت عشرة أسر في قرية قباب بشكل عشوائي فكان مجموع الأطفال ثمانين طفلاً.

ومات منهم ثلاثة عشر طفلاً بعمر أقل من خمسة عشرة سنة. فمن أولاد (ثقب) التسعة لم يمت إلا طفلاً واحد. وأخوة وأخوات سبيتي السبعة كلهم أحياء فتعجبت من ذلك كثيراً. فكيف يمكن مقارنة هذه الوفيات مع وفيات الأطفال في إنكلترا.

مكثنا في قرية الرفيعية يوماً آخر قبل التوجه إلى قرية بومفيفات. ولما تحركنا في اليوم المقرر لسفرنا، بدأ المطر ينهمر خلال الليل. ولما أصبح الصباح وجدنا السماء ملبدة بالغيوم تُنذر بسقوط المطر. ولما وصلنا إلى مسافة يمكننا فيه من رؤية بيت حسن بدأ المطر آنذاك بالانهمار واستمر

انهماره طوال النهار بأسره ولذلك تبللنا بماء المطر قبل أن نتمكن من إخراج حاجياتنا من الزورق لإدخاله إلى البيت.

كان البيت ذا بناء جيد، له سقف يحتوي على عدة قطع من الحصران السميكة. ولم نجد حسن نفسه في البيت بل إنما كان قد خرج إلى الصيد. غير أن عفراء والدته رحبّت بنا وأوقدت النار حتى نجفف ملابسنا. وعفراء هذه هي امرأة ضخمة الجسم، لها عينان واسعتان رماديتان مائلتان إلى الخضرة بصرف النظر عن وجهها المربع الشكل. لها نفوذ على أهل القرية، كرّست حياتها من أجل إبنها. تنحدر من أسرة شهيرة هي مكنزي. وكانت ترتدي ثياباً مقلمة.

ولما سمعتُ بهذا الاسم لأول مرة، توقعت بأني سألتقي ببعض الناس ممن ينحدر من جماعة من الاسكوج. وهذه الأسرة هي في الحقيقة من عشيرة الفريجات ومن نسل لا يرقى إليه الشك.

كان جد عفراء قد سمى ابنه مكنزي تيمناً باسم رجل اسكوتلندي كان قد صادفه في الحرب العالمية الأولى وأعجب به.

جاء حسن وهو مبلل حتى جلده. وقد امتلأ زورقه الصغير إلى نصفه بالماء المتساقط من المطر وكان يحمل معه عدداً من البط النهري كان قد اصطاده بطلقة واحدة.

وحكى لنا كيفية إصطياده فقال بأن البط كان وحشياً جداً إلاّ أنه تمكن من الاقتراب من هذه المجموعة المؤلفة من (٤) فقط وذلك بالتقاطه باقة من القصب ووضْعها أمام عينيه حتى لا تراه وخوضه الماء إلى عمق عنقه.

وبعد فترة جاء ياسين من مكان منابت القصب. وكان ياسين وحسن متلهفين للعمل معي مرة أخرى.

وبعد أن جددنا الطرادة في الهدير، خططنا بأن نعبر نهر دجلة من القرنة ثم نتجه شمالاً من خلال جزء من الأهوار الشرقية والتي لم يسبق لنا مشاهدتها. غير أنّ صحين قال لنا ناصحاً «لا تقتربوا من بحيرة زكري في مثل هذا الطقس. إذهبوا إلى الجنوب إلى نهر الفرات من خلال قرى البوبخت. ولاحظوا بلكي تگدرون تأخذون وياكم طاهر عبيد كدليل معكم. هذا يعيش على التهريب ويعرف الطرق المائية كلها في الأهوار الشرقية».

وقال ياسين «نعم. إلتقيت به بالعزير في العام الماضي. فإذا جاء معنا فبوسعنا أن نذهب أين نشاء».

في اليوم الثاني تناولنا طعام الغداء في (دوب) مع الرجل الذي كان كلبه قد هجم على إبنه قبل ثلاث سنوات. ولما أردنا أن نرحل، ألحّ الوالد والولد نفسه بالبقاء يوماً آخر، لذلك أمضينا الليلة عنده.

كان اللصوص قد سرقوا قبل بضعة أيام عدداً من الجواميس من هذه القرية خلال الليل. فعندما نبحت الكلاب، علم أهل القرية بوجود اللصوص، فبدأوا بمطاردتهم وإطلاق النار عليهم فأصابوا صبياً في صدره فقتلوه في الحال. وكنت أعرف الصبي الميت فذهبت إلى مجلس الفاتحة.

وحكى لنا صحين هذه الحادثة في قرية بومفيفات والقى الشك على لص من عشيرة الفريجات الساكنين في العويسج. غير أنه ثبت لهم الآن أن اللصوص هم من عشيرة السويد وتعرّفوا إليهم من أصواتهم. لأن بإمكان رجال الأهوار التعرّف إلى الأشخاص الغرباء من لهجتهم فيكتشفون العشيرة التي ينتمي إليها.

عثرنا على طاهر في البيت حينما وصلنا في مساء اليوم التالي. رأيته رجلاً قوي البنية، يبلغ من العمر ثلاثين سنة، يمكن تمييزه من الورم الكائن فوق عينه اليمنى وحجمها بقدر حجم الجوزة. ولما عرضنا عليه الأمر وافق على مرافقتنا.

وكان قد مات أكبر أولاده حديثاً فبقي له طفلان صغيران فقط لذلك ساعده في الضيافة ابن أخيه لأنه صبي نشيط يبلغ من العمر اثني عشر سنة ويعيش بجوار بيته. وكان هذا الصبي يشبه أباه. وأما أخو طاهر فهو أصغر الأخوة ويشبه طاهراً بشكل عام من المظهر ويعيش هو الآخر على النهرين.

وسرعان ما حضر عدد من الناس المرضى أكثر من المعتاد حتى أعالجهم. جاء بعضهم من مسافات بعيدة فتعجبت من الطريقة التي تنتقل فيها الأخبار بسرعة. ولهذا السبب بقيت يوماً آخر مع طاهر حتى أعالج هؤلاء المرضى. فوجدت في هذه القرية صبياً قضيبه تحت خصيتيه. ولم يسبق لي أن رأيت مثله.

وفي طريقنا إلى الهوير أخبرنا طاهر من أن مغامراته الأخيرة لم تكن ناجحة حيث ألقت الشرطة الإيرانية القبض عليه وصادرت ما يحمله من أموال مهربة كالشاي والسكر وغيرها. واستجوب حول مصير شرطيين إيرانيين كانا قد اختفيا قبل عدة أشهر. وبعد يومين من الضرب بالعصي والتحقيق الشديد لم يتوصلوا إلى نتيجة لذلك أطلقوا سراحه ولكنهم حذروه بأنهم سوف يطلقون النار عليه إن أمسكوه مرة أخرى. ثم تأوه وقال: «أگدر أدليهم على مكان اختفاء الشرطيين المفقودين. أنا اللي دفعتهما تحت جزيرة عائمة في الهور. كنا نحمل الدقيق فطاردنا هذان الشرطيان في الظلام. لكن تركنا وراءنا شخصين وكمنا وباغتناهما. وحصل كل واحد على مائة دينار من بيع بندقيتهما. أنا الآن أحاول البقاء بعيداً عن إيران في الوقت الحاضر».

تقع الهوير على مسافة قليلة فوق خليج صغير إلى الشمال من نهر الفرات. تجد الدور وعدداً من المضايف منتصبة تحت أشجار النخيل الباسقة فوق جزيرة ذات أرض عالية محاطة بالهور. مكثنا مع الحاج حميد في مضيفه الصغير المجاور لساحة القارب. وجدته رجلاً ذا حيوية ونشاط وهو بمتوسط العمر.

أمر الصبيان بأن ينتزعوا القشرة من الطرادة في الحال ثم اصطحبوني لنتجول في القرية. وجدت الناس منهمكين في صناعة القوارب إما بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. فألواح الخشب وكتله وأعواد الخيزران كلها مكدسة في الساحة خلف دكاكينهم. ويبيع البقالون في دكاكينهم المعدات الخاصة لصناعة القوارب والمسامير بالإضافة إلى السلع الاعتيادية. ووجدت العمال يشتغلون تحت أشجار النخيل وهم يضعون اللمسات الأخيرة على قارب ذي صاريين قبل إنزاله إلى الماء على جذوع الأشجار. ويعمل معظم أصحاب الحرف في الساحة التي تعود لهم والتي تقع وراء حواجز القصب. ينزعون قشور القوارب الصغيرة أو يطلونها بالقير من جديد أو يصلّحون الأطر المتكسرة أو يصنعون قوارب جديدة.

راقبنا أحدهم وهو رجل عجوز يصنع زورقاً صغيراً. صمم البطن أولاً من الشرائح الخشبية المستعرضة. وجعل كل شريحة تبعد عن الأخرى مقدار عقدة واحدة أو ما يقارب ذلك.

ثم ثبّت لوحة خشبية طويلة بالمسمار في الوسط. إنتهى من صنع الهيكل ونحن نشرب الشاي. وكان يختار القطع المناسبة من الأخشاب المكدسة بجانبه. كان يستخدم القدّوم ومنشاراً صغيراً ومثقباً مقوساً موضوعة بجانبه فوق الحصير مع عدد كبير من المسامير. كنا نشمّ رائحة القير المذاب حيث تجرف أبخرتها الرياح نحونا من الساحة المجاورة. وكانت أشعة الشمس تتسلط علينا من خلال سعف النخيل. وشاهدت غرابين أرقطين على السعف، ينظران إلينا ويراقبان كل حركة من حركات العمال.

وأخيراً قال الحاج حميد «خلّي نرجع هسه. لازم خلّصوا نزع القشرة من طرادتك. راح أقيرها من بعد الغداء بقير جديد. إبق هذه الليلة حتى تيبس عند الصباح». ثم صنع لنا مجاذيف جديدة وصبغ ريشتها باللون الأحمر حتى يصعب سرقتها. ولمست أنهم يفرحون جداً إذا ما حصلوا

على مجاذيف من صنع الحاج حميد. وعلى هذا الأساس، أصبحت مجاذيفنا منذ الآن مميّزة عن غيرها. وكانت تبدو جيدة.

وفي صباح اليوم التالي، عدنا أدراجنا، وبدأنا نجذف سوية في الماء ونحن نسير مع المجرى ومررنا بضفتي النهر المغروسة بأشجار النخيل. وكان طاهر يجلس في مقدمة الطرادة، حيث المكان الذي كان يشغله حسن. وحلّ حسن في محل عمارة الذي جلس قبالتي كمسافر. وقبل أن نصل إلى القرنة تخطينا زورقين أو ثلاثة تجارية النوع.

وجدنا جسراً من نوع جسر پانتون مشيّداً على نهر الفرات في المكان الذي يلتقي فيه بنهر دجله وهو مفتوح لمرور السابلة. وكان منسوب نهر دجلة عالياً فتناولنا طعام الغداء في مضيف يقع في الطرف البعيد. وكان ذلك اليوم بتاريخ الرابع من شهر مارت.

بقينا في الجانب الشرقي من النهر طوال الأسابيع الخمسة التالية.

زرنا في البداية العشائر التي لم ألتق بها في السابق مثل الدخينات أو عشيرة الحلقي Haliki. ثم عدنا من بعد ذلك إلى أصدقائنا بين عشيرة البومحمد وعشيرة الفريجات والسويد.

كانت الأمطار تهطل في أكثر الأوقات وخاصة أثناء الليل مصحوبة بزوابع رعدية فانجرفت المياه نحو الأهوار. نمنا في دور تحتوي سقوفها على أكثر من حصيرتين لأن معظم الدور فيها حصيرة واحدة في السقف. وكانت الحصران الموجودة توضع أحياناً في أرضية الغرفة فوق حاجياتهم البيتية وما كان هذا يمنع من تسرب مياه المطر إليها. كان الجو بارداً جداً فكنا ننام على شكل أزواج نتقاسم بطانياتنا. وكان الفيضان يزداد ارتفاعاً على الدوام.

خرجنا بعد ظهر أحد الأيام إلى الصيد. وكانت الغيوم قد تجمعت بسرعة على شكل كتل كبيرة تنذر بحدوث زوابع رعدية هائلة. وقال ياسين بقلق «يا رب. انشاء الله ماكو بَرَدْ بهل زوبعة».

وردّ عليه الآخرون بدعاء مثل دعائه. بدأت الزوبعة. وقبل أن نصل إلى البيت كان علينا أن نُبقي الطرادة عائمة فوق الماء. وكان رفاقي يخشون من سقوط البَرَدْ، ولهم كل العذر في ذلك لأنه، في السنة التالية ضربت الزوبعة التي تحمل البرد قطعة واسعة من النباتات الواقعة في النصف الشمالي تماماً من الأهوار، محطمة بذلك أكبر عيدان القصب ومهلكة عدداً لا يحصى من طيور البجع والأوز وانواع أخرى من الطيور المائية وأتلفت المحاصيل في كل مكان كما قتلت ايضاً عدداً من الجواميس. وقال عمارة «ويّا هل ماي العالي راح نقتل كثير من الخنازير هل سنة». وفعلاً قتلنا عدداً كبيراً منها. وقبل أن نجتاز نهر دجلة ثانية كنت قد قتلت (٢٠٥) خنزيراً. إن مثل هذا العمل مثير وخطر أحياناً. وما كنت أصيدها لمجرد التسلية فقط.

تعتبر هذه الخنازير أعداء سكان الأهوار الطبيعيين. وكان عليّ أن أثير في نفوسهم الضغينة أو دفعهم لقتل هذه الخنازير وأن لا يشعروا بأسى حينما يقتلونها. ومع ذلك، فإذا ما أبيدت هذه الخنازير هنا كما أبيدت الأسود فلا بدّ وأن أصبح مكروهاً. ولكن أشكالها الداكنة وهي تقتات على حافات منابت القصب عند المساء تعتبر بالنسبة لي جزءاً مكملاً لمنظر الأهوار. وأنه من غير التعرض المستمر للحظر من شن الهجوم المقابل عليها تفقد الحياة هنا كثيراً من بهجتها.

ويمكن أن يكون الخنزير جسوراً إل درجة مدهشة. ففي إحدى المرات وأنا في أراضي العميرة، أكّد لي القرويون بأن أحد الخنازير عاد إلى القرية مع الجواميس وأمضى الليل في الدور الخالية، وما صدقتهم حتى رأيت خنزيرين يسيران في المياه الضحلة وهما في طريقهما إلى القرية مع مغيب الشمس. فقمنا بمطاردتهما وقتلناهما. ولما رجعنا في الظلام قالت لنا إحدى العوائل حيث كانت المرأة جالسة خارج البيت بالقرب من النار بهدوء وحذر:

«شوفوا اكو بعد داخل البيت» وكانت تشير إلى باب البيت المجاور والذي يبعد مقدار بضعة ياردات. وحسبت في أول الأمر من أنها تمازحنا. فنزلنا، على أية حال، من الزورق على الدبن وكادت الخنازير تقتلنا لأنها خرجت من داخل البيت مسرعة وهائجة وألقت بنفسها في الماء.

إتجهنا بالطرادة نحو الشمال، وقادنا طاهر إلى العويسج، وهي عبارة عن سلسلة طويلة من الأرض المرتفعة قليلاً عن مستوى الماء، تمتد بمحاذاة نهر دجلة. وكانت معظم الخنازير غاطسة في الماء بسبب منسوب الفيضان بشكل غير اعتيادي وعدد آخر كبير منها مضطجع على الأرض في ذلك النهار. وكان رفاقي يدفعون الطرادة بسهولة من خلال الترسبات الطينية في أي إتجاه نريده حتى نصطاد الخنزير الذي نبغي قتله. وفي أحد الأيام، ومن بعد الظهر، قتلت (١٠) خنازير كانت تسير أمامنا الواحدة وراء الأخرى. وكنت أرمي بشكل استثنائي في ذلك اليوم حيث قتلت خنزيراً واحداً بإطلاقة واحدة فقط. ثم عثرنا على أربعة خنازير أخرى وعندما قتلت أحدها، تجمعت البقية حوله وهي تضرب الأرض بحوافرها وبقيتُ لفترة بجواره وما أدركت السبب فقتلتهم جميعاً.

ثم رأينا ذكريْ خنزير كبيري الحجم، وقفا يراقباننا على بعد (٢٠٠) ياردا. فأدار طاهر ورفاقه الزورق إلى الجانب ثم وقفوا خلفهما. فجلست على الزورق وأطلقت النار فقتلت أكبرهما. بدأ الخنزير بالدوران كأنه مزراع ثم ركض مقدار (٢٠) بارداً ثم انحرف وتوجه نحونا رأساً ومن ورائه الآخر. فأطلقت أطلاقة أخرى سمعت صوتها حينما أصابته، لكنه لم يسقط على الأرض. فأطلقت أخرى وهو لا يزال يواصل اندفاعه نحونا حتى أصبح على مقربة منا تماماً. فأطلقت النار عليه فسقط هذه المرة على الأرض. أطلقت أربع إطلاقات حتى سقط ميتاً. حشوت البندقية وأطلقت النار على الآخر فأصابته الإطلاقة لأنه كان قريباً مني. ولكن لو قفز قفزتين أخريين لأصبح فوقي إلا أنني بادرته بإطلاقة أخرى فسقط على الأرض.

وتوجهنا من بعد ذلك نحو الزورق حشوت البندقية استعداداً للرمي ولكنني وجدته جثة هامدة لا حراك فيها فانحنيت وأنا في الزورق ولامست يدي أقربها. أما الآخر فكان بعيد عني بمقدار قدم أو أكثر.

كنت مركزاً كل همي في الرمي لذلك لم أكن أفكر في الخوف. غير أن هجوم الخنزير وهو يندفع نحونا وعدم تأثير إطلاقاتي فيه لا بدّ وأن يسبب ذعراً شديداً لرفاقي الخمسة الذين كانوا غير مسلحين لأن بندقية الصيد والمسدس كانا معي داخل الزورق. ولقد كانوا خائفين فعلاً لأنني التفت إليهم ورأيتهم على أهبة الاستعداد للقفز على الخنزير والخناجر بأيديهم. فقلت لهم:

«ماذا كنتم تفعلون لو أن الخنزير دخل إلى الزورق؟».

«كنا نركب على ظهره ونقتله بخناجرنا» أجاب عمارة.

وفي اليوم الثاني طاردنا خنزيراً ذكياً آخر في مياه عمقها (١٨) عقدة. كان يبعد عنا مقدار (٤٠) ياردا فقط. كنا نتقدم نحوه فاستدار وهجم علينا بسرعة وهو في الماء بحيث كان الرذاذ يتطاير بشكل غزير جداً. أخفقت في إيقافه وأنا في الطرادة التي لا زالت تتحرك وأصبح بجانبنا قبل أن أتمكن من إطلاق النار ثانية.

وكان طاهر قد استعار رمح صيد السمك في ذلك الصباح فقذف الرمح في وجه الخنزير الذكر فأصابه وانغرز الرمح في جسمه. أما أنا فأطلقت النار ثانية فأرديته قتيلاً، لكنه ضرب الطرادة من الجانب قبل سقوطه جثة هامدة بحيث سقط طاهر في الماء وتبلل جسمه من رأسه إلى أخمص قدميه بالوحل ثم نهض وهو يتمم كلمات سريعة غير مفهومة.

سأله ياسين ببراءة «ليش ذبيت نفسك بالماي؟. مو چنت بأمان تماماً بداخلها. مو شفت الصاحب راح يرميه؟. لم يضحك طاهر على هذا القول.

وقال عمارة «لو تقدم الخنزير قدم آخر، جان يحطم القارب إلى قسمين. مثل القارب اللي شفناه قبل اليوم، اللي حطمه الخنزير».

كان هذا الخنزير أكبر خنزير شاهدته إلى الآن. له شعر طويل وخشن بلون بني غامق. كانت جلود بعض الخنازير الأخرى سوداء تقريباً وبعضها الآخر حمراء. كما شاهدنا مرّة ونحن نسير مجموعة من الخنازير باهتة اللون بحيث حسبناها لأول وهلة أغناماً. وعلى أية حال، فإن كثيراً من الخنازير لها عدد قليل من الشعر الخشن على جلودها الأجرد. تلد الخنازير بين شهر مارت ومايس. وتلد الواحدة منها خمسة فروخ دفعة واحدة، لها جلود مقلمة ناعمة الملمس، جذابة الشكل.

وحينما كنت أصطاد الخنازير، كنت أرى أنه لا فائدة من سوقها باتجاه الريح. وللخنازير بصر حاد ولكن يظهر أن سمعها ثقيل وخاصة عندما تكون نائمة. إذ ناداني مرة بعض الخيالة من عشيرة بني لام بأن أقترب منهم حينما كنت أقوم بصيد الخنازير على ظهر الحصان في أحراش تحتوي على أشجار الطرفاء، وذلك حتى أرى خنزيراً ذكراً، ضخم الجسم، وهو يغط في نومه داخل الدغل ونحن على بعد ياردة واحدة منه.

ويؤكد المعدان بأن الخنزير يقتات على الجيفة أو المواد الفاسدة. وفي العويسج رأيت فعلاً عدداً من الخنازير التي قتلتها قبل أيام وقد أُكلت أجزاء منها من بنات آوى التي تتواجد بأعداد كبيرة في هذه المنطقة. وأخشى من غرق جميع بنات آوى في تلك السنة لأنه لم يبق هناك إلا قطعة صغيرة من الأرض لا تزال غير مغمورة بالمياه التي كانت في حالة ارتفاع مستمر وستبقى على هذه الحال طوال شهرين آخرين على الأقل.

وكثيراً ما كنا ننام في قرى صغيرة فوق جدار نحيف من الطين محاط بالمياه. وكنت أتوقع دوماً سقوطها ونحن نيام.

كانت الزوابع تحدث في معظم الليالي مصحوبة بالرعد والبرق وكنا

نتبلّل بسرعة. وكانت مياه الأمطار تنهمر علينا من السقوف المشقوقة. وفي الصباح اللطيف، كنا نجفف ملابسنا وإلاّ أصبنا بالبرد وأصبحنا في حالة تعيسة.

كنا واصلنا سيرنا عبر فسحة واسعة من الطين الممزوج بالماء وتحت سماء مكفهرة بالغيوم. وحينما وصلنا نهر الكحلاء وجدنا القرى الواقعة على مصبها مغمورة بمياه الفيضان.

ففي إحدى القرى، اكتسحت المياه الجدران الطينية المحيطة بالدار، خلال الليل وكانت الأسر تتلمس طريقها في المياه بحثاً عن حاجياتها. وكان ضغط المياه على طول نهر الكحلاء قد حطّم السدود بسبب تدفق المياه عبر حقول القمح والشعير غير المحصودة، وعندما عبرنا مرة أخرى نهر دجلة، لم تبق لنا حاجة حتى نبحث عن جسر لكي نعبر من تحت الطريق الرئيسي لأن مستوى المياه الفائضة كان بمستوى حافات السدود.

ففي مثل هذه الحال كنا نرش الطريق الترابي ثم ندفع الطرادة فتنزلق على الأرض الموحلة. وهنا أصر طاهر بأن يتركنا حتى يتمكن من مساعدة أسرته فقال لنا «راح ترتفع المياه هذه السنة وتصبح عميقة جداً بحيث يصعب على الجواميس أن تقتات من الأهوار. راح نشتغل زايد حتى نقطع الحشيش لتأكل».

كان طاهر يتحلى بمزاج حسن ويساعد الآخرين حتى في أصعب ظروف المحن ويتقاسم معهم العمل بالتساوي على الرغم من أنه كبير السن، يبدو وكأنه أب لرفاقه فكان دليلنا في سيرنا في أماكن نمو القصب الواسعة على امتداد الحدود الإيرانية، لأننا كنا نسلك طرقاً لا يعرفها إلاّ أناس قلائل.

وعدنا بأن يصحبنا في مرة أخرى، ولكن، لما سألت عنه في السنة التالية قال لي أحد الرجال وهو في غاية الاستغراب «ما سمعت طاهر

مات؟. قتله ابن أخيه الصغير في الشهر الماضي». ويظهر أن طاهراً وأخاه قد فقدا عقلهما ونفذ صبرهما حول بعض الأمور الثانوية بحيث أطلق أحدهما النار على الآخر. فهجم ذلك الصبي الذي لا يتجاوز عمره (١٢) سنة والذي رأيناه في السنة الماضية حينما كان يساعد أباه. فأخذ رمحاً من رماح الصيد وطعن به ظهر عمه طاهر. اخترقت إحدى رؤوس الرمح ذات الشوكة الحادة كليته فمات خلال ساعات بعد أن عانى خلالها ألماً شديداً مبرّحاً. فقال لي أحد الرجال من كبار السن: «أخوه صار مثل المجنون من كثرة حزنه عليه. شتم ابنه ووبّخه مع العلم أن الصبي نفسه كان يحب عمه طاهراً حباً جماً ويعتبره مثل أبيه. حقاً إنها مأساة».

وفي هذا الوقت، ونحن في الأهوار، كنا منفصلين عن بقية العالم تماماً، لا ندري ماذا سيحل بأرض العراق من دمار. لأن المياه غمرت مناطق شاسعة جداً وأصبحت بغداد نفسها في خطر جسيم. ولكن مع ذلك، لم ينقطع طريق البصرة ـ بغداد فبقي سليماً غير مغمور بالمياه. قمنا بزيارة عاجلة للبصرة في شهر نيسان. استأجرنا سيارة تاركين الطرادة في الغدير. وكنت قد اشتريت بندقية عيار (٢٧٥) مستعملة من محلات ركبي Rigby لأنني لم أكن أرغب أن أحمل معي البندقية الأخرى من نفس العيار والتي صُنعت لي خصيصاً قبل الحرب ففي سنة ١٩٥٤، جلبت معي، على أية حال، أحسن ما لدي من بنادق أيضاً وتركت الأخرى في البصرة. والآن أهديت تلك البندقية إلى عمارة واشتريت بندقية صيد إلى كل من سبيتي وحسن وياسين.

وبعد شهرين، عندما زرنا البصرة مرة أخرى، ركبنا الطرادة وسيرناها بالمرادي، متجهين إلى الجنوب على امتداد الطريق الرئيسي حتى وصلنا القرنة حيث استأجرنا زورقاً بخارياً ليقلّنا في النهر إلى البصرة. وعندما عدنا إلى قرية قباب في شهر نيسان وجدنا المياه بمستوى عالٍ يقل عن مدخل مضيف صدام بمقدار قدم واحد فقط. علماً بأن المياه كانت بمقدار

ستة أقدام أقلّ ارتفاعاً من مدخل المضيف نفسه حينما زرت القرية في المرة الأولى وقد كانت تُعتبر تلك السنة جافة بشكل استثنائي. ثم استوجب منه أن يحيط بناءه بجدار فيما بعد.

كانت ظاهرة المياه المرتفعة غير ملائمة للمعدان بالتأكيد. ومع ذلك فقد كانت الحياة تسير بشكلها الطبيعي. فكانت الأسر تكوّم كميات كبيرة من القصب على أرضية بيتها حتى تحافظ على أنفسها من البلل.

ومن قرية قباب إنطلقنا لنزور عشائر المنتفك الساكنة على امتداد نهر الفرات ثم ننتقل نحو الشمال بعكس المجرى. فتوقفنا عند مسيرنا لدى جاسم الفارس ومكثنا في ضيافته يومين. وكانت الأراضي في هذا الوقت من السنة الكائنة إلى الغرب من قرى عشيرة الفرطوس مغمورة دوماً بمياه الفيضان. وكدنا أن نغرق في السنة الماضية حينما كنا نعبر من العويدية إلى الحمّار. لذلك أصرّ جاسم بأن يرسل معنا ابنه فالح مع رجلين آخرين من الفرطوس في البلم.

غادرنا قرية العويدية يوم (٢٩) نيسان وسرعان ما هب الريح الشمالي الغربي العاصف، والمياه الفسيحة كالبحر تجري في أرض مكشوفة. ولهذا السبب، انتقلنا أنا وسبيتي وعمارة بأمتعتنا إلى البلم، وتركنا ياسين وحسناً في الطرادة على أن يتدبرا أمرهما مع ما يقى من الحمل فيها. فاندفعنا إلى مجرى الماء ثم سرنا بعكس المجرى مرة أخرى. كان مستوى مياه الفيضان لا يزال فوق المستوى بالنسبة للسنوات الاعتيادية، تزداد في الارتفاع طوال شهر آخر على الأقل. ولكن، حينما رأيت معظم قرى الحمّار غاطسة بالمياه، أدركت عند ذاك مقدار خطورة الموقف.

فبإمكاننا الآن الذهاب إلى أي مكان نريده، نجذف الطرادة والبلم الكبير عبر حقول القمح غير المحصودة وبين جذوع عدد لا يحصى من أشجار النخيل.

كانت جميع القرى مهجورة، والكلاب الضالة تنبح من فوق سطوح الدور ونحن نجتازها. وكنا نرى من حين لآخر بقرة، وصل الماء إلى مستوى بطنها وهي واقفة على قمة السدّة حيث كانت تأكل سعف النخيل التي كانت تصلها بسهولة. ولكن، كان هناك عدد قليل من المضايق والدور الواقعة على أرض عالية أو في الأماكن التي لا تزال فيها السداد قائمة. وحينما كنا نتبادل التحايا عند العبور كان المتواجدون في الدور يصيحون بنا أن نتوقف عندهم. وكانوا يهيئون القهوة حينما نتوقف عندهم كما يعدون الشاي ويذبحون الدجاج ليهيئوا لنا الطعام. فكنا نجلس معهم ونتحدث إليهم.

وكنت قد التقيت بعضهم في الزيارات السابقة. وكلهم قد سمع بأن رجلاً إنكليزياً يعيش بين ظهرانيهم. ولكن، حتى إن لم أكن معروفاً لديهم فإنهم كانوا يرحبون بنا لأننا ضيوف. وعند عودتنا إلى الناصرية، دخلنا في مجرى نهر الفرات الرئيسي وجرفتنا تيارات الماء السريعة الجريان.

ففي أحد الأماكن، أصبحت بقايا السدة كطبقة مستوية تطفح الماء من فوقها على شكل دوّامة قبيحة المنظر. وكنا لا نزال نحمل الصناديق الثقيلة من البلم وهي التي زادت من ثقل البلم وإلاّ ستصبح الطرادة بدونها خفيفة على سطح الماء. وحتى في مثل هذه الحالة، كنت أخشى من الانقلاب. غير أن ياسين كان يعرف بالضبط واجبه فقاد الطرادة قيادة حسنة بينما كان رفاقي الآخرون يجذفون بكل ما في وسعهم من جهد. ورأينا مدينة سوق الشيوخ أثناء عبورنا مغمورة بالمياه.

وبعد أن مكثنا يومين آخرين مع آل جويبر، عدنا إلى الحمّار ثم رأينا من بعد ذلك سوق الفهود خالية ومهجورة.

ولما تسلق أصحاب الدكاكين القارب ليركبوه انهارت الجدران الطينية وراءهم. ثم عقبنا مجرى نهر الغرّاف سائرين عكس المجرى حتى وصلنا

إلى مدينة الشطرة بعد مسيرنا بضعة أميال. رأينا المياه قد أحدثت كسرات على السداد في بعض المحلات. وأما في بعضها الآخر فكانت السداد قائمة. كان الرجال يشتغلون بجد وبدون كلل أو ملل حتى يخلّصوا محاصيلهم من الغرق.

مكثنا في ضيافة محسن في مضيفه الكبير الواسع الذي يتكون من خيمة واسعة قائمة بين عشيرة البوصالح.

كان مضيفه مفتوحاً حتى في مثل هذه الحالات أمام الزوار يبذخ بسخاء. ولا عجب من ذلك فهو ابن بدر المشهور بالكرم والجود.

مكثنا مع شيوخ آخرين من شيوخ المنتفك ولكن كنا نقضي أكثر الليالي مع الرعاء (الرعاة) البسطاء أو مع الفلاحين، أحياناً في خيام سوداء وأحياناً أخرى مع أناس آخرين في أكواخهم القصبية (الصرائف) أو في أكواخهم الصغيرة المبنية بالطين، كلها معزولة في داخل هذا البحر المحيط بصرائفهم وأكواخهم.

وصلنا قرية العويدية مرة أخرى وافترقنا عن فالح بن جاسم الفارس ورفيقيه ثم انطلقنا لنزور عشيرة البزون.

قبل خمس سنوات كنت أنا ودوكالد ستيوارت قد تركنا مضاربهم وركبنا الخيول واتجهنا نحو الجنوب وضربنا في الصحراء الرملية حتى نصل إلى مضارب آل عيسى.

أما الآن فذهبت إليهم عبر الصحراء نفسها في طرادتي لأن الأراضي كانت مغمورة بمياه الفيضان.



٢٢ ـ سنة ١٩٥٥: سنة الجفاف

كانت سنة ١٩٥٥ من جهة أخرى سنة جفاف، على نقيض سنة ١٩٥٤ تماماً. لأن الثلوج سقطت قليلاً على قمم الجبال في الشمال. ولم يرتفع منسوب نهر دجلة في شهر نيسان فوق مستواه الذي كان عليه في فصل الشتاء. وكان فيضان سنة ١٩٥٤ الاستثنائي قد دمّر محاصيل القمح والشعير



احدى المضايف خلال الفيضان

على نهري الغراف والفرات وفي كل مكان آخر. أمّا في الأهوار فإنه حال دون قيام القرويين بزراعة مناطق زراعة الشلب الغنية الواقعة بين قرية سيكال ومصب نهر العدل. وفي الوقت الذي كانت فيه عشيرة الازيرج التي تقع أراضيها لزراعة الشلب خارج الأهوار، قادرة على بذر بذور الشلب بعد أن يهبط منسوب مياه الفيضان فيحصلوا على غلال وفيرة من جراء زراعة هذه الأرض الشاسعة غير المغمورة بالمياه، لأنها كانت في تلك السنة مغطاة بطبقة كثيفة من الغرين. أما الآن فإن منسوب المياه المنخفض استثنائياً من شأنه أن يمكّن أهالي الهور من تطهير أراضي واسعة أكثر من المعتاد ليزرعوا فيها الشلب ويحصلوا على منتوج كبير، وعلى عكسهم أصيبت عشيرة الأزيرج بأضرار.

الأزيرج عشيرة تزرع الشلب. يبلغ تعدادها أربعة آلاف شخص، يعيشون على ما تنتجه الأرض المنخفضة والممتدة من نهر البطيرة، وهو فرع من نهر دجلة، يترك النهر الرئيسي فوق مدينة العمارة بعشرة أميال. وبعد أن يتفرع إلى ثلاثة مجارٍ مهمة تتبدد مياهه في الأهوار في شمال قرية سيكال.

اجتزنا أراضيها في أواسط شهر نيسان. ورأينا القرى الرخيّة الواحدة بجانب الأخرى ممتدة على طول الساحلين بدون فواصل تقريباً. وهنا في هذا المكان يتميزون بوجود الربعة المستبدة على شكل (T). فأحد الأذرع يستخدم كسكن للعائلة والأخرى مخصصة للضيوف. وتوجد حول بيوت الرؤساء مخازن واسعة ومقفلة مصنوعة من الحصران وعلى سقوفها روث الجواميس الجافة، تضم محاصيل الشلب من حصة الشيخ من السنة السابقة. ويمكننا حساب مقدار الغلال من كثرة عدد هذه المخازن وأحجامها.

ومع ذلك، رأيت القرى نصف خالية. عرفت بأنّ عدداً من الازيرج قد هاجر في فصل الربيع لمساعدة الأهالي الساكنين على ضفاف الغراف في حصد القمح والشعير. وافترضت في البداية، أن الذين ذهبوا هم أكثر

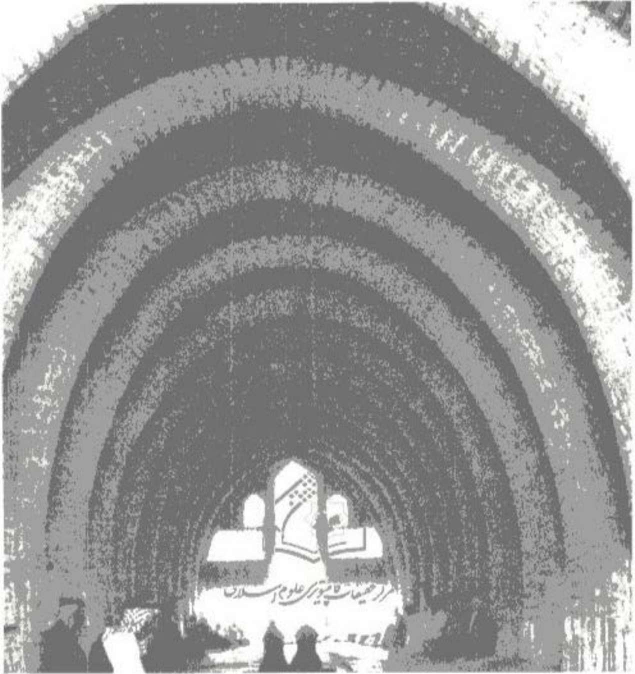
من العدد المعتاد، وبنيت افتراضي هذا على كون السنة رديئة ذات غلال قليلة من الشلب.

وعندما مكثنا بين ظهرانيهم، لاحظنا، على أية حال، أن كثيراً من البيوت الواسعة المبنية بناءً جيداً خالية من السكان.

ولا يحتمل أن يكون أصحابها قد ذهبو إلى الغراف للقيام بأعمال الحصاد لأن مثل هذا العمل، يقوم به الفقراء. وعرفت في الحال أن عدداً قليلاً من الازيرج قد ذهب فعلاً في هذه السنة للقيام بأعمال الحصاد إلاّ أن هذا العدد هو أقل من المعتاد. فسألنا عما حدث لهم. فقيل لنا بأن أعداداً كبيرة منهم قد هاجرت إلى بغداد أو البصرة وتساوى بذلك الغني والفقير.

تلك هي بداية الهجرة في لواء العمارة. وهي تمثّل الهجمة القديمة الطراز التي تستوجب ترك عدد كبير من القرى كلياً أو جزئياً مهجورة، وذلك سعياً وراء الثراء في محل آخر. وتأثر جميع الفلاحين من هذا العمل ولم يقتصر الأمر على الازيرج فقط بل تعدّاه إلى عشيرة البو محمد والسويد وما بقي من أفراد عشيرة السودان.

أما المعدان والعشائر التي تربي الأغنام مثل آل عيسى فلم يتأثروا بهذه الهجرة. وعندما ذهبت إلى العراق لأول مرة في سنة ١٩٥٠، لم تكن حقول النفط في البصرة مفتوحة. ولكن، بحلول سنة ١٩٥٥ كانت هذه الحقول في أقصى انتاجية، والمال يتدفق على هذا البلد. ففي بغداد، كانت أحياء بكاملها تقوّض ويعاد بناؤها من جديد. وكان يجرى تعبيد الطرق الجديدة في كل مكان ويتم إنشاء الجسور. ولهذا السبب كانوا بحاجة ماسة إلى الأيدي العاملة بأعداد كبيرة جداً. فكان هؤلاء الذين تركوا قراهم وجاءوا ليعملوا يحصلون على نقود كثيرة جداً ويرسلونها إلى ذويهم في قراهم فتكون مصدراً للتداول. لذلك هاجر عشرات الألوف من الفلاحين في لواء العمارة مع عوائلهم سعياً وراء المال.



داخل المضيف على نهر الفرات

وفي السابق، عندما كانوا يذهبون إلى الحصاد في الغراف أو في أي مكان آخر، كانوا ينتقلون مع حيواناتهم ويحملون كل ما يملكونه. أما الآن، فقد باعوا قواربهم وجواميسهم وحبوبهم - باعوا في الحقيقة كل شيء إلاّ ما يمكنهم نقله على ظهور الحافلات واللوريات. لأنه لم تعد لهم نيّة للرجوع إلى موطنهم.

إنهم لم يتركوا أراضيهم بسبب الحاجة، لأننا نرى الازيرج الذين شكلوا نسبة عالية في الهجرة أكثر من العشائر الأخرى حصدوا في الحقيقة

محصولاً وفيراً بشكل استثنائي من الشلب في شهر تشرين الثاني. صحيح أنهم قد واجهوا في السنة التالية نقصاً في الغلال نوعاً ما ولكنهم كانوا يملكون الشيء الكثير بحيث يساعدهم على التغلب على المصاعب. هذا علماً بأن الذين بقوا في قراهم لم يعانوا ضنك العيش الحقيقي.

وفي سنة ١٩٥١ كانت المياه ذات منسوب منخفض جداً أيضاً، غير أنني لاحظت فيما بعد أقل ما يمكن من علامات الفقر بين الازيرج والبومحمد. والصحيح هو أن المنسوب المتدني للمياه في سنة ١٩٥٥ هو الذي عجّل في عملية الهجرة بالجملة إلى المدن ولكنه لم يكن السبب لها.

وفي خلال السنوات الأخيرة كانت قد هاجرت أعداد قليلة من الازيرج ومن البومحمد إلى بغداد والبصرة حيث عاشت في أحياء خاصة بها بقيت على تماس مع أقاربها في القرى. واتخذ بعضها مهنة البقالة وانهمك الآخرون في أعمال تجارية صغيرة وحصلوا على الأرباح. وإن حكايات نجاحهم في أعمالهم ما جعلتهم يخسرون أي شيء عند سردها. وبالإضافة إلى ذلك كان الشيء المعروف بشكل عام هو الشخص القادر على العمل يستطيع أن يجد له عملاً في بغداد ويحصل على أجر يومي قدره خمسة دراهم. وهذه وحدها كانت تعني ثروة بالنسبة إلى هؤلاء القرويين.

أما السبب الآخر للهجرة والأكثر أهمية فهو السخط الناجم من التعلّم. فكان كثير من الشباب من أبناء الفلاحين يذهبون إلى المدرسة وأصبحوا نتيجة لذلك في حالة ينتقدون فيها القيم المقبولة من حياة القرية انتقاداً مرّاً. كما أنهم كانوا مستائين من سلطة الشيوخ عليهم فكانوا يتذمرون علانية من ابتزازهم لمحاصيلهم. وكانوا يحلمون بالهرب إلى بغداد، إلى عالم يتيح لهم فرصاً عظيمة للعمل وأجراً كبيراً مع أنواع مختلفة من المغريات. وكان الآباء يحترمون قراءة الكتب لأنهم كانوا أميين لا يجيدون القراءة والكتابة فتأثروا بأبنائهم ولكنهم كانوا عنيدين جداً في الاستجابة لطلباتهم. وعندما رأى الشباب في سنة ١٩٥٥ بأنه لم يبق لهم

سوى قسم قليل من الأرض لزراعته أخذوا عند ذاك يشددون الضغط على الكبار قائلين لهم: «ليش نبقى هنا ونهلك أنفسنا حتى نزيد من محاصيل الشيوخ؟. ليش لازم نشتغل من أجلهم؟ نحن أحرار موش عبيد. يعاملوننا مثل معاملة الكلاب. ما لهم حق على الأراضي. إذا جاءت حكومة صحيحة فإنها تأخذ الأرض منهم وتوزعها علينا. ما راح تصير زراعة هذه السنة. ماكو ماي. إذا بقينا هنا راح نموت من الجوع. إذا رحنا إلى بغداد كلنا راح نشتغل. نصير أغنياء خلال كم شهر. شوف واوي راح إلى بغداد قبل سنتين ما يملك شيء غير دشداشته. هسه، يملك سيارة وبيت. شوف علي وعباس والزائر جاسب كلهم راحوا. غانم راح يبيع جواميسه ويروح أيضاً. هيا يا بوي. إذا بقينا راح نصير الناس الوحيدين اللي الشيوخ يشغلوهم في كل الأعمال. خلينا نروح قبل ما يبعثوا ورانا حتى نبني السد الكبير في أبو فحل».

والشيوخ أنفسهم كانوا في غاية القلق من هذه الهجرة الجماعية لرجال العشائر لأنها تهددهم بعدم بقاء أي فرد حتى يعمل في حقولهم. ثم إن سلطتهم أصبحت ضعيفة على أولئك الذين بقوا وقد تزول عاجلاً. وكان الفلاحون، وعلى الأخص، غير المرتاحين من شيوخ الازيرج قبل مغادرتهم إلى بغداد يتجمهرون أمام المضيف ويرددون الاهازيج والهوسات قائلين: «حمّال ولا أنكال».

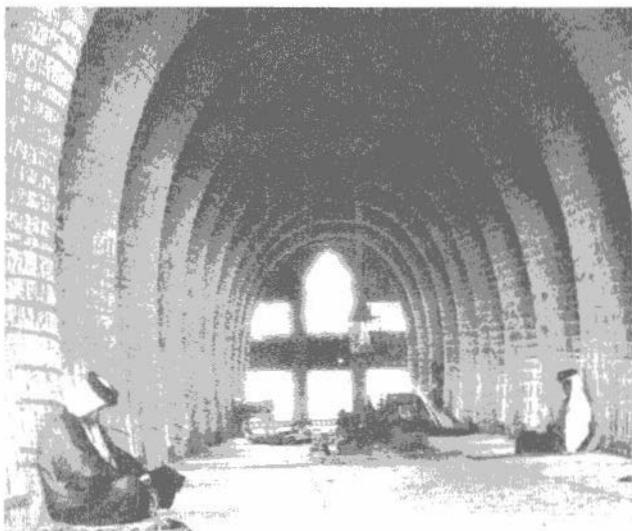
وفي أحوال كثيرة، يجب أن يلوم الشيوخ أنفسهم لأنهم كانوا متعجرفين بشكل لا يطاق.

وفي سنة ١٩٥٣ ضرب أحد عبيد الشيخ مجيد الخليفة أخا رئيس العشيرة التي تمتهن تربية الأغنام في قرية العگار. فهجم الفلاحون الغاضبون على العبد وكادوا أن يفتكوا به لأن (القالط) أي رئيس العشيرة هذا وأسرته كانوا محترمين جداً. فأرسل الشيخ مجيد الخليفة ممثله فجلد عدداً من كبار الرجال من الفلاحين. ونتيجة لهذا العمل، غادر معظم

الشفانيا قرية العگار وذهبوا إلى سيگال. وعندما سمع الشيخ بهذا الخبر صاح بغضب علانية «الكلاب راحوا. راح اشوف غير كلاب واخليهم في مكانهم».

ولكن، بحلول شهر تموز سنة ١٩٥٥ لم يتمكن من الحصول على مبتغاه بسهولة. وعندما سألته عما سيفعله إن غادر نصف هؤلاء الفلاحين. فكّر مليّاً ثم أجاب قائلاً كمن آمن بالقضاء والقدر «لا. ما اعتقد راح يرحل بقدر هذا العدد». ثم سألته عما سيفعله إن ترك عدد كبير منهم قراهم فقال بأنه سيتخلى عن زراعة الشلب ويركز عمله على زراعة القمح والشعير بآلات زراعية.

إن الأرض ما تهمه وليس عشيرته. وتذكرت حينما كان يتجرع الألم



داخل المضيف على نهر الفرات

في عزاء ابنه ويقول: «أرضي! هسّه، ولما اموت. شراح يجري لأرضي؟». فعرفت عند ذاك وأنا أشعر بالأسى والحزن العميق أنه يضع مصلحة أرضه فوق مصلحة عشيرته.

اختفت العلائق القديمة التي كانت سائدة بين الشيخ وأبناء عشيرته في عشيرتي البو محمد والازيرج ولهذا السبب كان كلاهما فقيرتين. أما الرابطة بين العشائر التي تربي الأغنام فلا زالت قائمة.

حثّ الشيخ مزيد آل عيسى عشيرته على زراعة الشعير طوال سنوات في البر الرئيسي، غير أن الظروف كانت غير ملائمة. فأحياناً كانت المياه كثيرة جداً وأحياناً أخرى شحيحة جداً. وعملهم هذا كان يعتبر مجازفة بالنسبة للعشيرة. غير أنّ الشيخ مزيد أغرق نفسه بالدين للحكومة. وعلى أية حال، لما رأت العشيرة حالته هذه وأنه في عسر شديد جمعت له المال من بين أفرادها ودفعت ديونه.

ومثال آخر أذكره هنا عن تصرفات بعض الشيوخ. فمثلاً الشيخ محسن بن بدر من البوصالح

طلب مني صباح أحد الأيام بأن أصطحبه بطرادتي إلى مركز اللواء الذي يبعد مقدار ساعتين ويقع شمال الغراف. ولما نزلنا إلى البر، توجه نحو الدائرة حيث كان المدير يجري محاكمة لأحد الأشخاص عن إحدى القضايا. وبعد أن حيّا المدير إتجه صوب السجين وقال له بحدّة وعصبية: «روح واركب الطرادة برّة» ثم التفت صوب المدير وقال له «لا تشغل نفسك معه. هذا ينتسب إلى عشيرتي. أنا أعالج الموضوع» ثم جلس وبدأ يتحدث بشكل مهذب قبل أن يقول لهم سامحوني على كلامي هذا.

وبحلول سنة ١٩٥٦ انتهت أعمال الهجرة الجماعية إلى المدن. غير أن الأسر استمرت في الرحيل إلى بغداد والبصرة على الرغم من أنّ الأخبار التي كانت تردهم غير مشجعة. ولهذا عاد قليل منهم إلى قراهم بعد أن تحرروا من الوهم.

كان ربع الدينار في ذلك الوقت يعني أجراً ممتازاً، غير أنهم اصطدموا بالواقع لما ذهبوا إلى المدينة ووجدوا هذا المبلغ بالكاد يكفي لمعيشة الرجل وأسرته مهما اقتصد في عيشه. وفضلاً عن ذلك، قد يتوقف العمل في الأجواء الرديئة لمدة طويلة، فعندها لا يتقاضى أي أجر طوال مدة بقائه عاطلاً عن العمل. وأن كل شيء في المدينة يتطلب المال، حتى الماء ولهذا السبب قال بعضهم:

«بس شنو الغاية من روحتنا للمدن؟ فالرجل اللي يبقى في بيته في القرية ويعمل بجد ونشاط في حقل الشلب الذي يزرعه يمكن أن يدر عليه حاصلاً يكفيه لطعامه وطعام أسرته لمدة سنة من بعد أن يأخذ الشيخ حصته ويبقى عنده فضله (٣٥) دينار». وهذا المبلغ له قيمته. فهو يعادل ما يصرفه يومياً طوال السنة بمعدل مائة فلس أو يعادل أجرة عمل ستة أشهر فقط. وفي المواسم الضعيفة يمكنه الذهاب للحصاد مع أسرته ويحصل على الحبوب بحيث تمكّنه من بيع كثير من الشلب. وبإمكانه الاحتفاظ بالجواميس ليحصل منها على الحليب واللبن ويربي الدجاج ليحصل منها على البيض واللحم. هذا بالإضافة إلى أنه يحصل على الوقود ومواد البناء وعلف الحيوان بدون أن ينفق أي شيء. كما أن هناك السمك في الأنهار والبحيرات ويعثر على الطيور المائية في الأهوار. وعلاوة على ذلك، فإن هناك فرقاً قليلاً في هذه القرى بين معيشة الغني والفقير.

والشيخ يعيش بالأسلوب نفسه الذي يعيشه أفراد عشيرته ولكن بشكل أفضل.

أما في بغداد والبصرة فيكون التباين كبيراً وشاملاً. فالأحياء الفقيرة المجاورة للفنادق الغالية والدور العصرية الحديثة والتي تشيّد على شكل أكواخ وصرائف تضم أنواعاً مختلفة من النفايات تكون والحالة هذه أكثر قذارة من أية قرية من قراهم لأنه لا تتيسر فسحة خالية بالقرب من هذه الأكواخ والصرائف.

من السهل أن يترك المرء الحياة العشائرية ويسكن في المدينة. ولكن من المستحيل له تقريباً العودة إلى منطقة سكن عشيرته إذا ما كان عاطلاً عن العمل.

كنت في سنة ١٩٣٦ في مراكش. وزرت حيّاً كبيراً يقع في ضواحي الدار البيضاء والمعروف لدى الفرنسيين باسم (بيدونفيلا Bidonville) حيث البربر المعوزون يعيشون فيها في أكواخ مبنية من تنكات فارغة. وكانوا قد جائوا في الأصل إلى الدار البيضاء من قراهم الجبلية خلال سنوات الازدهار الاقتصادي من بعد الحرب العالمية الأولى حينما كان الطلب شديداً على الأيدي العاملة ـ وقد قلّ في الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ بشكل ملحوظ. ورأيت بأم عيني في ذلك الوقت الذي زرت فيه هذه المنطقة هؤلاء البربر يكنسون الأرض حول بالوعة بحثاً عن فتات الطعام ليأكلوها حتى يبقوا أحياء لأنهم كانوا يموتون جوعاً بالعشرات.

وفي العراق، ترك الكثيرون من المهاجرين قراهم هرباً من ظلم وطغيان الشيوخ ولكنهم جوبهوا باعتداءات الشرطة في بغداد والبصرة.

وهؤلاء، بعد أن أقاموا صرائفهم من الحصران بين أكواخ الآخرين من أفراد عشيرتهم من غير ترتيب ولا تنظيم على أرض خالية داخل المدينة يشعرون كأنهم في بيوتهم أو في قراهم، وانصرفوا إلى مزاولة أعمالهم. غير أن الشرطة أخذت تضايقهم وتجبرهم على إخلاء المنطقة حسب الأوامر المعطاة لهم بهذا الخصوص.

«وين لازم نروح؟».

«أي مكان. بس لا تبقون هنا. روحوا إلى قراكم إذا ما تحبون العيش هنا. هيّا. اهدموا ذلك البيت. بسرعة! نحن مشغولين».

وهكذا ينتقلون من مكان إلى آخر ويبنون صرائفهم وما يكادون يستقرون حتى تأتيهم الشرطة وترحلهم. أما إذا استقروا في ضواحي المدينة، فعليهم أن يصرفوا المال الذي يحصلون عليه بصعوبة كأجرة

للسيارات لتنقلهم من بيوتهم إلى أماكن عملهم وبالعكس. ثم شعرت السلطات بخطر هذه الهجرة الهائلة فاهتمت بالأمر حتى توقفها أو تحد منها. فشجعت الشرطة على ملاحقتهم وإيذاهم والتحرش بهم.

وعلى هذا الأساس اعتبرت الشرطة هذا العمل إزاء هؤلاء السكان من الريف عملاً قانونياً مشروعاً. «شوّفني أوراق تسريحك. ما عندك أوراق. لازم تجي وياي لمركز الشرطة».

وفي العراق، من المفروض أن يخدم كل فرد إلزامياً مدة سنتين في الجيش. وكان عدد قليل جداً من النازحين عن قراهم قد أدى الخدمة الإلزامية. ففي إحدى المرات، بينما كنت أقف مع الشيخ فالح إذ بنقيب في الجيش يأتي إلى المضيف ومعه عريف وجنديان، يحملون معهم أضابير كثيرة. وكان الضابط بدين الجسم وبعمر متوسط.

أُشعر الشيخ فالح بقدوم الضابط وجماعته وطلبوا منه إحضار المكلفين للخدمة العسكرية. كان الوقت في شهر تموز، والجو حار جداً. فقدموا إلى النقيب ومن معه الشربت ثم الحامض. وكانت بدلة الضابط الرسمية ضيّقة وملتصقة بجسمه بحيث لا يستطيع الجلوس على الأرض. لذلك أعدّوا له كرسياً ليجلس عليه ووضعوا أمامه منضدة. ثم جاءوا بالمكلفين للخدمة الإلزامية وعددهم (١٦) شاباً. وجلس آباؤهم والزوار حول الجدار. وهؤلاء من مجموع (٣٢) مكلفاً.

كان اثنان من المكلفين في سن الخدمة وأما البقية فهم أحداث دون سن المكلفية.

نظر النقيب في الأضابير ثم مسح وجهه الذي يتصبب عرقاً ثم وضع النظارات، وقرأ الأسماء. «علوان بن شنطة». لم يجب أحد. ثم كرر الاسم مرة أخرى. فردّ عليه أحد الرجال الجالسين حول الجدار قائلاً: «راح إلى البصرة مع عائلته في السنة الماضية». ثم قلّب القوائم ودوّن ملاحظة. ثم نادى:

«چليب بن حسن».

«مات في العام الماضي» جاء الرد سريعاً.

«مزيد بن علي». تقدّم صبي إلى الأمام وعمره (١٢) سنة.

«هل أنت مزيد بن علي؟».

«لا» أجاب الصبي بسرعة. ثم قال من بعد وكزة على ظهره «نعم».

«هل أنت مزيد بن علي؟» كرر النقيب السؤال وهو في ريبة من ذلك ثم بدأ ينظر في قائمة الأسماء.

«نعم أنا مزيد بن ....إبن علي» قال الصبي بشيء من التأكيد.

«أنت مسجل بقائمتي بعمر (١٨) سنة. ارفع قميصك فوق يا ولد».

وبعد أن مسح وجهه بعصبية أكثر، التفت صوب الشيخ فالح وقال له:

«لازم اكو في خطأ. هذا لا يمكن أن يكون مزيد بن علي».

أجاب فالح بلطف قائلاً: «هذوله الناس يعيشون بضنك. نمو الأولاد يكون متأخر».

وهكذا، دوّن النقيب ملاحظة أخرى في القائمة وقال: «قل له بأن يأتي في العام القادم».

وبعد تناول غداء فاخر. غادر النقيب ومن معه وبصحبتهم مجندان اثنان فقط وهما الوحيدان المنتخبان من ذلك الجمع. وهذا يدلّ على أن البقية من مجموع (٣٢) شخصاً والمدونة أسماؤهم في الاضبارة إمّا قد ماتوا أو انتقلوا إلى مكان آخر أو أنهم لا يزالون صغار السن جداً.

كان هذا المشهد جيداً والشيخ يؤازر الفلاحين. ولكن المسألة تختلف تماماً عن هذا المشهد إذا ما طلبت الشرطة من الشخص إبراز هويته أو دفتر خدمته العسكرية في مركز الشرطة في بغداد، وغرضهم من ذلك تخويفه ومضايقته. وهي على استعداد لاستخدام العنف ضدهم حتى يبتزوا منهم النقود.

٢٣ ـ البربر والمضايف

غادرنا قرى الازيرج في الأسبوع الأخير من شهر نيسان وأخذنا نقترب من قرية سيگال، وبإمكاننا أن نرى مضيف عبد الله عبر البحيرة. وكنا قد هيّجنا عدداً من البط الرخامي اللون الذي جاء في الربيع إلى هذا المكان ليضع بيوضه فطارت فجأة في ذلك الصباح. وقد اندهشت كثيراً من الأعداد الكبيرة من طيور بوشار المائية Bochard لأنني كنت أتوقع أنها غادرت هذا المكان الآن.

أصرّ ياسين على أن نسير بمحاذاة منابت القصب خوفاً من حدوث زوبعة مفاجئة كالتي رفعت قبل بضعة أيام الحصران من فوق عدد من الدور في القرية التي كنا قد مكثنا فيها.

وقبل سنة، وفي هذا الموسم، كنا محصورين من جراء الزوبعة في نفس هذا المكان وبقينا ننتظر أكثر من ساعتين وقد لفّنا ضباب أحمر غريب من نوعه.

وفي أماكن بعيدة من البحيرة كان البربر يصطادون السمك وهم على القوارب. وبإمكاننا سماع ضربات التنك والمرادي في المياه وهم يسوقون السمك نحو شبكاتهم. والمعدان يحتقرون البربر بشكل فظيع، ولولا ذلك لأكلوا معهم. كما أنهم يحتقرون الصابئة أكثر بكثير من احتقارهم للبربر، لأنهم يعتبرونهم في الدرجة السفلى من المقياس الاجتماعي، مع العلم أنه



البربر يصطادون السمك بالشبك بالقرب من أم النبي

لم يذكر لي أي فرد من العشائر من أن البربر هم من أصل مغاير. والتحامل عليهم إنما هو بسبب مهنتهم. ويبدو لأول وهلة أن هذا التحامل غير منطقي ولا مبرر له طالما هم أنفسهم يصطادون السمك.

فالبربر يصطادون السمك بالشبكة لغرض البيع، بينما يصطاد المعدان السمك بالرماح لغرض الطعام.

صحيح أن المعدان بدأوا في السنوات الأخيرة ببيع السمك فانحرفوا بعملهم هذا عن عاداتهم السابقة التي تقضي بعدم بيعه لكنهم يبيعون اللبن والحليب. أما الآن فقد أجبرت الظروف البعض منهم على بيع السمك والحليب معاً. فمثلاً تبيع نساء الفريجات البدويات الحليب واللبن والزبدة أو القير في قلعة صالح والمجر حينما تنصب خيامهم بالقرب من هاتين المدينتين.

فالتحامل على البربر في الأصل كان بسبب بيعهم السمك، لكنه أصبح الآن يتماشى مع أساليبهم في صيد السمك. والنظر يا سيدي هو «لعنة الله على هذا العمل، الرجل الطيب قد يبيع ما عنده من الدارج ولكنه لا يزال لا يرميها إذا ما كانت تحض البيض».

ويتواجد البربر بين عشيرة الفرطوس والشغابنا أو الفريجات. ولكن

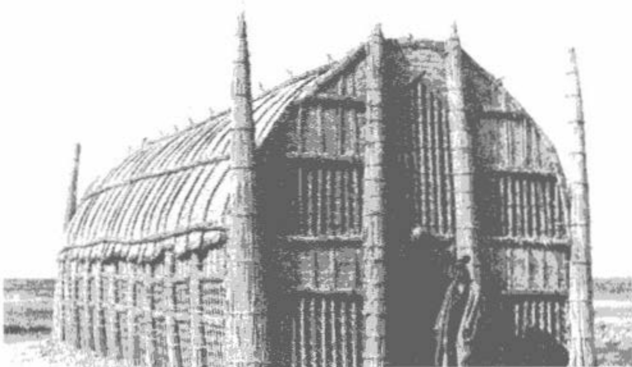
هناك الكثير منهم بين عشيرة البومحمد. وهناك عدد أكبر بين الازيرج. كما يتواجد آخرون منهم بين عشيرة بني أسد في الكبيش وهم يصيدون السمك على امتداد الحافة الغربية للأهوار. فينصبون الخيام ويبقون عدة أشهر فوق جزيرة صغيرة بالقرب من قرية جاسم الفارس.

يُعرف تاجر السمك باسم(صفّاط). الذي يشتري أسماكه ثم يملحها وينقلها إلى البصرة. ويستخدم البربر الشبكة السينة Siene net (شبكة ضخمة) غير أنني شاهدتهم أيضاً يصطادون بالشبكات الطافية في الأنهر وعلى امتداد شبكات ثابتة متصلة بأوتاد من القصب تثبت في الأراضي المغمورة بمياه الفيضان خارج الأهوار.

ومن حين لآخر يستخدم صبيان المجر الكبير الشبكات فيلقونها على سواحل الأنهر بالقرب من المدن. ولم أر مثل هذه الشبكات في أي مكان آخر إلاّ في البصرة.

ويضع الفلاحون من السواعد في الأهوار الشرقية أحياناً قطعة من الشبكة عبر قنوات سريعة الجريان فراقبت في إحدى المرات شخصين منهم يغمرهما الماء إلى الفخذ ومعهما شبكة على شكل نقالة ويحجمها. أما القرويون الذين يعيشون على حافة الأنهر فينصبون في أغلب الأحيان قطعاً صغيرة من الحصران في المياه تحت بيوتهم، حتى يؤمنوا الوقاية من التيار ثم ينصبون عدداً من القصب أو البردي مباشرة مع المجرى. وعندما تأتي السمكة تحرّك القصب وبعملها هذا تكشف نفسها للصياد الذي ينتظر وبيده رمح الصيد.

وفي فصل الربيع، وقبل ارتفاع منسوب المياه، يتجمع المعدان على شكل جماعات، كل جماعة بفاصل مؤلفة من (٤٠ ـ ٥٠) زورقاً. ثم يجوبون الهور صعوداً ونزولاً وهم على خط واحد بفاصل مقداره (٤ ـ ٥) ياردات عن بعضهم البعض، وترى الرماح بأيديهم وهم على أتم استعداد لصيد السمك حالما يصبح بجانب الزورق.



احدى المضايف بين آل حسن

وفي فصل الصيف يصطاد السمك بالرماح ليلاً وبأيديهم المشاعل من القصب. غير أن صيده بطريقة استخدام السم بالداثوره (نوع من النبات له خاصية التخدير) يعطي ناتجاً أكثر.

وبينما كنا نجذف باتجاه عبد الله، قلت لرفاقي بأنني شاهدت مرة سمكة طولها خمسة أقدام، اصطيدت في نهر دجلة بالقرب من مدينة كركوك. ثم سألتهم عن مقدار طول سمكة القطان والبني في الأهوار.

«نصيدها وهي بطول ذراعي» قال ياسين لا ربما كانت تلك السمكة التي رأيتها من نوع شبوط، فهي تعيش في المياه الجارية وبعضها بضعف طول السمكة التي ذكرتها، وهناك سمك آخر كبير أيضاً نسمّيها نحن جصّان. وهي تشبه سمكة القطان الكبيرة ونجدها تحت الجزر الطافية. نسبح تحت المياه ونمسكها بأيدينا. نربط أحد ساقي «الرجل بالحبل. ويمسك طرف الحبل الآخر رجل في الزورق. وأخطأ في إحدى المرات أحدهم بالسابح وطعنه في بطنه ظناً منه إنها سمكة ثم أراد رفع الرمح بدفع

الجسم إلى خارج الماء. وإذا أردنا إخراج الرمح من جسمه علينا أن نزيل الشوكات من الرمح بقطعها بواسطة الخناجر إلا أن هذه العملية خطيرة جداً ومخيفة لأن المصاب لا يبقى ساكناً طوال هذه العملية».

الشبوط سمك نهري. وبما أن الجصان يشبه القطان فإنه نوع آخر من السمك النهري. ثم أبدى ياسين ملاحظة فقال: «انشاء الله. هذه راح تشبه مثل سنة أم البنى. هسه الماي قليل أقل مما كان قبل. بيومين صدت كثير وحصلت على أربعة دنانير. والله صعد حظي إذا ما يتدخل الشيخ مجيد».

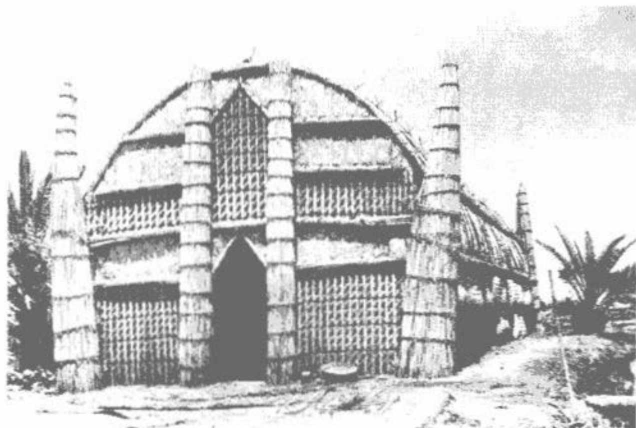
أيّد حسن أقواله هذه وقال: «نعم. رحت إلى (أم البنى) مع عمي قبل ما سدّ مجيد البحيرة بوجه كل الناس بيومين إلاّ بوجه البربر. شفتك صاحب هناك مع الفرطوس» ثم قال لي «كلكم خيّمتم مع البربر. وبهذاك الوقت ما كنت أعرفك. لكن. أعطيت إلي بعض رفاقي أدوية للمعدة».

تذكرت المناسبة جيداً. كان ذلك في سنة ١٩٥١، أي في سنتي الأولى من زيارة الأهوار.

كنا قد وصلنا إلى قرية الگار أنا وثلاثة أشخاص من الفرطوس في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني ووجدنا القرية مهجورة فعلاً. كانت المياه واطئة بشكل استثنائي في تلك السنة، ولكن كانت قد ارتفعت في الأيام القليلة الأخيرة بسبب سقوط الأمطار في الشمال فهددت باكتساح حقول الشلب التي كانت محصودة. وكان معظم القرويين بعيدين عن القرية، خرجوا لإنقاذ محاصيلهم وبذلوا جهداً كبيراً في سبيل ذلك. أما الرجال الآخرون والصبيان فقد ذهبوا لصيد السمك بالرماح في (أم البنى) حيث كان الصيد بشكل استثنائي فذهبنا نحن أيضاً إلى محل تواجدهم.

لقد أحدث مرور عدد كبير من القوارب والزوارق أثراً واسعاً من خلال قلب منابت القصب، وكانت بعض سيقان القصب الساقطة على الطين والمداسة بسمك رسغ يدي. وكانت المياه ضحلة، وكنا أحياناً نلاقي

صعوبة في تسيير الزورق. وقد صادفنا قاربين بطريق الصدفة محملين بسمك كثير. وكان النوتية البالغ عددهم ستة يسحبون القارب بمشقة على امتداد الساحل. وسمعت من بعد ذلك، أن التجار كانوا يعطون ديناراً واحداً يومياً لكل فرد من نوتية القارب بسبب عملهم الشاق والصعب.



احدى المضايف بين آل جُبير

وبعد أن غادرنا قرية الگار بثلاث ساعات، وصلنا إلى فسحة صغيرة خالية، نصب فيها التجار خيامهم تحت سقيفة من الحصران. ويدعى التاجر باسم الملأجبر ومعه شخصان آخران يشترون السمك لإرساله إلى أسواق بغداد. وكانوا قد أمضوا في هذا المكان ستة أيام وطلبوا منا أن نمضي الليل معهم لأنه لا يمكننا الوصول إلى (أم البنى) قبل حلول الظلام. وكان يدفع ثلاثة دنانير عن كل مائة سمكة بصرف النظر عن حجمها. وكان يشتريها بالألوف. أما الآن فقد انخفض العدد كثيراً.

وبعد أن جمعوا كميات كبيرة بدأوا بوضع الثلج فوقها حتى يرسلوها إلى بغداد. نمنا بجانب سقيفة فوق كومة من القصب أبقتنا بعيدين عن

الماء. وكان البعوض شيئاً مؤذياً لا يمكن احتماله. أما الجو فكان بارداً لذلك أحطت جسمي بالبطانية. ونصبت الجماعات الأخرى التي كانت متوجهة إلى (أم البنى) خيامها بجوارنا ثم جلست حول النار وبدأت بالغناء حتى ساعة متأخرة من الليل. وشاهدت مرور ثلاثة أبلام في جوف الظلام وأخذ التاجر يتفحص حمولتها بواسطة مشعل من القصب.

وفي الصباح واصلنا سيرنا إلى (أم البنى) فأمضينا ثلاث ساعات حتى وصلناها. وأم البنى عبارة عن بحيرة بطول ميلين وبعرض نصف ميل، محاطة بمنابت القصب، يصعب اجتيازها. ولا أظن أنّ أحداً قد زارها.

وجدنا البربر قد نصبوا خيامهم فوق أرصفة من القصب المتساقط فوق فتحة الأثر، ونشروا شبكاتهم الاحتياطية تحت أشعة الشمس لكي تجف تحت حراسة صبي وصبيين. كان معهم (١٥) قارباً، خرجوا جميعاً إلى الصيد في البحيرة. أما نحن فجذفنا زورقنا بجانبهم حتى نراقبهم عن كثب ونتفرج على أعمالهم.

رأيت الجذافين يدخلون إلى الماء ويخرجون منه في كل الأوقات وهم عراة في معظم حالات عملهم. وبعد أن استعملوا الشبكات السينة وشكّلوا محيطاً بمقدار (٤٠) ياردا تقريباً، بدأوا يسوقون عدداً كبيراً من الأسماك أمامهم، كلها من النوع البنى، معدل وزن الواحدة أربعة أرطال.

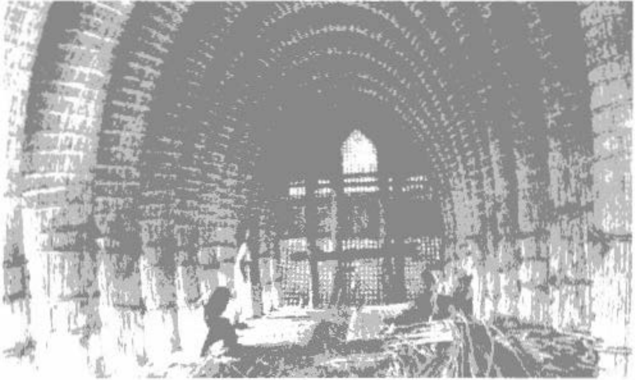
قال لنا أحد الرجال المسنين، وقد وخط الشيب رأسه، بأن قاربه كان أول قارب يصل إلى البحيرة «كل حياتي وأنا أصطاد السمك. بس ما شفت بحياتي مثل هل شيء. أول سوقنا شفنا أمامنا مقدار (٩٠٠) سمكة تقريباً. صحيح ما كنت أظن أن القارب يسع كل هذا العدد. وهسه السمك قليل». كان عدد القوارب ما يقرب من (٢٠٠) قارب، تعود إلى الفرطوس والشغانبا والفريجات والبومحمد. كلهم منهمكون في البحث عن السمك حول حافات البحيرة. وكان في كل قارب شخصان، أحدهما يجذف

والآخر يقف في مقدمة القارب يغرز رمحه باستمرار في الأعشاب.

يعتبر المعدان أنفسهم محظوظين عادة إذا صادوا (١٢) سمكة في اليوم بأسلوبهم الاعتيادي. أما إذا استعملوا طريقة التسميم فالعدد يكون أكثر بطبيعة الحال.

وهنا على أية حال، كانوا يصيدون سمكة واحدة بعد كل (٣ ـ ٤) وخزات بالرمح. كان معظم هذه الأسماك من نوع القطان.

التحقنا بجماعة من أبناء الفرطوس، كانوا إذا ما هيجتهم يندفعون بتهور فيغطسون رماحهم في الماء ثم يرفعونها وفيها سمكة فيقذفونها داخل القارب وهم يصيحون بأعلى صوتهم «السمك بكثرة متراص واحد فوق الأخر. ما نخطىء في وخزات الرمح».



احدى المضايف على نهر الفرات خلال التشييد

كان السمك قد تجمّع في بقعة واحدة لفترة من الزمن. الصائدون متقاربون بحيث يرى كل واحد منهم مقدار ما يصيده رفيقه. فتبدأ عند ذاك المنافسة. فترى المجذّف يحثّ حامل الرمح على الإسراع في الصيد.

واقترب في هذه الأثناء بعض البربر منهم. فترك الصيادون من الفرطوس حافة البحيرة واندفعوا نحوهم وهم يصرخون في وجوههم ويسيّرون زوارقهم فوق شبكاتهم السينة ويطعنون السمك من داخل الشبكة. أما البربر فإنهم استاءوا من هذا العمل واحتجوا. لكن، لم يعبأ بهم رجال العشائر فبدأوا يسخرون منهم ويضحكون عليهم.

لا بدّ أن البعض منهم اشتكى لدى الشيخ مجيد الخليفة لأنه سدّ البحيرة بعد يومين من هذا الحادث بوجه المعدان وسمح للبربر فقط بالصيد.

ومن سيگال واصلنا سيرنا بالطرادة متجهين صوب قرية العويدية، ومكثنا بضعة أيام بضيافة جاسم الفارس.

تكون الأراضي الواقعة بين حافة الهور الغربية ونهر الفرات مغمورة بمياه الفيضان إلى عمق أربعة أقدام على الأقل. غير أنه، في سنة ١٩٥٥، وبسبب الجفاف، وجب علينا أن نذهب إلى الجنوب حتى نصل نهر الفرات تقريباً لكي نجد مياهاً كافية لتعوم فيها الطرادة خارج الأهوار.

مكثنا في حمّار، في قرية تسمى (البوشامه)، تقع بين أشجار النخيل الباسقة في الغرّاف الأسفل. وتعيش أفخاذ أخرى من نفس العشيرة في الأهوار كمعدان رحّل ومررنا بمجموعة منهم وهم يهاجرون إلى الأراضي المزروعة بالقمح حتى ترعى جواميسهم بقايا سيقان القمح.

وفي الغراف مكثنا أيضاً مع العميرة. كان قسم منهم يسكن في قرية (مبرد) وفي قرى المعدان الأخرى ويحصلون على المال من بيع حمولات قواربهم من القصب اليابس في مدينة سوق الشيوخ. ويفعل الفرطوس الذين يجاورونهم نفس الشيء ويذهبون أكثر المرات إلى سوق الشيوخ مع أحمالهم من الحصران.

وفي شهر مايس، صادفنا جواً مشمساً، تبعث الشمس بأشعتها

البراقة، غير أنّ الجو كان في بعض الأحيان متلبداً بالغيوم ويدوم عدة أيام.



مدخل احدى المضايف على نهر الفرات من الخارج

كما صادفنا في طريقنا عدة مرات سقوط مطر شديد مصحوب برعد وبرق.

وبشكل عام، تهب الرياح العاتية من الشمال والغرب، تحمل معها الغبار، فيصبح الجو مكفهراً لكنه بارد ومريح. لأنه، بدون هذه الرياح، يكون النهار حاراً رطباً جداً.

أمضينا الشهر بين آل جويبر وآل حسن وبقية عشائر المنتفك الأخرى، متنقلين على امتداد نهر الفرات.

كنا نقوم دوماً بنزهات مع مجرى القنوات المشجرة بأشجار

الصفصاف. وكثيراً ما كنا نصل إلى حافات الأهوار لنبقى في المضايف التي توجه الدعوة إلينا. وكنا في كل هذه الأوقات في أراضي مزروعة بالنخيل تنمو على شكل صفوف مكتظة فوق كل أرض لا تغمرها مياه الفيضان سنوياً وحتى في الجزر الصغيرة بين منابت البردي. كما كانت أشجار النخيل تغطي أيضاً خط الجزر إلى الجنوب بحيث تظهر معتمة إزاء مياه الهور البراقة، مثل هور السنّاف.

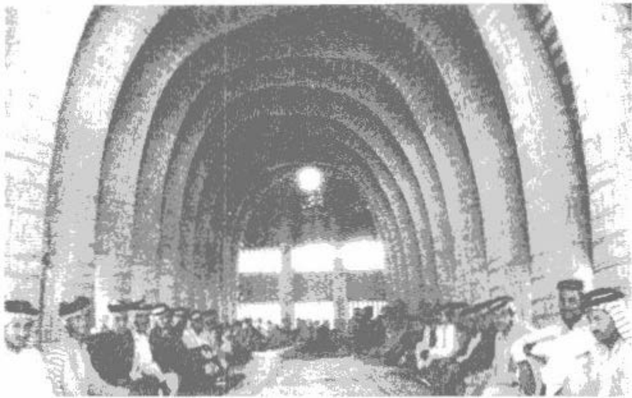
والعلامات الوحيدة للكارثة التي حلّت بهذه العشائر في السنة الماضية ما تركته مياه الفيضان من آثار واضحة يمكن رؤيتها بجلاء على جذوع النخيل وعلى جدران المضايف.

وعلى نهر دجلة، كانت بساتين النخيل القليلة العدد، متشابكة مع الأحراش، وكنا نضطر أن نوسع طريقنا من خلالها وذلك عندما كنا نصطاد ذكور الخنازير. ولكن هنا في هذا المكان كانوا يعتنون بالأشجار ويقطعون الأغصان الواطئة حتى يتمكنوا من حراثة الأرض.

زرنا الجزر الواقعة على امتداد حافة هور الحمّار إلى الشمال وهي منفصلة عن الأهوار بواسطة مياه مكشوفة ثم تغطي أوراق نباتات الزنبق المائية وعدد لا يحصى من أنواع الازهار ذات اللون الأصفر البراق والأزهار البيضاء سطح هذه المياه في نهاية الموسم.

وفي شهر أيلول، كنت قد شاهدت الجواميس ترعى وقد غطست في المياه إلى حد بطنها بين هذه النباتات المائية ومدّت رؤوسها تحت المياه تقتلع أغصانها المتدلية. وبدت هذه الجواميس للناظر من مسافة بعيدة كأنها قطيع من الغنم تقتات في مروج مليئة بالأزهار المختلفة الألوان. وفي الخريف، هنالك في الأهوار أنواع أخرى من الزنابق المائية بعضها بيضاء وبعضها الآخر خبازية اللون.

لا تسكن عشائر المنتفك في القرى بل في الأراضي الخاصة بها على



موقد القهوة

شكل متباعد. هي حسب التقاليد العربية كريمة جداً، لذلك تجد أعداداً كبيرة من المضايف تضاهي في عددها عدد الدور المستخدمة للسكن وهي قائمة بين أشجار النخيل. وبين الكثير من السكان حصوناً لهم من الطين بجانب دورهم وهي عبارة عن كوة صغيرة الحجم. والسبب هو أنهم مولعون جداً بالحرب ولا ينسون عداوة الدم. لذلك، يحمل كل واحد منهم، سواء كان كبيراً أم صغيراً خنجراً ويملك معظمهم البنادق مع عتاد كثير. وهم يطلقون النار بكثرة حتى الفجر تقريباً في حفلات الأعراس، وما أكثرها في تلك الأيام. إذ لا تمضي ليلة إلاّ وتكون فيها حفلة عرس.

كنا في بعض الأحيان نضع حاجياتنا في الصريفة قبل أن يرشدونا إلى المضيف. والصريفة عبارة عن بناء صغير مثلث الشكل، جدرانها من الأوتاد، كأنها عريش، وسقفها المنحدر يُغطى بالحصران ويستند على دعامتين من القصب. تكون الأعمدة المستعملة في الأطراف ـ بين إهالي المنتفك ـ من جذوع النخيل الصغيرة عادة. ولكن في الأهوار فإنها من حزم القصب حيث يفضّل التجار هذا النوع من البناء ليستخدموه كمخازن.

أما المدخل فيكون من جانب البناء. وكنت أشعر دوماً بفرح وسرور حينما ألجأ إلى الصرائف لأستريح لفترة من الزمن هرباً من طريقة الحياة الشائعة في المضيف.

بعد سنوات كثيرة من العيش مع العرب وجدت أن عدم الانفراد وللعزلة شيء يدخل السأم في النفوس، وكنت كثيراً ما أشعر بالتعب المضني من بعد معالجة عدد كبير من المرضى منذ الصباح وخاصة حينما يبدأ الجو يزداد حماوة، فأجد متعة وراحة حينما ألقي بنفسي في الصريفة.

وحينما يشعر رفاقي بالتعب يتوجهون إلى المضيف. فكانوا ينهضون من أماكنهم حالما يشربون العدد المألوف من فناجين القهوة ويذهبون إلى الطرف الآخر من المضيف فيلفون أنفسهم بالعباءة وينامون. وعندما يجلبون الطعام، يوقظون هؤلاء النيام حتى يأكلوا.

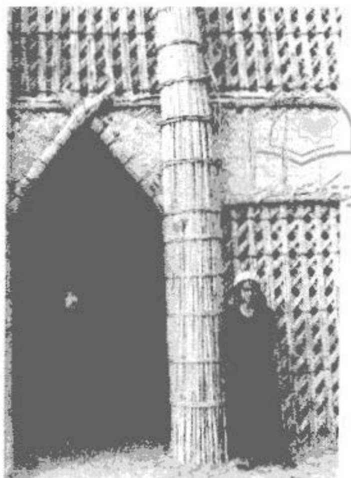
كانت الحياة على هذا النمط. وكنت أشعر بالضجر حينما أقوم بما يقومون به. ومن أمنياتي الكبيرة أن أجد نفسي في مكان منعزل. لذلك كنت ألجأ إلى الصريفة ويتبعني أحياناً رفاقي وشخصان أو ثلاثة آخرين وننزوي في إحدى أركانها. أما أنا فأقرأ كتاباً أو تأخذني سنة من النوم.

والمضايف على نهر دجلة، تكون مبنية حسب العرف إمّا بتسعة أقواس أو أحد عشر قوساً. أما المضايف على نهر الفرات فلها أكثر من هذا العدد من الأقواس.

وأكبر المضايف التي رأيتها كان بطول (٨٤) قدماً وبعرض (١٥) وارتفاع (١٥) قدماً على الرغم من أنه مقام على خمسة عشر قوساً. وأكثر المضايف فيها (١٧) قوساً. ورأيت أحد المضايف يتألف من (١٩) قوساً، وكان طوله (٦٩) قدماً وعرضه (١٥) قدماً وارتفاعه (١٢) قدماً. وتكون عرض المضايف الكائنة على نهر دجلة عادة بعرض (١٨) قدماً وبارتفاع (١٨) قدماً. بينما يكون عرض المضايف الكائنة على نهر الفرات (١٥)

قدماً وارتفاع (١٥) قدماً وهو القياس المعتاد. وإذا ظهر أن المضيف آخذ في السقوط، يقوم صاحبه ورفاقه بتقليل الارتفاع بالأسلوب التالي:

يحفرون أولاً حفرة خارج قمة قاعدة أحد الأقواس حتى ينكشف مقدار قدمين من حزمة القصب من القاعدة المطمورة في الأرض. ثم يشدون القاعدة بالحبال ويسحبونها إلى هذه الحفرة. ثم ينظفون الحفرة ويقطعون مقدار قدمين من أسفل الحزمة ثم يعيدونها إلى مكانها ويملؤون الحفرة بالتراب المستخرج. وتتكرر هذه العملية مع كل قوس آخر من أقواس المضيف. ويبدأون العمل في جانب واحد ثم ينتقلون إلى الجانب الآخر.



بيت من عشائر المنتفك

أما إذا أراد تقليل الارتفاع مرة أخرى بعد سنوات فإنه يتّبع الأسلوب نفسه. ولكن الساكنين على نهر دجلة لا يعرفون هذه الطريقة والسبب هو أنهم يحصلون على القصب اللازم بسهولة وهم يفضلون دوماً بناء مضيف جديد.

ويحتاج المضيف عادة إلى إعادة البناء كل عشر سنوات. وتتوقف هذه المدة على حالة الأرض. والمضيف قد يدوم مدة خمس عشرة سنة في الظروف الصالحة والمؤاتية.

ولبناء مضيف كبير يتطلب استخدام (١٠٠) شخص لمدة (٢٠) يوماً. ويتقاضى (الاوسطة) فقط أجوراً عن عمله. أما العمال فإنهم يتوقعون وجبة



المدخل من الداخل

سخية من الطعام عند الظهيرة. لذلك يذبح المضيّف يومياً ذبيحة حتى يؤمن لهم اللحم. ويشكل مركز كل حزمة القوس الذي يتألف من القصب المستخدم من السابق والذي يجعل الحزمة ليّنة أكثر. ثم تجري تغطية الوجه بمجموعة من القصب الرفيع حتى يصبح ملمسه ناعماً.

وفي أراضي المنتفك، يكون ارتفاع القصب المتيسر أقل من الارتفاع الكامل للأقواس بكثير. ولذلك يجري تطويلها بشكل مستقيم بدلاً من جعله على شكل نعل الخيل. كما لا تكون عرضة إلى نفس التوتر كما يستخدمه البومحمد الذين يستخدمون قصباً بطول واحد.

ومن عاداتهم أن يلطخوا كل قوس من بعد الأنتهاء من بناء المضيف بكف محنّاة. وفي أكثر الأوقات يجددون طبعة الكف عند مرور الذكرى السنوية لبناء المضيف. وهم يزينون في كل رأس سنة أو في عيد النوروز الأقواس بباقات من القصب الأخضر.

وبشكل عام، يختلف مظهر المضيف الخارجي بين عشيرة البومحمد والازيرج والعشائر الأخرى القاطنة على نهر دجلة. فالسقوف، كما هي الحالة في كل المضايف مصنوعة من حصران طويلة متشابكة النسج. وفي أحد المضايف رأيت الحصير التحتاني مؤلفاً من قطعة كبيرة واحدة بحيث يغطي السقف كله، أما الجدران السفلى فإنها تتألف من حجرة واحدة بحيث تتدلى إلى الأرض كأنها أجنحة وراء الأقواس. ويمكن لفّها في

الأجواء الحارة وخفضها في الأجواء الباردة.

أما الطرف الجنوبي الغربي ، المواجه لمكة المكرمة، فإنه يحتوي على ثلاثة مداخل بن الدعامتين الضخمتين مع وجود نوافذ في الحصران الفوقانية. أما الجدار الشمالي الشرقي فإنه خالٍ من كل شيء.

وتصميم المضايف وأشكالها جيدة الاتقان كثيرة التنوع بين العشائر القاطنة على نهر الفرات. فيتألف الجدار التحتاني بأسره من القصب المنسوج على شكل مشبك، يتصل بالخارج من الأقواس ويربط بشريط من الحصير إلى السقف. ويوجد أمام المشبك هذا في الداخل حاجز واقٍ بارتفاع لا يقل عن قدم واحد حتى يتكىء عليه الجالس.



احدى المضايف على نهر الفرات

وفي وسط الطرف الجنوب الغربي، تجد مدخلاً ذا قوس مدبب، تحيطه نوافذ مشبكة. ويكون شكل الطرف الشمال الشرقي وتصميمه على نفس الشاكلة ولكن من غير مدخل.

ويكون ترتيب النوافذ المشبكة ونموذجها على أشكال مختلفة وفق

رغبة وهوى البنّاء في كل بناء. وفوق المدخل، تجد عادة مشبكاً من نفس الحجم والشكل كما هو موجود على المدخل الرئيس. وبجانبه نافذتان صغيرتان بتشبيك على شكل عقد.

وشاهدت في أحد المضايف نافذة واحدة مدورة الشكل كائنة في النصف العلوي من الجدار. وفي هذه الحالة، يجري تقسيم النصف التحتاني للحائط أفقياً إلى ثلاثة أقسام متشابكة مع وجود فراغ في الحصران بين المشبكات العلوية والتحتانية. ويجري تقسيم بناء المضيف عمودياً بواسطة عمودين وسطيين.

وكلما جلست في مضيف من المضايف الواقعة على نهر الفرات أشعر دوماً كأنني داخل كاتيدرائية رومانتشيكية أو كاتيدرائية قوطية، وهو تصوّر زاده السقف المضلع والنوافذ المزخرفة الكائنة في كلتا النهايتين جمالاً. والغرض من النوافذ دخول حزم من الضياء الساطع حتى تبدد العتمة الكائنة في الداخل.

ويمثل المضيف في منطقة نهري دجلة والفرات معاً إنجازاً معمارياً رائعاً مع أبسط ما يمكن من المواد. إن أسلوب البناء يعطي انطباعاً جيداً للزخرفة في القصب، وتأثيراً في نفوس الناظرين. وهذا الأسلوب من البناء مهم أيضاً من الناحية التأريخية. وهذه البيوت التي تشبه في بنائها البيوت المبنية منذ عهد بعيد، تعطي للمرء فكرة بأن الناس يقلدون في بنائهم تلك الأبنية المشيّدة من اللبن على شكل أقواس. مثلهم في ذلك مثل اليونانيين الذين خلّفوا أعمالاً فنية خشبية من الحجر.

إن الأبنية التي تشبه في شكلها هذه المضايف هي جزء من المنظر الذي نلاحظه في القسم الجنوبي من العراق طوال خمسة آلاف سنة أو أكثر. وسوف يختفي هذا النمط من البناء بعد عشرين سنة على أكثر احتمال، لكنها تختفي بالتأكيد إلى الأبد بعد خمسين سنة.



٢٤ ـ عداوة دم عمارة

أقضي كل سنة شهر حزيران ومعظم أيام شهر تموز في كثير من الأحيان بين العشائر القاطنة على امتداد نهر دجلة في شمال العمارة. وسلكت النهر مرتين تقريباً صعوداً إلى حد مدينة الكوت.

كان يرافقني كل من سبيتي وعمارة في كل مرّة إلاّ في سنة ١٩٥٤ حين جبت هذه الأرض من سيگال على ظهر طرادتي واجتزت الصحراء المغمورة بمياه الفيضان.

كنا في السابق ننتقل على ظهور الخيل في هذه الأراضي وكان مضيّفنا يعيرنا الخيول إلى القرية الأخرى أو إلى المخيم الآخر.

لم يكن أحد رفاقي قد ركب الخيل من قبل، وعندما فعلوا ذلك لأول مرة، سارت خيولهم بعكس الاتجاه. غير أنهم أصبحوا يجيدون ركوبها بشكل معقول فيما بعد. ولما كنت لا أجيد الجذف في الزورق، سرني أن أكون قادراً على إظهار براعتي في ركوب الخيل، ولو أننا كنا في أغلب الأحيان نسير على الأقدام لأننا كنا نضع أحمالنا على ظهور الخيل.

وفي فصل الصيف، لا يمكن تحمّل الحر عند منتصف النهار، غير أنني وجدت الجو في شهر حزيران لا يزال بارداً في الليل ومع ذلك كنت أحمل معي بطانيتين.

هبّت رياح شمالية غربية عالية طوال الشهر بأسره فسببت حدوث

زوابع ترابية بحيث تجعل مدى الرؤية قليلاً جداً لا يتجاوز الياردين. أما في شهر تموز فقد هدأت الرياح، إلا أنه لا يمكن التخلص من الرطوبة أثناء الليل مع وجود الحرارة بحيث قد تصل إلى (١٢٦) فهرنهايت في الظل.

ومن رفاقي المنتظمين الأربعة كنت أفضل عمارة وسبيتي. وكنا نحن الثلاثة أقرب ما يكون من بعضنا في هذه الحملات الاستكشافية بصرف النظر عن رفاقهم الآخرين من أبناء العشائر وعن المجالس المألوفة للأهوار.

وبحلول سنة ١٩٥٦ وجدت نفسي أهتم كثيراً بشؤونهم شيئاً فشيئاً.

كان ياسين وحسن قد تزوجا قبل سنة. أما عمارة وسبيتي فكانا مخطوبين، وعلمت أنهما سيتزوجان بعد مغادرتي العراق لأنهما لا يرغبان بمفارقتي وأنا موجود في هذه المنطقة.

أما أنا فلم أعزم على المجيء إلى العراق في السنة التالية لأنني كنت قد اتفقت مع أحد الناشرين حول تأليف كتاب عن جنوب الجزيرة العربية.

كان عمارة قد خطب أخت سبيتي بعدما ذهبت أنا وصحين نيابة عن عمارة إلى بيت لازم، والد سبيتي لهذا الغرض قبل خمسة أشهر. وكان علينا أيضاً أن نلتقي مع أخي لازم لأن لابنه الأسبقية في طلب يد البنت وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم.

ومن حسن الحظ، لم يخيّب لازم رجاءنا إذ وافق على طلبنا بعد نقاش طويل حددنا فيه مقدار المهر بـ (٧٥) ديناراً عراقياً. وبعملنا هذا أدخلنا السرور والبهجة في نفسي عمارة وسبيتي واحتفلنا في ذلك المساء في قرية بومفيفات بهذه المناسبة وأمضينا الليل بالرقص والغناء وإطلاق النار.

وفي تلك السنة، كما هي الحال في السنوات الأخرى، لم يكن لنا هدف من رحلاتنا الاستكشافية. وكنا نعلم أنّ الناس جميعهم يرحبون بنا أينما نحط رحالنا في القرى الصغيرة التي تقع أمامنا ما دمنا نتجه في سيرنا نحو الشمال.

كنا نتوقف عن المسير أينما نرغب ونعود أدراجنا حينما نشتاق للعودة. وكنا في ضيافة عشيرة البودراج لفترة من الزمن، وهي من العشائر المقبولة، تزرع الشلب على امتداد جداول المياه التي تتبدد في الأهوار المعزولة.

ومن هذه العشيرة استعرنا الزوارق لنزور عشيرة القلاّبة والعگيل البدوية التي ترعى جواميسها بين نباتات القصب القصيرة الارتفاع أو بين قطع من الأرض المليئة بالأشواك. ركبنا زوارقنا مرة ثانية وعبرنا حقول الشلب العائدة لعشيرة البوعلي، وهي فخذ من عشيرة البومحمد، تتبع الحاج سليمان في الشمال وذلك بعد المعركة التي دارت مع الشيخ مجيد الخليفة. وأخيراً وصلنا إلى عشيرة بني لام.

ترى النهر الخابط يجري من خلال أرض ترابية، ورأينا الشمس تشرق من أرض منبسطة وتبعث بأشعتها البرتقالية ثم تغيب في أرض منبسطة في الأفق أمامنا عبر سهول خالية.

كان بوسعي أن أرى وقت الفجر في بعض الأحيان وسط رعاة الغنم في خيم سوداء صغيرة حيث تدوسنا المواشي ويحوم الذب فوق رؤوسنا من الفجر إلى غسق الليل.

كنت أشعر بلذة حينما أجد نفسي دوماً بين هؤلاء البدو، حينما يعزف هؤلاء الرعاة بمزاميرهم في الأمسيات وهم جلوس حول النار المتأججة، فتفتنني هذه الجلسات الرائعة بسحرها وتبعث في نفسي النشوة.

وفي أوقات أخرى، كنا نصل إلى بعض القرى الواقعة على امتداد

ساحل النهر ونحل سروج خيولنا ونلقى الترحاب الحسن والضيافة الفاخرة لدى هؤلاء الشيوخ الصغار.

كان رفاقي متجانسين في السلوك. وكنا حينما نخرج من الأكواخ الطينية وقت الظهيرة نشعر بالرياح الحارة جداً تلفح وجوهنا وأجسادنا على عكس ما نجده من برودة داخل الأكواخ، لأن نوافذها كانت مغطاة بالعاقول وتبقى مبللة بالماء.

وفي هذه الأرض القفراء، كنت أشعر بنفس الأحاسيس من الحرية التي يتمتع بها هؤلاء القوم وهم يعيشون عيشة الكفاف في هذه الصحراء الفسيحة الأرجاء والخالية التي لا حدّ لها ولا نهاية.

كنت أعالج بأعداد كبيرة وأجد متعة لا حدّ لها في عملي هذا، وكنت أشعر دوماً كأنني أقوم بإنجاز عظيم آخر.

أحببتُ عشيرة بني لام كثيراً، فأصبح الكثيرون منهم أصدقائي أثر زياراتي السابقة. كنا نرى في كثير من الأحيان الذئاب. وقال لي رجل عجوز بأنه قتل ضبعاً في يوم من الأيام وهو يطاردها على ظهر الحصان. ويجب أن يكون عند المرء حصان جيد حتى يلحق بالضبع كما عرفت ذلك قبل عشرين سنة حينما كنت في السودان.

وأخبرني رجل آخر كيف حفر هو وأصدقاؤه حفرة وأخرجوا منها الغُرير، وكيف هاجمهم وعضّ شخصين منهم وكانوا يضربونها ضربات لا تؤثر فيه فأدركوا عند ذاك أنه من الصعب التخلص من هذا المأزق حتى وصل أحد الأشخاص وأطلق النار عليها فأصابه في فمه فسقطت على الأرض قتيلة.

كنا نرى أحياناً قططاً برية. ورأيت إحداها بلون بني، تختلف تماماً عن القطط الأخرى. إلا أنه لا أثر للغزلان في هذه المنطقة بل إنما تتواجد بكثرة على الحدود الإيرانية وهي آخذة بالانقراض هناك أيضاً مع الأسف

لأن الصيادين يطاردونها بالسيارات، علماً بأن هذا النوع من الصيد محرم قانوناً. ولكن الموظفين الحكوميين يتغاضون عن تطبيق القانون وبعملهم هذا اعتبرهم مجرمين.

شاهدت مرة، عندما كنت أهبط من قمم جبال كردستان وأنا على ظهر الخيل قطعاناً من الغزلان، كل قطيع يضم (٥٠) غزالاً أو أكثر. وهنا أيضاً في العراق يقضون على الغزلان كما قضوا بالأمس على الأسود.

أما نحن فكنا نصطاد الخنازير فقط وهي تتواجد بكثرة بين أحراش أشجار الطرفاء النامية على امتداد مجرى الأنهر، فضلاً عن وجودها بين الأدغال التي يبلغ علوها ثلاثة أقدام والتي تغطي الأرض الكائنة بجانب نهر دجلة. وهذا المكان هو أحسن مكان لصيد الخنزير بالرماح. أما أنا فقط أصطادها بالبندقية لأنني ما كنت أملك الرمح. فكنت أطلق النار عليها بالمسدس بيد واحدة والشكيمة باليد الأخرى. وكنت أجد متعة عند السير خبباً وأنا على ظهر الحصان. وكنت أشعر بالاشمئزاز حينما نصطاد بطريقة أخرى سيراً على الأقدام ونضطر إلى تتبع الخنزير. كنت أفسح في المجال إلى عمارة ليطلق النار على الخنزير. وكان رامياً ماهراً لا يخطىء هدفه إلاّ فيما ندر. واكتسب شهرة من جراء إصاباته الدقيقة هذه ووضعته في مركز يستفاد منه عند الحاجة.

وعندما رجعنا إلى المجر في نهاية شهر حزيران، جاءتنا الأخبار بأنّ بادي ابن عم عمارة قد قتل أحد أولاد رضوي.

والقتيل هو أخو حسن ابن رضوى الآخر الذي أراد أن يتزوج زوجة بادي وحاول جاهداً منع إتمام عملية الزواج.

تذكرت اليوم الذي أمضينا فيه مع بادي في العويسج قبل ثلاث سنوات. وكيف أن عمارة ذهب في ذلك الوقت ليلتقي مع رضوى حتى يجد طريقة يسوّى فيها هذه المشكلة. أما الآن فقد سفكت الدماء. وكان

عمارة قد قصّ علي، في وقت من الأوقات في أوائل السنة، بأن زوجة بادي قد هجرته وذهبت إلى بيت أبيها. وهنا في هذه المنطقة، بإمكان الرجل أن يطلق زوجته بمجرد أن يقول لها «أنت طالق». فإذا طلق الرجل زوجته بهذه الطريقة، لا يحق له أن يسترد المهر المدفوع.

أما الزوجة فليس لها الحق بأن تطلق زوجها بل إنما بإمكانها أن تهرب إلى بيت أبيها وتلتمس الملاذ أو تهرب إلى بيت أخيها وتطلب منه حمايتها. وإذا أصرّت الزوجة على البقاء وعاندت بأن لا تعود إلى بيت زوجها، يلحّون، عند ذاك، على الزوج بأن يطلق زوجته بعد أن يعرضوا عليه بأنهم سوف يدفعون له جزءاً من المهر أو كله.

أما في قضية بادي مع زوجته فإنه رفض أن يطلق زوجته حتى لا يتسنى لها أن تتزوج حسناً ولأنه المسبب لكل هذه المشاكل. ثم عرفت من بعد ذلك بقية القصة.



أقام بادي بيته على قناة بالقرب من نهر الوادية مبتعداً عنهم حتى لا تحدث له المشاكل. إلاّ أن حسن اصطحب معه أخاه الأصغر خلف مع أحد أولاد أخيه وقصدوا بادي ليقتلوه فيخلو الجو له ليتزوج الفتاة التي هو في غرام معها. كان بادي كما قلت يسكن بالقرب من قلعة صالح في صريفة على شكل سقيفة من الحصران وتتباعد هذه الصرائف الواحدة عن الأخرى.

وهنا لعب الحظ دوره، إذ كان بادي في ذلك الوقت، خارج المنطقة يبحث عن جاموسة مسروقة. فمكث هؤلاء القادمون لقتله مختفين ينتظرون عودته.

عاد بادي في اليوم الثالث من غيبته، فتقدم هؤلاء الثلاثة في آخر الليل إلى بيته. غير أنهم شوهدوا فصاح عليهم أحد الجيران قائلاً «ليش تجون كل يوم بالليل وتدورون على بادي؟ هو ما قتل واحد من أهلكم» ثم

أطلق النار فوق رؤوسهم فولوا هاربين.

غير أن كلب بادي خرج من الدار وطاردهم وخرج بادي يتعقب أثرهم، وكان نباح الكلب يرشده إليهم.

شاهدهم حينما وقفوا حتى يشعلوا سيكارة. وسمع صوت حسن وهو يقول: «خلي نرمي كلبه» وعندها أطلق بادي النار وأخطأ في رميه، فتفرق الثلاثة وهم يهربون. فأطلق بادي إطلاقة أخرى سقط على أثرها أحدهم على الأرض. ولما اقترب من هذا الشخص تعرّف إليه وكان خلفاً أخا حسن، فوجده قد جرح في فخذه وتمزق العظم وقال له بادي: «أنت تريد دم؟ هاك الدم!» فأطلق النار عليه مصوباً على رأسه فأرداه قتيلاً.

وبعد فترة، التقى حسن بابن أخيه من بعد تفرقهم أثناء الهرب وانتظرا حتى يحضر خلف. لكنه لم يحضر فعادا أدراجهما يبحثان عنه، ثم عثرا عليه فوجداه قتيلاً. فاهتاجا وقررا الانتقام بسرعة.

أسرعا نحو بيت بادي، ووقفا على ساحل القناة قبالة البيت ونادى حسن متحدياً بادياً بأن يخرج إليهما. فأخذ بادي بندقيته في الحال وخرج بحذر مختفياً في ظلام الليل الدامس. وما أراد أي منهم أن يجعل نفسه فريسة أمام الآخر إذا ما إراد التقدم نحوه وهو يخوض الماء. لذلك، بدأوا يتراشقون برمي الإطلاقات مصوبين على مكان وميض الإطلاقة.

وقبل حلول الفجر، تمكن الفريجات المجاورين لبادي من إقناع حسن بأن يعود أدراجه قائلين بأن الشيخ سوف يوقف بادي إن كان لا يزال في البيت. ثم تأتي الشرطة وتحبسه كما تحبس بادياً وتطلب منه أن يأتي أبوه ليسلّم نفسه للحكومة لأنه متهم بتهمتي قتل. فحمل حسن وابن أخيه جثة المقتول. أما بادي فقد أُصيب بجرح بسيط لم يقعده عن العمل، فقوّض داره عند الضياء الأول وحمّل كل حاجياته في القارب واختفى مع أسرته وحيواناته في متاهات الأهوار. ولا يعلم أحد بالمكان الذي قصده.

ولما أحطنا بالقصة بكاملها، بدا الحزن على وجه عمارة. فأردت أن أصرف الهم والحزن عن نفسه مبيناً له بأن هذا القتل لا يختلف عن أي قتل آخر بين هذه العشائر الذين لا يخضعون لأي قانون. وهنا تدخل سبيتي وقال: «ما تعرف أن عمارة هو أقرب واحد لبادي وما تعرف أن رضوي وعائلته يريدون هسه قتله؟».

كنت قد عقدت العزم على تمضية ثلاثة أشهر في منطقة نورستان، وهي منطقة جبلية موحشة غير معروفة تقع على حدود جترال **Ghitral**. وكنت على وشك الرحيل خلال عشرة أيام إلى أفغانستان. والآن، عليّ أن أفعل شيئاً ما يضمن سلامة عمارة.

طلبت من عمارة أن نذهب إلى قرية الرفيعية لألتقي بوالده واستفسر منه عما إذا كان هو ورشك ابنه الآخر يشعران أنهما في خطر. فقال لي: «لا. لكن، إذا ما يقدر رضوي من قتل بادي فحتماً يحاول قتل عمارة».

إقترح بأن ألتقي مع الشيخ مجيد الخليفة وأرتب قضية العطوة أو الهدنة لعمارة. وقال لي: «إذا يقدر يحصل عطوة لمدة ستة أشهر فقط، يكون رضوي قد برد. وبعدين يمكن أن يقبل بالديّة» فوافقت على الذهاب لألتقي بالشيخ مجيد في الصباح لأرى ما يمكنني أن أفعله.

كنت أعرف أنه لا يمكن لأي شخص مهما كان منفذاً ولا أيّ سيّد مهما كان محترماً أن يسوّي نهائياً عداوة الدم. إلا أنه بوسع القالط أو المختار أن يسوي المسألة بين المتخاصمين ويختم الميثاق بعقده الكوفية على قصبة ويناول كل طرف منها إلى جماعة. إن مركزه هذا يتوارثه أباً عن جد حتى ولو كان شيخاً خرفاً أو أبله. وأما إذا كان طفلاً فيتولى عند ذاك أقرب الذكور إليه هذا العمل بدلاً عنه.

سألت (ثقب) والد عمارة، عما إذا كان من الحكمة أن نصطحب معنا صحين لكونه قالطاً (مختار فخذ من الفريجات) حتى يدير المباحثات

لغرض الهدنة على شرط أن نتمكن من الاتصال مع رضوي. فأكد قائلاً بأنه، على أية حال، يمكن التوصل إلى العطوة بواسطة الشيخ أو بواسطة أي شخص آخر دون حضور القاتل.

أعرت عمارة مسدسي، ونصحته أن يقتني كلباً جيداً يصلح للحراسة، وأن يبدّل مكان نومه في البيت في كل ليلة.

كان عمارة يملك بندقية صيد عيار (٢٧٥) كنت قد أعطيتها له قبل سنتين مع عدد كبير من العتاد. واشترى عمارة في الأيام الأخيرة بندقية لـ (رشك) مستعملة لكنها جيدة. ولما أردنا الذهاب لننام قال أبوه ثقب: «راح ابقى أحرس البيت. أنا رجل كبير السن أحتاج إلى نوم قليل. أگدر ارتاح بالنهار». وقال رشك ضاحكاً «اقتل لنا ذئب. صاحب. واعطنا عينه حتى نخيطها على رأسنا. واللي يلبس العين ما ينام».

نمنا تلك الليلة ولم يحدث أي شيء. نمت بين حسن الصغير وبين عمارة أما رشك فنام بجانبه. وضعت بندقيتي المحشوة باطلاقة بجانبي كما وضع عمارة بندقيته بجانبه. أما والدهم فجلس في مدخل الباب وبندقية رشك فوق ركبتيه.

كانت والدة عمارة المدعوّة ناقة في الطرف الأخير من الغرفة تدندن بصوت هادىء لتسلّي نفسها وهي ترتّب بعض الأشياء. وكان أصغر الأطفال مشاكساً لذلك حملته أم عمارة وأخذت تداريه بجانب النار.

ومن مكاني كان بوسعي أن أرى عدداً لا بأس به من الجواميس المربوطة تقتات بالنباتات التي جمعها (چليب) لها من الهور على ضوء القمر.

ضغط حسن على يدي كعلامة بأنه مسرور لوجودي معهم ثانية. وقبل هذا كان حسن قد أراني حقيبة الكتب التي كنت قد أعطيته إياها وفيها دفاتره المدرسية.

والآن، كل شيء يسير بالنسبة لي حسب الأصول في بيت عمارة. فأخوه رشك قد بذر بذوراً كثيرة في أراضي كثيرة أكثر من أي وقت آخر، وكان قد حصد في السنة السابقة محصولاً جيداً على الرغم من شحّ المياه. ولم يبق ما يؤلمني غير الفكرة التي تراودني وهي أنه ربما يتسلل شخص ما في الظلام الدامس يحمل بندقية جاهزة للرمي، ينتهز الفرصة السانحة ليقتل عمارة دون سبب اقترفه. وما لم أرتّب لهم (عطوة) لن يهدأ لهم بالويناموا مرتاحين. وكنت ألاحظ عمارة في هذه الليلة يرفع رأسه من الوسادة كل ما سمع نباح كلبه في القرية.



٢٥ ـ سنتي الأخيرة في الأهوار

في وقت مبكر من صباح اليوم الثاني، ذهبت لزيارة الشيخ مجيد في داره الجديد الذي بناه بالقرب من المجر. بعثني بسيارة مع ممثله الشخصي، وزودني برسالة إلى الشيخ الذي يحل رضوي في أرضه بالقرب من قلعة صالح. ولما وصلته طلبت من الشيخ أن يضمن لي هدنة لمدة سنة لثقب وأسرته. فقال لي:

«رضوي هسه هايج وحزين وكلش غضبان. ما أعتقد يوافق على العطوة أبداً. وبالتأكيد ما راح يوافق إذا أدخلت بادي وياهم». وقلت له.

«بادي مسؤول عن نفسه. ما تهمني قضيته. أريد عطوة لأسرة ثقب».

«راح أبذل كل جهدي. لكن، ما أعتقد راح ننجح في مهمتنا. ابق هنا في المضيف وراح أروح إلى بيت رضوي مع ممثل الشيخ مجيد».

أرسلت سبيتي معهم ليمثلني.



صانع قارب من الصابئة

فأمضوا وقتاً لدرجة خفت فيها من أنهم أخفقوا في مهمتهم هذه. وأقوال القهواتي ما كانت مشجعة إذ يقول: «رضوي أبداً ما يقبل بالعطوة. وحلف يمين راح يأخذ دم مقابل دم. والله. ما كو خير من هذيج العائلة».



احد أفراد من القميرة من الاهوار الوسطية

وأخيراً عادوا وهم يحملون الأخبار بأنه من بعد الإلحاح الكثير، أفلحوا في إقناع رضوى بأن يعطي هدنة لمدة ستة أشهر لعمارة وأبيه وأخوته. وما كنت آمل أن أحصل على أكثر من هذا.

وبعد مضي ثلاثة أشهر، أي في شهر أيلول من سنة ١٩٥٦، توقفت لمدة أسبوعين في الأهوار وأنا عائد من رحلتي من نورستان. وأمضيت عدة أيام في قرية الرفيعية وفي خلال هذه المدة، تزوج عمارة أخت سبيتي ولكنه بقي يعيش مع والديه كما هي العادة المتبعة.

كانت زوجته فتاة رشيقة القد، لطيفة، لها عينان سوداوان واسعتان. كانت قد حببت نفسها إلى أسرة زوجها، إذ كانت هي ومطرة لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

وبينما كنا نراقبها وهي ذاهبة لجلب الماء من الساقية، قال لي ثقب العجوز في أحد الأيام: «الحمد لله، إبني تزوج امرأة جيدة. ولولا عطفك ما كان يقدر يتزوج إلا بعد عدة سنوات. أريد أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلنا».



تصليح القوارب

كنت منهمكاً بأعمالي فلم أستطع العودة إلى العراق حتى بداية سنة ١٩٥٨. وحينما قدمت ذهبت إلى البصرة بالطائرة. وبإمكاني أن أرى الأهوار تحتنا. وكنت أفكر في موضوع الأشهر الستة القادمة التي يتوقف عليها مصير عمارة وأسرته.

وحالما نزلت من الطائرة وجدت عمارة وسبيتي ينتظران في المطار وتوجها نحوي حينما دخلت دائرة الكمرك. فأخذا يحضنانني من شدة الفرح. ولما سألتهما عن أحوال أسرتيهما كانا يردان بالجواب المعتاد قائلين «يوصلولك سلام».

وجدت سبيتي، الذي تزوج خلال غيابي عنهم بالمظهر نفسه لم يتغير

منه شيء. لكنني وجدت عمارة قد تغيّر إذ نضج جسمه كثيراً وأصبح متحفظاً بشكل غريب.


عمارة بن ثقب

ولما وصلنا إلى القنصلية البريطانية، أخذني سبيتي وأخبرني بأن والد عمارة وزوجته قد توفيا.

سألت في الحال عما إذا كان رضوي قد قتل ثقباً. أجاب سبيتي بالنفي ثم قال بأنه توفي بأجله الموعود في الصيف بعد أن عانى من مرض في معدته لمدة طويلة وقاسى آلاماً كثيرة. ومن أقوال عمارة عن الأعراض المرضية لوالده تبين لي أن الوفاة كانت بسبب داء السرطان «لو چنت ويانا، صاحب. چان اعطيته دواء حتى يزول الألم. ما أقدر اسوي كل شيء لأنه هو والدي». وبعد أسبوعين من وفاة والد عمارة، ذهبت زوجته إلى بيت أبيها بسبب الولادة حسب العرف الجاري. وأخبرني عمارة بأن والدته كانت ترضعه مع طفلها الآخر الذي يبلغ من العمر سنتين. «لكن. حليبها قليل، والجواميس ما عندها هسه حليب».


صبي من عشيرة الفريجات

وبعد التشاور مع أناس كثيرين في البصرة حول تغذية هكذا طفل، نُصحت بأن أشتري له كمية من طعام الأطفال من نوع فيريكس Farex وأنواع أخرى. ولما

وصلنا القرية اقتضى مني أن أبذل جهدي لأقنع والدته حتى تطعم الطفل هذا الغذاء.

قالت لي: «هل الطعام زين إلى أولاد الشيوخ. لكن الطعام الصحيح لأولادنا هو خبز الأرز. وإذا ما كو حليب تستعمل ماي وشوية طين من النهر».

غير أن أخت عمارة المدعوة مطرة تطوعت لرعاية الطفل وتعهدت بإطعامه من هذا الطعام مثلما بيّنا لها طريقة الاستعمال.

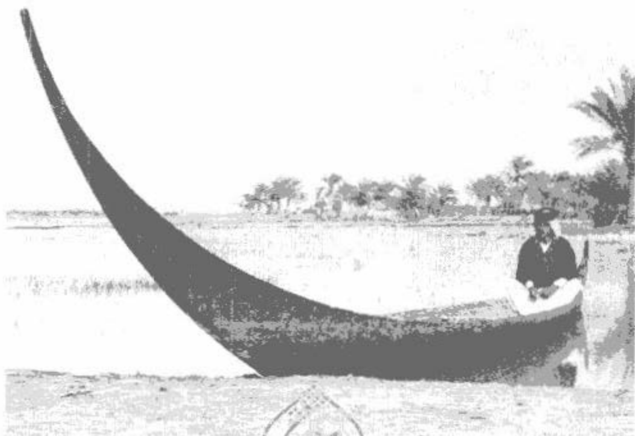


ياسين . الشخص الآخر من ندتية زورقي





طرادتي في المياه الهائجة





بدأ الطفل ينمو ويكبر ويسمن نتيجة لهذا الغذاء. وكان يبدو نصف ميت حينما رأيته لأول مرة وأنا متأكد أنه كاد يموت لولا استعماله هذا المغذي.

وفي إحدى المرات، أصابنا الخوف حيث كنا قد خرجنا في طرادتي وبقينا مدة شهرين ثم عدنا ووجدنا الطفل يعاني من آلام الاسهال والقيء الشديد.

تأثر عمارة بحالة طفله وأيقنت أنه ميت لا محالة. لكنني طمأنته فحقنته بإبرة البنسلين ثم رأيته في صباح اليوم التالي معافى وفي أتم صحة.

التحق بنا حسن في قرية بومفيفات ومعه ابن أخيه المدعو كاثر ليحل محل ياسين الذي بقى مع أسرته في القرية.



فصل الربيع في الاهوار





الشتاء في الاهوار



من افراد عشيرة السودان

قمنا بزيارة القرى كلها تقريباً . وكنت أشعر بفرح يغمر قلبي حينما كنت أجد الناس يفرحون بقدومي إليهم ثانية. وقال الكثيرون منهم «حسبنا طبيبنا غادرنا وراح إلى بلدته حتى يعيش ويستقر عند أهله. الله يحفظك.



مع أفراد من عشيرة بني لام

صاحب. هسه أنت ويانا هنا. راح نصير كلش زين».

وكنت أشعر أن هذه الكلمات هي بمثابة مكافأة كبيرة لي عما كان يصيبني من تعب وسخط وإخفاق. **أما موظفو الحكومة فإنهم ما زالوا يظنون أني جاسوس بريطاني**؛ ولو أنه كان من الصعب التصور عن نوع المعلومات العسكرية التي أكتشفها في الأهوار. غير أن القرويين الذين وثقوا بي كانوا يعرفون بأن وجودي هنا معهم هو للمتعة ومساعدتهم إن أمكن.



والدة حسن. عفراء ـ من بيت مكزي

كانت عداوة الدم لا تزال تهدد أسرة عمارة. وقد حُذِّرت عدة مرات بأن رضوي قد تخلى عن محاولة قتل بادي ويريد أن يقتل عمارة بدلاً عنه.

كانت جماعتنا مسلحة تسليحاً جيداً، وشهرتنا كهدافين قد انتشرت في كل مكان، فمن الصعب على رضوي أن يحاول قتل عمارة في الوقت الذي نكون فيه سوية. ولكنني كنت أخشى ما سيفعلونه من بعد مغادرتي القرية.

كان بادي في أمان لأنه يعيش بين عشيرة الفرطوس في الغرب. وإذا ما شوهد رضوي في قريتهم فإنه سيكون غريباً. أما عمارة الذي يسكن قرية الرفيعية التي تبعد مقدار مسيرة ساعة أو ساعتين عن مكان سكنى رضوي فإنه سيصبح هدفاً واهناً له.

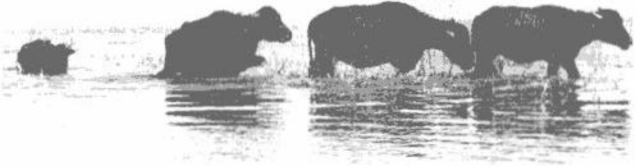


سترة من قرية ابو ليلى ـ قسم السكن من النهاية اليسرى

وبما أنني أيقنت أن رضوي سيضرب ضربته إن آجلاً أو عاجلاً، لذلك نصحت عمارة بأن يرحل من هذه القرية ويسكن في سيگال. لكنه رفض وقال «ما أريد أختفي. إذا بادي يفضّل يبقى مع عشيرة الفرطوس فهذا يعود له. أنا راح ابقى هنا لأن أصدقائي كلهم هنا ورشك باقي في أرضه. عندي بندقية وأنت أعطيتني مسدساً. ما أريد مشاكل. أهل ثقب يريدون يعيشون بسلام. لكن إذا جاء رضوي ويبحث عني راح أقتله».



في قرية القبور في احدى السنين عندما تكون المياه واطئة جداً



الجواميس في قرية أبو ليلى

وفي إحدى المرات ذهب السيد (سروط) بنفسه ليلتقي برضوي ويطلب منه أن يقبل بالديّة ولكن باءت جهوده بالفشل، وعندها استشاط السيد سروط غضباً من أعمال رضوي بحيث ضربه بالقصبة.

عزمت في آخر الأمر، أن ألتقي بنفسي مع رضوي وأجبره على إعطاء



راعي الجواميس من ربيعه في قرية أبو ليلى

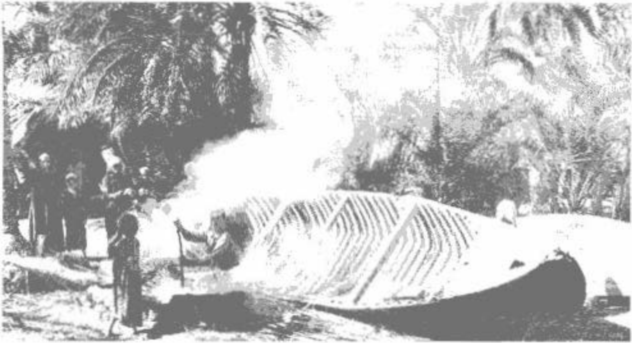


مخيم لعشيرة ربيعة من قرية أبو ليلى





محرقة الطابوق على نهر دجلة بالقرب من العذير



تصليح البلح في الهوير

عمارة وأخوته هدنة أمدها سنة واحدة هذه المرة. وسوف تكون هذه المدة مقبولة جداً لديهم لأنني سأعود مرة أخرى إليهم. غير أن المشكلة هي العثور على مكان رضوي.



صنع المشحوف في الهوير

ذهبنا مرتين نبحث عنه ولم نفلح في العثور عليه. ثم سمعت في نهاية شهر مايس سنة ١٩٥٨ بأنه يتواجد بالقرب من الغدير، يسكن على أرض أحد اشيوخ البومحمد المدعو (شنته).

قصدنا ذلك المكان والتقينا بالشيخ (شنته)، وهو رجل طاعن في السن، جالس في مضيفه. وبعد الشكليات من التحايا والاستفسار قلت له:

«جئت حتى أحصل على عطوة لعمارة من رضوي. أريد أن يحضر إلى هذا المضيف».

«وين هو؟». سأل شنته وهو يتظاهر بعدم معرفته.

«هناك. في البيوت الواقعة على حافة الأرض اليابسة».

استدعى شنته أحد رجاله وقال له: «روح عند رضوي وقل له بأنني أريده. أجلبه معك» انتظرنا ونحن جلوس خارج المضيف فوق الحشيش بظل المضيف، لأن الجو كان حاراً جداً.



المرحلة الاولى من صنع المشحوف

بعد مضي نصف ساعة عاد الرسول وحده.



«رضوي ما يقبل يجي!»

نظرت إلى شنته الذي هزّ كتفه وهو يقول «سشوي بعد إذا ما يريد يجي؟»

باچر راح اطرده من أرضي».

وبدا لي بأنه لا يريد أن يساعدنا في هذا الموضوع.

«كلش زين» قلت بغضب. «سبيتي: حسن. كاثر. تعالوا معي. نحن راح نروح ونجيبه إلى هنا» فأخذت بندقيتي ونهضت.



الحاج حميد



تجديد التير على الطردة



طرادتي تطوف في بحيرة ضخمة

نهض شنته بسرعة على قدميه وقال لي «لا تروح صاحب. رضوي موخوش انسان».

«إذا انت ما تجيبه، أنا راح أجيبه» قلت له.

«لا. أنا وابني راح نروح عنده. ابق انت ورفاقك هنا».

توجه شنته يتبعه جمع من أتباعه نحو بيت يقع على مسافة بعيدة. طال انتظارنا لهما حتى أخذ الليل يقترب. ثم رأيناهم قادمين. ولما أصبحوا قريبين منا قال لي عمارة بصوت خافت «رضوي وابنه معهم».

نهضنا وتبادلنا التحايا، وجلس رضوي وجماعته قبالتنا. وجدته صغير الجسم، هزيلاً، ذا لحية صغيرة وذا عينين تنمان عن القسوة. أمّا ولده حسن فيبلغ من العمر (٢٠) سنة تقريباً، قصير القامة، بدين الجسم، فظ الطباع. وكان معه ثمانية أشخاص من عشيرة الفريجات. كلهم غير مسلحين ما عدا بالخناجر، وأنا لا

أريد أن أخاطر فوضعت مسدسي فوق الحصير بجانبي.

«صاحب. هذا هو رضوي» بدأ شنته بالحديث «جاء لأنه سمع بأنك تريد أن تتحدث معه».

فقلت له «أريد (عطوة) لمدة سنتين لعمارة وأخوته. وأنا ما يهمني بادي».

«لا أوافق أبداً. ما راح أعطي عطوة» أجاب رضوي بفتور.

«سنتين» كررت القول عليه ولم أحوّل نظري عنه.

«لا أوافق أبداً!».



التنقل في الاهوار في فصل الصيف





احتفالات الزواج في قرية الرفيعية



عشيرة البو محمد في احدى الهوسات

بالقرب من المجر الكبير



احدى قرى البو محمد على نهر العدل وهو فرع من المجر

نظر كل واحد منا إلى الآخر بصمت.

وأخيراً قال سبيتي: «نحن طالبين عطوة لأهل ثقب فقط».

«لا، ولا لأي أحد، هسه وإلى الأبد».

كنت أعرف سوابق رضوي فقلت له: «اسمع زين يا رضوي، اسمع زين. إما تعطيني عطوة هسه أو راح أروح باجر إلى الحكومة. أنت مطلوب من السابق بتهمتي قتل. فإذا دخلت السجن راح تقضي بقية حياتك في السجن. وحسن إبنك ساعدك في القتل الأخير. راح يتوقف هو الآخر» توقفت بعدئذ عن الكلام بضع لحظات،



عاصفة هوائية بالقرب من الحمار



السوق من العهود على نهر الفرات

ثم واصلت القول: «سأعطي مكافأة مائة دينار لتوقيفك. راح يبحث عنك وعن ابنك كل شرطي في اللواء وعدد كبير من الناس أيضاً. فكر زين بالله عليك! وأنا أعرف الشيء اللي أقوله. أقسم بحياتي وأقسم بما هو أهم من



الازيرج يفككون بيوتهم للذهاب إلى الحصاد



اقامة الاقواس



بناء ربعة المرحلة الاولى

ذلك. إذا قتلت عمارة لما أكون في الخارج أبذل كل جهدي حتى أتأكد أنك مقتول مهما يكلفني هذا العمل من مال



الفريجات يصطادون السمك بالرماح



صريفه

كان عمارة طوال هذا الوقت يسبح بمسبحته وهو جالس بجانبي. ومر من أمامنا عدد من الجواميس الواحد وراء الأخرى وهي عائدة إلى بيوتها من الأهوار. والشمس بدأت بالمغيب، والسماء محمّرة، والبعوض يدور حولنا محدثاً صوته المعتاد. ثم اعتدلت بجلستي. وبعد بضع لحظات قال أحد الرجال من جماعة رضوي، له لحية رمادية، من عشيرة الفريجات، موجهاً كلامه لرضوي «تعال وياي برّة حتى نحجي حول هل المسألة».



قارب محمّل بالحصران

نهضوا ومشوا مقدار مائة يارد عنا ثم جلسوا. كنت أسمع هممـاتهـم. ثـم ارتـفـع صـوت

رضوي بغضب. حل الظلام وجلب أحد الخدم فانوساً وأمر شنته بأن يجلب القهوة. وبعد مضي ساعة من الوقت رجعوا إلى أماكنهم ثم بدأ ذلك الشخص نفسه بالكلام وقال:

«رضوي إنسان طيب. وافق هو وابنه على إعطاء أهل ثقب عطوة مدتها سنة واحدة. مو من عادتنا أن نعطي عطوة لمدة أطول. أما بالنسبة إلى بادي فما راح يعطيه رضوي أي عطوة هسه ولا إلى الأبد».



المعدان في طريق عودتهم من السوق

قال شنته لي: «صدّقه، صاحب. في الحقيقة، ليس من عادتنا إعطاء عطوة لفترة تزيد على السنة. وعندما تنتهي مدة العطوة يمكنك تجديدها. صدّق يا صاحب».

«هل تضمن العطوة أنت؟. أريد أربعة أشخاص من مختلف القبائل».

«سأرتب ذلك» قال شنته.

تشاورت مع جماعتي ثم قلت «زين. نحن موافقين».

وبعد انتهاء الشكليات عادت جماعة الفريجات ثم أرسل شنته إحضار العشاء.

كنت على وشك المغادرة إلى لندن لأن أمامي مدة ستة أشهر أخرى من العمل المضني لإعداد الكتاب قبل أن تتاح لي فرصة العودة مرة أخرى.



في طريق عودتهم إلى الفرات لغرض الحصاد

والآن، بوسعي أن أذهب وأنا مرتاح البال على الأقل. ولكن ستنقطع أخبار عمارة وأهله عني بعد مغادرتي العراق إلى وطني ولن أستطيع الاتصال بهم لمعرفة أحوالهم.

وعندما عزمت على مغادرة العراق ذهبت إلى البصرة لأرتب معاملة سفري هناك وعندما ذهبت إلى المطار، التقيت بعمارة وسبيتي.

وبما أن الطائرة في منتصف الليل لذلك انتظرنا في فندق المطار إلى حين موعد حركة الطائرة. وشاهدت على الجدار الكائن قبالتي تصويراً ممزقاً لمضيفة طائرة غربية قدّمت وجبة طعام لشاب خفيف الحركة وكتب تحت الصورة:

«شوف العالم وأنت على كرسيك».

والآن هبطت الطائرة التي ستقلني، ودخل القاعة حشد كبير من المسافرين المتعبين وجلسوا على المقاعد بينما بدأت الطائرة بالتزود بالوقود.

جلب الخادم لهم الكوكا كولا. وكان هؤلاء المسافرون قد غادروا في ذلك الصباح أو قبل ليلة من بانكوك أو من سدني. والآن سألتحق بهم وسأكون في لندن بعد ثماني ساعات. وهذا الوقت يكفي للتنقل بالمشحوف من قرية قباب إلى القرنة وتناول الغداء مع عشيرة البوبخت في الطريق.

بدأت مكبرات الصوت بنقل المعلومات عن حركة الطائرة، بوسعي التقاط بعض الكلمات مثل «المسافرون.... على خطوط شركة الخطوط الجوية البريطانية فيما وراء البحار، رقم الرحلة..... روما...... لندن.... جوازات السفر.... نقطة تفتيش جوازات السفر».

كانت هناك حركة داخل القاعة. فنهضت من مقعدي ثم جمعت حاجياتي وقلت لرفاقي «لازم أروح هسه».

قبلني عمارة وسبيتي وودعاني ثم قال لي عمارة «إرجع إلينا ولا تطول الغيبة وأجبتهما قائلاً «في السنة القادمة إن شاء الله». ثم التحقت بالجمع الواقف الواحد وراء الآخر.

وبعد ثلاثة أسابيع، كنت أتناول الشاي مع أصدقائي في آيرلنده، إذ بأحد الأشخاص يدخل علينا قائلاً «هل سمعتم بأخبار الساعة الرابعة؟ حدث انقلاب في بغداد وقُتلت العائلة المالكة وقتل نوري باشا السعيد رئيس وزراء العراق. والجماهير الحاشدة أحرقت السفارة البريطانية..» أدركت عند ذاك بأنه لن يُسمح لي بالعودة إلى العراق مرة أخرى وأن فصلاً آخر من حياتي قد إنتهى.



المحتويات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی